في التاريخ المصري القديم

الجزء الثاني
عصر الدولة الحديثة

دكتور
زكريا رجب عبد المجيد

دار المعرفة الجامعية
طبع نشر توزيع

فـــى

التاريخ المصرى القديم

الجزء الثانى

عصر الدولة الحديثة

دكتـــور

زكريا رجب عبد المجيد

قسم التاريخ والآثار المصرية

المعهد العالى للدراسات الأدبية

كينج مريوط – الإسكندرية

٢٠٠٩م / ١٤٣٠هـ

دار المعرفة الجامعية

٤٠ شارع سوتير – الأزاريطة – ت : ٤٨٧٠١٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى والدى رحمه الله

وأدخله فسيح جناته

مقدمة

تميز عهد الدولة الحديثة برخاء وثروة منقطعى النظير، وبلغت حضارة البلاد مستوى لم تبلغه من قبل، وتميل مخلفات المعابد من ذلك العصر، والتى تنتشر أطلالها الرائعة على ضفاف النيل إلى الضخامة والفخامة، وتشير إلى جمال الصنعة ودقة الفن، نذكر منها بوجه خاص معابد طيبة التى كانت تعد عاصمة الدنيا فى ذلك الوقت،والتى لبست ثوبًا قشيبًا من الفخامة والجمال وبخاصة فى عهد الفرعون "أمنحوتب الثالث". ومن أهم تلك المعابد معبدا الأقصر والكرنك فى البر الشرقى ومعابد الرمسيوم والدير البحرى ومدينة هابو فى البر الغربى. ومن معابد ذلك العصر الرائعة أيضًا معبد سيتى الأول من ملوك الأسرة التاسعة عشرة فى أبيدوس، ومعابد "رمسيس الثانى" ببلاد النوبة، وخاصة فى "أبو سمبل". ويعد بهو الأعمدة بالكرنك من عجائب البناء والعمارة، إذ رفع سقفه على عمد بلغ عددها أربعة وثلاثين ومائة عمود يجاوز محيط الواحد منها عشرة أمتار.

كذلك تقدم الفن تقدمًا كبيرًا، كما يبدو فى تماثيل تحتمس الثالث ورمسيس الثانى وفى نقوش قبور وادى الملوك ووادى الملكات وقبور النبلاء بطيبة. وتنطق مخلفات الصناعة فى قبور الدولة الحديثة وبخاصة فى قبر "يويا" و"تويا" والدى الملكة "تى" زوج "امنحتب الثالث"، وفى قبر الملك "توت عنخ آمون" .بمهارة الصانع المصرى ودقة صناعته وبلوغه الذروة فى الصناعات الدقيقة والفنون التطبيقية.

واتسعت التجارة فى عهد الدولة الحديثة فشملت فينيقيا وسوريا وبلاد بنت والسودان وجزر البحر المتوسط، وقد خلدت الملكة "حتشبسوت" من الأسرة الثامنة عشرة أخبار بعثتها الكبيرة إلى بلاد بُنت على معبدها بالدير البحرى، وقد تميز عهد الدولة الحديثة بوجه عام باتصال المصريين بالخارج، واندماجهم فى علاقات وثيقة مع الشعوب المجاورة، واشتراكهم فى معترك الحياة الدولية لا عن طريق الغزو والفتح فحسب، بل كذلك عن طريق العلاقات التجارية والصلات الدبلوماسية وتزاوج الفراعنة بأميرات أجنبيات لتحقيق أهداف سياسية.

كذلك تميز عهد الدولة الحديثة بتقدم العلوم وازدهار الأدب ورقى الحياة الاجتماعية وشيوع الترف فى شتى مرافق الحياة من مسكن ومأكل وملبس وأدوات زينة ووسائل لهو ومتعة.

ويسمى عصر الدولة الحديثة (عصر التوسع الخارجى)، ولعل السبب فى ذلك هو خروج الهكسوس من مصر على يد "أحمس"، الذى يعد مؤسس الأسرة الثامنة عشرة، وواضع حجر الأساس فى بناء مجد مصر الحربى، ورأس عهد جديد زاهر هو عهد الدولة الحديثة.

وكان فى غزو الهكسوس واحتلالهم للبلاد عظة كبيرة للمصريين، إذ أدركوا ما للقوة العسكرية من أهمية كبرى فى حماية الوطن والزود عن حياضه. كما نتج عن اشتراكهم فى حرب التحرير، تذوقهم لذة النصر وتهيؤ الفرصة لهم ليحذقوا أساليب القتال ولتنبعث فيهم الروح العسكرية، ومن ثم فقد اهتموا بإنشاء جيش قوى، عامل، منظم، سلحوه بخير الأسلحة المعروفة فى ذلك الوقت وزودوه بالعجلات الحربية التى عرفوها عن الهكسوس. وبهذا الجيش العظيم، يتقدمه فرعون ويتولى قيادته، تكونت – ما جرى بعض المؤرخين على تسميتها – بالإمبراطورية المصرية، والتى كانت تشكل فى الحقيقة وحدة إفريقية أسيوية تتزعمها مصر وتضم معها شمال السودان وفلسطين وسوريا. والواقع أن مطاردة الهكسوس قد أتاحت الفرصة للمصريين ليطلعوا بأنفسهم على موارد الأقطار الأسيوية، ويتعرفوا إلى شعوبها، فأدركوا منذ ذلك الحين أن مصر وجيرانها يمكنهم أن يؤلفوا وحدة قوية متكاملة مكتفية بذاتها. وقد اضطر فراعنة الدولة الحديثة إلى استخدام القوة فى إقامة تلك الوحدة وللمحافظة عليها، نظرًا لما كان عليه أمراء وحكام البلاد الأسيوية فى ذلك الحين من تفكك وانقسام، وما كان يحاك وقتذاك من فتن واضطرابات. وقد اضطر فرعون مصر العظيم "تحتمس الثالث" إلى قيادة سبع عشرة حملة فى آسيا ضرب بها على أيدى العابثين والمتآمرين، وأحل بها الاستقرار والنظام محل الفوضى والشقاق، حتى ذاع صيته فى مختلف الأرجاء، وأخذ الملوك والأمراء فى شتى الأنحاء

يخطبون وده ويرسلون إليه الوفود تحمل الهدايا وتقدم أطيب مشاعر المودة. وهنا يجب التنويه بأن المصريين قد انتهجوا سياسة حكيمة فى البلاد الأسيوية، فهم لم يمسوا عقائدها أو قوانينها، ولم يتدخلوا فى شئونها الداخلية إلا بمقدار، كما تركوا حكامها الأصليين يباشرون سلطاتهم كما كانوا يباشرونها من قبل. وقد حفظ معظم هؤلاء الحكام الود لمصر، وحين أخذ الحيثيون فى تهديد النفوذ المصرى فى تلك البلاد فى عهد اخناتون، سارعوا إلى إرسال الرسائل إلى فرعون مصر ينبهونه إلى الخطر المرتقب، ويناشدونه إنقاذ الموقف، ويأسفون على تلك الوحدة التى توشك على الانهيار.

والواقع أن هذه الوحدة التى أقامها المصريون بجهودهم وأرواحهم قد بدأت فى التفكك أثر الثورة الدينية التى أشعلها "اخناتون" عندما انهمك فرعون فى التسبيح لمعبوده الجديد، وانصرف المصريون إلى الخلافات الدينية، فى حين أخذ النفوذ المصرى فى آسيا فى التداعى تحت ضغط الحيثيين ومؤامراتهم. كذلك ظل النظام الحكومى والإدارى سليمًا، يشرف عليه فراعنة الأسرة الثامنة عشرة بكفاية ومقدرة من عاصمتهم العظيمة "طيبة" حتى جاء "اخناتون"، إذ نتج عن إغفاله لشئون الحكم أن فسدت الأداة الحاكمة،وأساء الموظفون استخدام سلطة وظائفهم، ولكن اعتلى عرش البلاد الفرعون المصلح "حورمحب" الذى روعه ما رأى من فساد نظام الحكم وسوء حاله والذى أدرك – بالرغم من أنه جندى قديم ورجل حرب – أن الأجدى لمصر أن تصلح شئونها الداخلية وتقضى على الفساد الذى انتشر فى البلاد، فأصدر من القوانين الصارمة ما أصلح به حال البلاد، وضرب به على أيدى العابثين، فعبد بذلك الطريق أمام خلفائه ليستعيدوا مجد البلاد.

وقد حكمت البلاد بعد وفاة حورمحب أسرة جديدة هى الأسرة التاسعة عشرة، التى أخذت مصر فى كتفها تسترجع ما فقدته من قوة ونفوذ، وتجددت بفضل ملوكها من الرعامسة العظام وحدة بلاد الشرق العربى القديمة. ويعد "رمسيس الثانى" أشهر ملوك مصر القديمة وأبعدهم صيتًا، كما تعد حروبه آخر

المجهودات الحربية التى بذلها ملوك الدولة الحديثة فى سبيل المحافظة على الوحدة بين بلاد المنطقة، وقد خاض رمسيس الثانى معارك طاحنة مع الحيثيين الذين كانوا يدبرون المؤامرات فى بلاد الشام – أشهرها معركة قادش، التى تفوق أهميتها السياسية قيمتها الحربية إذ أنهت الخصومة بين فرعون مصر وملك الحيثيين، فاتفقا على توقيع ميثاق تعهد فيه الطرفان بعدم الاعتداء وأن يسود بينهما السلام.

ومع ذلك فقد أخذ مركز فرعون فى الضعف منذ قيام الأسرة العشرين التى اعتمد ملوكها على المرتزقة من شرادنة وغيرهم، وبدأ الانحلال والفساد يسرى فى مرافق البلاد من جديد. وقد طمع فى البلاد كل ذى قوة، وتعددت غارات الليبيين وشعوب البحر المتوسط على مصر. وقد تمكن الجيش والأسطول المصريين من صد تلك الغزوات ورد أصحابها مذحورين وبخاصة ما وقع منها فى عهد رمسيس الثالث، إذ تميزت بخطورتها واتساع نطاقها. كذلك من دلائل الرضى وضعف هيبة فرعون حينذاك أن تآمرت إحدى زوجات "رمسيس الثالث" لإيصال ابنها إلى العرش، كما يشير عجز الحكومة عن حراسة قبور الموتى، التى كثرت حوادث سرقتها ونهبها، إلى فساد الإدارة واحتلال الأمن وضياع هيبة الحكومة، وقد اختتمت الدولة الحديثة أيامها فى أواخر الأسرة العشرين حين تلاشت سلطة فرعون تمامًا وازدادت قوة كهنة آمون حتى تمكن كبيرهم "حريحور" من الاستيلاء على العرش.

وبعد ما سبق فقد اعتاد علماء المصريات على تسمية عصر الدولة الحديثة بمسمى "عصر الإمبراطورية" بل هناك الإمبراطورية الأولى ممثلة فى عهد الأسرة الثامنة عشر والإمبراطورية الثانية ممثلة فى عصر الأسرة التاسعة عشر، أما الأسرة العشرون فتعتبر آخر عصور القوة والمجد فى دولة الفراعين.

لذلك جاء هذا المؤلف فى خمسة فصول الأول منها يختص بدراسة الأسرة الثامنة عشر والثانى الأسرة التاسعة عشر والثالث الأسرة العشرون، أما الرابع فهو يدرس طبيعة علاقة المملكة المصرية بالسودان القديم، حيث أن النوبة والسودان

القديم كانا يمثلان العمق الاستراتيجى لمصر فى اتجاه الجنوب، أما الفصل الخامس فيعرض بإيجاز المظاهر الحضارية لعصر الدولة الحديثة والتى بلغت أوج ازدهارها فى تلك الفترة.

وفى النهاية لا يسعنى إلا أن أتقدم بخالص شكرى للأخ / كريم عبد الله حافظ مدرس اللغة المصرية القديمة المساعد بالمعهد، والأخ / محمد عبد السلام عباس مدرس التاريخ الإسلامى المساعد بالمعهد لتوفرهما فى مراجعة أصول وطباعة هذا الكتاب حتى ظهر لنا فى هذه الصورة، أيضًا كل الشكر للأخ الحاج / صابر محمد عبد الكريم مؤسس دار المعرفة الجامعية لتولية طباعة ونشر هذا المؤلف.

والله ولى التوفيق ،،،

د/ زكريا رجب عبد المجيد

الفصل الأول

الأسرة الثامنة عشرة

(١٥٥٠ — ١٢٩٢ ق.م تقريباً)

الأسرة الثامنة عشرة
(١٥٥٠ — ١٢٩٢ ق.م تقريباً)

أحمس الأول – نب بحتى رع
(١٥٥٠ – ١٥٢٥ ق.م)

لا نعرف السبب الرئيسى الذى جعل المؤرخ المصرى مانتون يضع أحمس الأول على رأس الأسرة الثامنة عشرة، لأنه كان إمتداد للأسرة السابعة عشرة فهو ابن سقنن رع تاعا الثانى وأخ كامس الذين بدأوا شرارة الحرب ضد الهكسوس، ولكن ربما كان ذلك لأن أحمس هو الذى تم على يديه تطهير مصر من الهكسوس، وبداية عصر جديد من الحرية، وبداية لعصر تكوين الإمبراطورية المصرية، فقد ظهر ذلك أيضاً فى معبد الرامسيوم فى غرب طيبة نجد صورة واضحة حيث نجد الملك "مينا" والملك "منوحبت نب حتب رع" والملك "أحمس الأول" يظهرون على أنهم مؤسسى الدولة القديمة والوسطى والحديثة. وقد تولى عرش مصر وعمره حوالى ستة عشر عاماً وتزوج من أخته التى كان لها نفس اسمه : أحمس ولكن أضافت إليه اسم نفرتارى[١].

ويُرى فى نقش أحد ضباطه والذى يدعى أحمس ابن أبانا الحروب التى قام بها هذا الملك وهى طرد الهكسوس من مدينة أورايس التى كانت عاصمة الهكسوس فى مصر ثم مدينة شاروهين الواقعة جنوب غرب فلسطين والتى كانت الحصن الذى تنطلق منه عمليات الهكسوس العسكرية، والتى ضرب حولها حصار استمر ما يقرب من ثلاث سنوات انتهت فى النهاية بسقوطها فى يد الفرعون المصرى [٢] وبعد أن قضى الملك على الهكسوس أراد تأمين الحدود الجنوبية فى بلاد النوبة التى كانت قد انفصلت عن مصر فى عهد الانتقال الثانى، وانضمت إلى الهكسوس، ويحكى أيضاً لنا القائد أحمس ابن أبانا أنه صاحب أحمس الأول إلى بلاد النوبة ووصلوا إلى مدينة "حنت حن — نفر" فى بلاد النوبة، وأنهم هزموا النوبة وأعادوها

إلى مصر مرة ثانية، وعاد الملك إلى طيبة بعد أن أخضع شعوب الجنوب وشعوب الشمال. ولكن هذه الحملة لم تكن كافية على بلاد النوبة فقد قامت عدة ثورات فى كوش فى بلاد النوبة وربما أن الملك اضطر إلى إرسال حوالى ثلاث حملات حتى وصل إلى مدينة ساى (الواقعة بين الشلال الثانى والثالث)، وبعد ذلك رأى النوبيون أنه لا فائدة من هذه الثورات والتى كان يقوم بها بعض حكام بلاد النوبة والذين كانوا متعاونيين مع الهكسوس [٣]. وفي العام العشرين من حكم أحمس الأول قام على رأس حملة إلى سوريا للقضاء على آخر فلول الهكسوس وفى هذه الحملة وصل إلى شواطئ نهر الفرات، وبذلك أصبح أول ملك مصرى يصل إلى هذا المكان، وأنه لم تقابله أى مقاومة حتى وصل إلى مدينة زاهى فى بلاد الشام [٤]. وبعد أن وطد أحمس أركان دولته إتجه إلى الأعمال الداخلية التى لم تكن كثيرة، لأن النشاط الأكبر للملك كان مركزاً فى المجهود الحربى لذلك نجد أن هذه الفترة التى عاشتها مصر قد امتازت بشعور المصريين الوطنى لتحرير أرضهم والانتقام من الشعب الذى استعمره.

ولا نعرف الشيء الكثير عن أعماله الداخلية على وجه التحديد، ولكن كان هم الملك الأكبر هو تكوين دولة جديدة فى ظروف جديدة، ظهرت بحكم الأحداث نفسها، فأراد أن يعيد مصر إلى سابق عهدها ويعيد إليها وحدتها التى مزقتها الأحداث السياسية، وخلال فترة حكمه التى دامت ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً عاد بمصر إلى وحدتها وعادت علاقة مصر بجيرانها على خير وجه.

وقد اهتم بترميم المعابد التى تهدمت بفعل الهكسوس كما قام ببناء مقاصير للآلهة الأخرى، وربما كان ذلك عرفاناً بالجميل بأن هذه الآلهة هى التى ساعدته على النصر. كما أصبح آمون هو الإله الرسمى للدولة وأنه هو الذى ساعده فى القضاء على أعدائه، لذلك حصل هذا الإله على نصيب الأسد من الثروات التى عادت بها الحملات الحربية ليصبح كهنته من أقوى العناصر التى كانت توجه سياسة البلاد، وأصبح لهم نفوذ كبير بين الشعب والملوك، وأصبحوا هم المسيطرين الحقيقيين لسياسة البلاد [٥].

وقد اتخذ أحمس من طيبة عاصمة للبلاد و لم يحاول أن يتجه شمالاً كما فعل ملوك الدولتين القديمة والوسطى، وربما كان ذلك عرفاناً بالجميل لشعب هذه المدينة الذى حمل مع الملك عبء الحرب وطرد الهكسوس (٦).

وقد أقام أحمس لوحة كبيرة فى معبد الكرنك ذكر عليها الكثير من أوجه نشاطه وأعمال والدته "إيعح حتب" من الاهتمام بالمعابد وغيرها من المنشآت الدينية. كما وجدت هناك لوحتين تبينان نشاط الملك فى محاجر طره ولوحة رابعة فى أبيدوس فى منطقة العرابة المدفونة عليها نقش يبين حب الملك أحمس لجدته الملكة تتى شرى(٧).

وقد زالت معظم الآثار التى شيدها أحمس من معابد ومقاصير وذلك ربما أن معظم هذه المبانى كانت مشيدة من الطوب اللبن لأن الاقتصاد المصرى ربما لم يكن يسمح بقطع الأحجار لبناء مثل هذه المعابد.

وهناك أدلة كثيرة تشير إلى أنه شيد بعض المبانى فى بوهين فى بلاد النوبة كما عثر له على عتب باب يحمل اسمه فى معبد الكرنك هذا المعبد الذى كرس لعابدة الإله آمون فى عصر الدولة الوسطى والذى أصبح من أهم وأكبر المعابد فى مصر والعالم القديم، كما عثر له على آثار فى معبد مونتو بأرمنت. كما شيد فى أبيدوس مقبرتين رمزيتين واحدة له والثانية لجدته تتى شرى التى كان الملك يحبها كثيراً (٨).

وبعد أن حكم أحمس طوال فترة حكمه التى كانت مليئة بالأحداث الجسام مات عن عمر يناهز السبعين عاماً ودفن فى مقبرته التى عثر عليها فى منطقة دراع أبو النجا فى جبانة طيبة الغربية، وقد عثر على مومياته فى خبيئة الدير البحرى وهى أحدى الخبايا التى دفن فيها الملوك القدماء بعد أن سرقت مقابرهم فى عصر الأسرة العشرين وقام الملك رمسيس التاسع من الأسرة العشرين بإعادة ترميم هذه المومياوات ودفنها مرة ثانية.

كان لأحمس من زوجته أحمس نفرتارى ابنان أحدهما يدعى أحمس سابا أيرى وهذا الابن وافته المنية قبل أن يتولى العرش، وكان الابن الثلنى يدعى أمنحتب الذى تولى العرش بعد وفاة والده.

وقبل الانتقال إلى ملك آخر نجد أنه من الواجب علينا أن نذكر أن هذا الفرعون كان وفياً لأسرته فنجد أنه كرم ثلاثة من السيدات اللاتي كن يستحقن كل التقدير والاحترام ليس من الملك فحسب ولكن من كل الشعب المصرى، وذلك للدور الذى قمن به تجاه الثورة ضد الهكسوس وأول هؤلاء السيدات هى تتى شرى زوجة سقنن رع تاعا الأول الذى بدأ أول شرارة ضد تحرير مصر من الهكسوس، وأم سقنن رع تاعا الثانى وهذه السيدة وصفها حفيدها بأنها العالمة والعارفة وقد عاشت هذه حتى عصر حفيدها أحمس [٩].

أما السيدة الثانية فكانت إياح حوتب زوجة سقنن رع تاعا الثانى وأم ولدين كامس وأحمس وهذه السيدة العظيمة فقدت زوجها وابنها الأكبر فى حرب التحرير وكانت تغذى الثورة ضد الغزاة وحملت لواء التحرير وكانت تعمل على إزكاء الروح الوطنية والقومية فى أبناء مصر، وقد كرمها ابنها وقال عنها أنها ربة الأرض وسيدة الحاونبو رفيعة السمعة فى كل قطر أجنبي التى دبرت سياسة القوم، القديرة الجليلة التى أحكمت شئون مصر وجمعت صفوف جيشها ورعت أهلها الفارين ولمت شتات المهاجرين، وهدأت قلق الصعيد وأرهبت عصاته "بكل هذه الأوصاف وصفها ابنها وما قيل فى هذا النص نرى أن هذه الملكة قد شاركت فى الحياة السياسية الداخلية، وأنها قد جمعت كلمة الجيش والشعب على الاعتراف بالطاعة لولديها. ويحتمل أنها كانت وصية على العرش فى عصر أحمس ولكن هذه الوصاية لم تذكر صراحة وإن كان اسمها قد ظهر بجوار اسم ابنها على باب المعبد الذى شيد فى بوهين، أما عن الإشارة بأنها سيدة الحاونبو أي جزر البحر المتوسط فيحتمل أن هذه السيدة قد أعادت الاتصالات مع هذه الجزر وربما أن هذا اللقب لقب تشريفى خلعه أهل هذه الجزر عرفاناً بما فعلته هذه السيدة [١٠].

أما السيدة الثالثة فهى زوجة أحمس الملكة أحمس نفرتارى والتى كانت لها معبد فى مدينة طيبة تقدم فيه الشعائر واستمر تقديم الشعائر فى هذا المعبد حتى عصر حريحور من الأسرة الواحدة والعشرين. وقد أقيمت لها أيضاً مقصورة فى منطقة

قرية دير المدينة فى غرب طيبة وهى المنطقة التى كانت يعيش فيها عمـــال المقـــابر. ويحتمل أن هذه السيدة عاشت حتى عصر الملك تحوتمس الأول وكانت أيضاً مـــن ألقابها أنها الكاهنة الكبرى الثانية لآمون وأصبحت أيضاً الزوجة الإلهية للآلة آمـــون وهى وظيفة ظهرت منذ ظهور الدولة الحديثة. وبعد وفاة زوجها أحمس أصـــبحت وصية على ابنها أمنحتب الذى تولى العرش وهو صغير السن وقد ظهر اسمها علـــى آثار كثيرة فى جميع ربوع البلاد من ساى فى بلاد النوبة وحتى طـــره فى الـــشمال. وظهر اسمها فى الكثير من مقابر الأشراف الموجودة فى البر الغـــربى حـــتى عـــصر الأسرة العشرين [١١].

أمنحتب الأول - جسر كارع

(١٥٢٥ - ١٥٠٤)

وهو ابن أحمس الأول وتولى العرش بعد وفاة والده وكان صغيراً فى السن فكانت والدته وصية عليه، وحكم هذا الملك ما يقرب من واحد وعشرين عامـــاً، وتزوج من أخته "اعح حتب"، وبدأ هذا الملك حكمه بالاهتمام بالبلاد الأجنبيـــة، كما دلت ألقابه فنجد أن اسمه الحورى "كا أو عف تاو" ويعنى "الثور الذى أخضع البلاد" وكان لقبه الثانى "أعا نيرو" ويعنى "الذى يثير الرعب"، ولذلك نجده فى العام الأول من حكمه يقوم بحملة على بلاد النوبة لأن الأهالي هناك قاموا بثورة عنـــدما توفى الملك أحمس للتخلص من الحكم المصرى، والهرب من أداء الجزيـــة، ويـــسرد علينا أحمس ابن أبانا أخبار الحملة التى يشنها الملك على "البونيتو" وهم "ســـكان بلاد النوبة" وكان يشاركه فى قيادة هذه الحملة القائد أحمس ابن أبانا – ويقول أن الملك كان يزأر كالنمر وقد نال القائد أحمس ترقية فى هذه الحملة فرقى إلى "رئيس البحارة" لأنه هو الذى قام بنقل الجنود إلى الجنوب (١٢).

وقد ظهر فى هذه الفترة قائد آخر أيضاً من نفس منطقة الكـــاب وهـــو أحمس بن نخبت، وانتهت هذه الحملة بسرعة. وعاد النوبيون مرة أخرى إلى الهدوء، ولكن بعد ذلك بعامين حدثت ثورة أخرى وكانت هذه ضد بلاد كوش فى بـــلاد النوبة وقد شارك أحمس بن نخبت فى هذه الحملة أيضاً ويشكك بعض المؤرخين بأن هذه الحملة هى ربما الحملة الأولى التى شارك فيها مع كل من الملك وأحمس ابـــن أبانا، وسواء أكانت هذه الحملة هى حملته الثانية أو حملته الأولى فقد عاد الملـــك منها منتصراً وعبر بسفينة قناة شقت خصيصاً له فى الجنـــدل الأول، وقـــد تـــرك أحمس بن نخبت عدة نقوش فى بلاد النوبة فنجد نقشاً فى سمنه مؤرخ بالعام السابع من حكم أمنحتب، ونقش آخر من العام الثامن فى جزيرة "أورنارتى"، وقد عـــين أمنحتب حاكماً على بلاد النوبة وكان يدعى "تورى" وأطلق عليه لقـــب "الابـــن

الملكى حاكم كوش" وكان لقب الابن الملكى هو لقب شرف أعطاه الملك لتورى[١٣].

وقد شيد الملك فى جزيرة ساى معبداً ليصبح علامة الحدود المصرية فى بلاد النوبة.

وقد أشار أحمس بن نخبت فى نقوش مقبرته إلى أنه ذهب مع الملك فى حملة ضد الليبيين، وأنه استولى على ثلاث أيادي فى بلاد (كهك)، وربما أن هذه الأماكن تقع فى الصحراء الليبية لأنها أماكن غير معروفة، ويحتمل أن هذه الحملة كانت لإحكام السيطرة على الحدود الغربية، وقد وجدت وظيفة فى عهد أمنحتب الأول هى وظيفة حاكم الواحات[١٤].

وقد استغل أمنحتب الأول مناجم الفيروز فى سيناء فقد وجدت له لوحة فى سرابيت الخادم فى سيناء، وأضاف بعض المبانى إلى معبد حتحور فى سرابيت الخادم، ولكن ليس هناك إشارات واضحة لحملات على بلاد الشام، ولكن نجد أن أحد موظفيه ذكر اسم دولة الميتان، وهذه الدولة كانت إحدى الدول الفتية التى بدأت تظهر فى الساحة فى منطقة الشرق القديم والتى بدأت بعد ذلك تناوء الحكم المصرى فى سورية [١٥].

كان الملك أمنحتب الأول طيب القلب ولذا عبد كإله فى قرية العمال فى دير المدينة التى كان هو أول ملك يؤسس هذه القرية للعمال، كما أنه كان على جانب كبير من التقوى والورع لذلك اهتم اهتماماً شديداً بتشييد المعابد وإصلاح ما تهدم منها أيام الهكسوس، فقد شيد مقصورة من حجر الألبستر فى معبد الكرنك وجدت أحجارها داخل الصرح الثالث وأعيد ترميمها الآن فى المتحف المفتوح بالكرنك كما شيد لنفسه معبد فى منطقة مدينة هابو وكان تحيط به حديقة جميلة ولكن لم يتبق لهذا المعبد أى أثر الآن كما أنه شيد مقصورة فى منطقة الدير البحرى بالبر الغربى أزالتها الملكة حتشبسوت عند إقامة معبدها فى هذه المنطقة. ونجد أنه حفر مقبرته فى باطن الجبل فى منطقة الطارف، إلى جانب ذلك قام ببعض الأنشطة

المعمارية فى منطقة أبيدوس، كما عثر له على بعض الكتل الحجرية فى منطقة كوم أمبو وفى الفنتين وفى معبد الإلهة نخبت فى الكاب (١٧).

مات أمنحتب الأول دون أن يترك وريثاً للعرش لأننا نعــرف أن وراثــة العرش كانت فقط لابد وأن يكون إبناً من الزوجة الملكيــة الأولى، وعــادة مــا تكون الأخت الملكة وإذا لم تنجب هذه السيدة أولاد ذكور فكان من حق الأبنــاء من زوجات أخريات تولى العرش، وإذا لم يكن كذلك فكان زوج الابنة الملكيــة له الحق فى تولى العرش وقد سببت هذه الوراثة الملكية كــثير مــن المــشاكل فى توليه العرش.

وبعد موت أمنحتب ظهرت هذه المشكلة ولكن كان هناك تحتمس الذى كان متزوجاً من أخت أمنحتب والتى كان اسمها أيضاً حمس وربما كان تحــوتمس هذا قريباً من العائلة المالكة وهناك رأى آخر يقول أن تحتمس كان إبناً لأمنحتــب ولكن من زوجة ثانوية تدعى سن سنب ورأى آخر يقول أنه كان مغتصباً للعرش وعلى كل حال تولى تحوتمس عرش مصر بعد وفاة أمنحتب.

تحوتمس الأول – عا خبر كارع

(١٥٠٤ – ١٤٩٢)

كما عرفنا أن المؤرخين اختلفوا فى نسب تحوتمس الأول إلى الأسرة المالكة ولكن فى النهاية هو الذى جلس على عرش مصر وتزوج كما ذكرنا من أخت أمنحتب الأول أحمس حنت تامحو.

ويعتبر تحوتمس ملك ثاقب البصيرة واعتبر أن حدود مصر الشرقية لابد وأن تؤمن من سوريا نفسها ولذلك نرى انه اعتبر أن فترة حكم أمنحتب الأول ما هي إلا فترة استجمام استجمعت فيها البلاد قوتها وتحفزت لهذه الخطوة الجريئة وهى الاستيلاء على سوريا، لذلك يمكن القول بأن تحوتمس أول فراعنة مصر المحاربين وهو الذى أول من خطا الخطوة الأولى نحو تكوين الإمبراطورية المصرية، ولقد كان تحوتمس الأول رجلاً ناضجاً عندما تولى العرش فقد كان عمره يناهز الأربعين، لذلك نجد أنه قد حدد أهدافه وآثر النضال وسياسة الهجوم وكان يقول عن نفسه "إن ساعة الحرب عنده أشهى من نوم يوم هنئ وأنه كان يتشوق للقتال كلما بلغه نبأ الأعداء" (١٨).

وكان أول عمل رسمى هو إصدار مرسوم إلى الوالى المصرى فى بلاد النوبة "تورى" ينبأه فيه بتوليته العرش أما عن أعماله الحربية فى بلاد النوبة فقد بدأت بحملة وصلت بحدود مصر الجنوبية التى تومبوس عند الشلال الثالث، وهكذا نجح فى إعادة الهدوء إلى بلاد النوبة وجميع المناطق الجنوبية فى وحدة إدارية كبيرة امتدت من نواحى نباتا جنوباً حتى مدينة الكاب قرب ادفو شمالاً، وخلع على أميرها لقب "الابن الملكى" حاكم كوش ومنذ ذلك الوقت بدأت بلاد النوبة تتمصر بخطى سريعة.

ولقد قص علينا أحمس بن نخبت أنه صاحب أسطول الملك فى النيل وهو ثائر كالفهد، وقد طعن رئيس الأعداء، وبعد ذلك أقام سلسلة من الحصون فى جزيرة تومبوس وفى ساى وأعاد بناء الحصون التى كان قد أقامها سنوسرت الثالث

من الأسرة الثانية عشرة، وأن مدينة بوهين قد اختيرت لتكون مركز الإدارة ومقر وحدات الجيش المصرى وربما يكون قد بنى سور بطول حوالى ٧٠٠ م (١٩).

وبعد أن ضمن تحوتمس الأول تمصير بلاد النوبة، بدأ يرنو نحو بلاد الشام وكان أهم دوافعه فى هذا هو الرغبة فى الانتقام وإزالة الآثار المعنوية للغزو الذى تعرضت له البلاد، أما الدافع الثانى كان هو تحرك الجماعات الميتانية التى ذكرتها النصوص فى عهد سلفه فى شمال شرق الشام وقرب نهرى الخابور والفرات، وشجعته كل هذه العوامل على تنفيذ ما يصبو إليه ألا وهو السيطرة على أبواب التجارة، ومداخل الهجرات فى شمال الشام وأطراف العراق.

ليس لدينا أى تفاصيل تاريخية عن حملته هذه فى بلاد الشام اللهم إلا بعض الإشارات المتفرقة، ومن المحتمل أن الجيش قد خرج من شرق الدلتا وعبر الصحراء إلى جنوب فلسطين ثم اتجه شمالاً بامتداد الشاطئ حتى حلب، وقام بصيد الأفيال فى منطقة "نى" بالقرب من أعالي سوريا، ووصل أخيراً إلى نهر الفرات بالقرب من قرقميش، وهناك هزم الميتانيين ثم عبر نهر الفرات ووضع على ضفته الشرقية لوحة تمجد انتصاره ويحدد بها حدوده ويقول فيها " أن من لم يحافظ على هذه الحدود فهو ليس ابنه ولا من صلبه" وقد حدد حدود دولته على حد تعبير نصوص عهده من "قرن الأرض فى الجنوب إلى المياه المعكوسة فى الشمال" أى من جبل برقل والشلال الرابع حتى أطراف مياه نهر الفرات التى استغرب المصريون جريانها من الشمال إلى الجنوب على عكس مياه النيل التى تجرى من الجنوب إلى الشمال (٢٠).

ويبدو أن الغزو كان سهلاً لأن الشعوب الآسيوية لم تكن متحدة، وكانت غير قادرة على أن تقف فى وجه الجيوش المنظمة، وأن الفرعون المصرى اعتمد على التحركات القوية الخاطفة وقد افتخر الفرعون بما حققه لمصر فنجده يقول : "أطلقت حدود تامرى (مصر) إلى ما تحيط الشمس به وعوضت أهلها بعد خوفهم قوة، وأقصيت الشر عنها، وجعلتها فوق رأس الدنيا كلها وجعلت الجميع أتباعاً لها" وقد كان القواد المصريون فخورين بأنهم مشتركين مع الملك، ومن هؤلاء

أحمس بن أبانا الذى يقول أنه كان فى مقدمة الجيش وأنه قاد عربة حربية بخيلها وبمن فيها أسرى إلى جلالته، وأحمس بن نخبت الذى يقول أنه قتل واحد وعشرين شخصاً وأسر مركبة حربية"، وبعد أن أمن الفرعون حدوده الخارجية ووضع أول حدود إمبراطورية مصرية اتجه إلى الداخل وأقام كثير من المشروعات المعمارية وخاصة فى معبد الكرنك، حيث شيد الصرحين الرابع والخامس، وأقام فى وسطهما صالة واسعة بها أعمدة مربعة على واجهتها تماثيل أوزيرية أى للملك فى وضع أوزير وهى التى أطلق عليها الأعمدة الأوزيرية، كما أقام مسلتين من حجر الجرانيت الوردى أمام الصرح الرابع لا تزال واحدة منهما قائمة حتى الآن فى مكانها ولكن الأخرى قد هشمت وما تزال بقاياها ملقاة على الأرض (٢١). كما كشفت الحفائر الحديثة عن معبد آخر له خارج أسوار معبد الكرنك (٢٢)، كما شيد محراب صغير نحت فى الصخر فى قصر ابريم فى بلاد النوبة، وعلى لوحة عثر عليها فى أبيدوس لهذا الملك نجد أنه قد قام بإصلاحات فى معبد أوزير هناك (٢٣).

ويعتبر تحوتمس الأول هو أول ملك يختار واد منعزل فى الجبل المطل على النيل ليحفر فيه مقبرته، وهو المكان الذى أطلق عليه اسم وادى الملوك والذى استخدم بعد ذلك كجبانة ملوك الدولة الحديثة، وقد أشرف على حفر هذه المقبرة مهندسه أنينى الذى قال أنه حقق رغبة مولاه فى إخفاء المقبرة فقال "لقد أشرفت على حفر القبر المنعزل لجلالته سراً دون أن يرى احد أو يسمع أحد". وربما هذا القول أنه اتخذ الحيطة السرية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً فى حفر هذه المقبرة. وعندما توفى دفن فى هذه المقبرة ولكن ابنته حتشبسوت نقلت مومياءه إلى مقبرتها. وهذه المومياء عثر عليها فى خبيئة الدير البحرى.

ولقد اتبع هذا الملك سياسة جديدة أيضاً سار عليها بقية ملوك الدولة الحديثة وهو عملية فصل المقبرة عن المعبد الجنائزى حتى يضمن سرية المقبرة وربما شيد معبده بعيداً عن المقبرة فى منطقة الدير البحرى أيضاً وربما أن الملكة حتشبسوت أزالته أيضاً عندما بدأت فى تشييد معبدها.

كان تحوتمس قد أنجب من زوجته الملكية أحمس ولدين هما آمون مس وواج مس وابنة هى حتشبسوت، وكان قد تزوج من زوجة أخرى هى موت نفرت وأنجب منها ابنه تحوتمس الثانى. وقد ماتا الولدين من الزوجة الملكية وتبقيا تحوتمس الثانى وحتشبسوت وهما اللذان توليا الملك بعد وفاة والدهما (٢٤).

تحتمس الثاني (عا خبر رع)

(١٤٩٢ – ١٤٧٩ ق.م)

يغلب على الظن أنه لم يعمر من أولاد تحتمس سوى ولد يحمل اسم أبيه من الزوجة الثانية "موت نفرت"، وهو الذى أصبح تحتمس الثانى وتزوج من حتشبسوت ليصبح ملكاً شرعياً وهكذا تولى الحكم بنفس الطريقة التى تولى بها أبوه.

منذ بداية حكم هذا الملك دب الخلاف بينه وبين حتشبسوت إذ كان الفارق بينهما كبيراً، فكان تحتمس الثانى معتل الصحة ضعيف الشخصية دفعته الظروف إلى اعتلاء العرش دفعاً بينما كانت حتشبسوت فتاة طموحة قوية الشخصية لنساء هذه الأسرة، وكانت تتطلع إلى الاستئثار بالملك، وجعلت من تحتمس الثانى فرعوناً رمزياً، وقد أشار أنينى إلى اعتلاء تحتمس الثانى العرش حين قال "أنه بعد وفاة تحتمس الأول تولى ولده تحتمس الثانى، فأصبح ملكاً على (كمت) الأرض السوداء "مصر"، كما سيطر على (دشرت) الأرض الحمراء – الصحراء –، ثم ذكر أنه فى بداية عهده بلغ سن الشيخوخة وانه كان له حظوة من قبل فى بلاد ذلك الفرعون، وأنه نال على يد هذا الفرعون ما لم ينله أحد، فهو كما ذكر قد كان محظوظاً فى القصر قريباً من صاحبه يجلس معه إلى الطعام ويأكل منه وأن الكل كان يتقرب إليه لاهتمام الملك به [٢٥].

وعلى كل حال كان نتيجة هذا الخلاف أن انقسمت البلاد لحزبين وسادت المؤامرات والدسائس فانتهز النوبيون هذه الفرصة وشقوا عصا الطاعة منذ السنة الأولى من حكمه، وهذه كانت عادة النوبيين فهو ينتهزون فرصة الحكم من ملك لآخر لإشعال نار الثورة، وأغلب الظن أن النوبيين قد سمعوا بالخلاف الواقع فى بيت فرعون وقد أرسل تحتمس الثانى جيشا هزم الثوار وأعاد الأمور إلى نصابها وقد سجل ذلك على لوح أقيم بين أسوان وفيلة، ويزعم بعض المؤرخين أن جهود تحتمس الثانى الحربية امتدت إلى الشلال الرابع لأن اسمه وجد مسجلا على صخرة

فى جبل برقل هناك ولكن ليس فى تسجيل الاسم أى دليل على غزو حــربى [٢٦]، كذلك حدثنا أحمس بن نخبت عن حرب خاضها أيام تحتمس الثانى ضــرب فيهــا البدو الذين يعيشون على حدود فلسطين، كذلك عثر فى أنقاض الــدير البحــرى على نقوش ترجع إلى أيام ذلك الملك وتشير إشارات غامضة إلى حملات قام بهــا هذا الفرعون فى بعض البقاع السورية، كذلك من الجائز أن تكون بعض القبائل فى الصحراء الغربية قد انتهزت فرصة النــزاع على العرش فى بيت فرعون فأشــعلت نيران الثورة مما اضطر الملك إلى إرسال حملة حربية لإخضاعهم، يــشير إلى ذلــك تسجيل اسم فرعون فى واحة الفرافرة المواجهة لأسيوط : وعلى كل حال فجهود هذا الفرعون الحربية لم تكن عظيمة كأسلافه فقد كفاه أسلافه مؤنة ذلك [٢٧].

هذا وتشير ظواهر الأمور إلى أن ذلك الفرعون قد كان وفياً لأبيه الــذى ترك آثارا لم تكمل فأتمها دون أن يسجل اسمه عليها، وقد أقام بعــض العمــائر فى الكرنك، كما وجدت له آثار فى جهات مختلفة من مصر، وقد تزوج تحتمس الثانى من زوجات أخريات بجانب حتشبسوت التى أنجبت له نفــرو رع ثم مريــت رع حتشبسوت وأغلب الظن أن زوجته الثانية الثانوية إيزيس قد أنجبت له ولــداً هــو الذى سمى فيما بعد تحتمس الثالث.

ولا نعرف إذا كان تحتمس الثانى قد مات موته طبيعية أم لا، وعلى كــل حال فقد دفن فى قبر غير مزخرف بوادى الملوك وعند فحص جثته تبين أنه كــان طويل القامة ولكنه لم يكن قوى البنية، وكانت ملامحه جميلة تتفق مع ملامح أفراد أسرته، كما لوحظ أنه كان يميل إلى التأنق فأظافر قدميه مسواة بعناية ويغطى رأسه شعر مستعار مجعد تجعيداً مصطنعاً يظهر طبيعياً ويدارى رأسه الأصلع [٢٨].

حتشبسوت - ماعت. كارع

(١٤٧٣ - ١٤٥٨ ق.م)

رأينا كيف كان طموح الملكة حتشبسوت للجلوس على عرش مصر وكيف أنها كانت فى حياة زوجها هى المسيطرة على أمور الدولة كما جاء فى نص انيني، وفى أواخر أيامه كانت الملكة هى المسيطرة على السلطة وأصبحت هى التى تملك زمام الأمور فى أيديها، وذلك بتأييد حزب من النبلاء كان قد بدأ فى الظهور وعلى رأسه سننموت، ونجد أيضاً مسجل الأحداث انيني يسجل لحظة وفاة تحوتمس الثانى ويقول "ارتقى تحوتمس الثانى إلى السماء واختلط بالأرباب وتقدم ابنه تحوتمس الثالث إلى مكانه كملك للأرض وحكمت أخته زوجة الإله حتشبسوت البلاد وأصبحت الأوضاع طوع إرادها وخضعت لها مصر"[٢٩].

أى أن حتشبسوت فى بداية الأمر أيضاً لم تود أن تجعل الأمور تصل إلى حد المشاكل فجعلت تحوتمس الثالث على عرش مصر إلا أنه كان لا حول له ولا قوة، وهى كانت وصية عليه وتدير البلاد، ولقد كانت تظهر فى النقوش فى خلف تحوتمس الثالث، ولكن ربما فى العام الثانى من حكم تحوتمس الثالث وحتشبسوت تخلت الملكة عن تحفظها، وربما أنها كانت فى الفترة السابقة تمهد الأمور لهذا الأمر، وكما قلنا ضمنت لها طائفة كبيرة من النبلاء، كما ضمنت ولاء كهنة آمون وقبل أن يبلغ تحوتمس الثالث سن النضوج اغتصبت العرش لنفسها وأخذت الألقاب الملكية جميعها ولقد كتبت هذه الألقاب فى صيغة التأنيث في بعض الأحيان، وفى الأحيان الأخرى كانت تكتب فى صيغة المذكر، وظهرت فى النقوش بمظهر الرجال فكانت تظهر لها نفس الذقن الملكية التى كانت تظهر مع الملوك واللقب الوحيد الذى لم تأخذه حتشبسوت هو لقب "كانخت" أى الثور القوى الذى كان لا يليق بامرأة[٣٠].

وكان على حتشبسوت إقناع الشعب المصرى بأحقيتها فى العرش ولتبرير ما قامت به من إقصاء تحوتمس الثالث عن العرش نجد أنها قامت بدعاية سياسية

ودينية لنفسها حتى توضح أنها هى التى لها الحق فى ولاية العرش حتى قبـل أخيهـا وزوجها تحوتمس الثانى، فقالت فى بعض النقوش على معبدها فى الدير البحـرى فى المقصورة الشمالية "أن الذى توجها ملكة على مصر هو والدها تحـوتمس الأول فى حياته وأنه قدمها للآلهة المصرية وأنهم هم الذين توجوها ملكة على مصر"، وقـد قامت الملكة كما قالت هى وأبيها بزيارة المعابد لكى تعترف بها الآلهة ملكة علـى مصر، وتنتهى الرحلة بزيارة معبد أتوم فى هيليوبوليس وبعد ذلك أحضرت التيجان وعليها أسماء الملكة حتشبسوت، وترتدى الملكة هذه التيجان أمام الإله آمون، وبعد ذلك نرى منظر التتويج نفسه فنراها أمام والدها تحوتمس الأول وهو جالس علـى العرش ويضع يده على كتفها ويقدمها إلى نبلاء القصر والأشراف، ثم تأتى بعـد ذلك مناظر التتويج الخاصة بالملكة ونرى الملك يصطحب ابنته إلى مقصورة مـصر العليا لكى تلبس تاج الجنوب ومقصورة مصر السفلى لكى تلـبس تـاج الوجـه البحرى ويتوجها الإلهان حورس وست، وقد أرادت بهذه القصة أن توهم الشعب بأن أبيها تحوتمس الأول هو الذى توجها ملكة على مصر، وأن تحوتمس الثانى كان مغتصباً لهذا العرش [٣١].

أما القصة الثانية التى حاكتها حتشبسوت وربما بمساعدة كهنة آمون الذين بدأوا منذ هذه الفترة التدخل فى الشئون السياسية لمصر، وأصبح دورهم ليس دينياً فقط وإنما وصل إلى إختيار الملك الذى سوف يجلس على العرش، وكانـت هـذه القصة هى قصة الولادة الإلهية، وفيها تقول حتشبسوت "أنها ابنة مقدسة من صلب الإله آمون نفسه وأن الإله آمون قد اختار أمها أحمس وأخبرها بأنها ستلد بنتاً مـن صلبه، وبناء على أوامر آمون قام خنوم الإله الخالق بتشكيل الطفلة وقرينتها ثم تلد أحمس هذه الطفلة المقدسة، وتقوم حتحور برضـاعتها، وبهـذه القـصة تحـاول حتشبسوت أن تقنع الشعب بقدسيتها وأنها ليست من البشر وإنما هى ابنة مقدسة من صلب الإله آمون نفسه" [٣٢].

على كل حال أصبحت حتشبسوت ملكة على مصر، وحكمت أطـول فترة حكمتها سيدة طوال التاريخ المصرى القديم فقد أعطاها مانيتون حوالى واحد

وعشرين سنه وتسع شهور، وامتاز حكمها بالسلم. وكان بجوار الملكة سننموت الذى كان فى أول الأمر يعمل فى خدمة معبد آمون، ولا نعرف كيف وصل إلى كل هذه المناصب وأن ينال ثقة الملكة، والذى أصبح هو المشرف على كل الأعمال التى قامت بها الملكة، وأيضاً كان مربى إبنتها نفرو رع، وكان من ألقابه أنه أكبر الكبار فى كل البلاد رئيس الرؤساء لكل الأقاليم، الصديق الحقيقى للملكة الذى يستقبل فى القصر بحب، ويخرج بتكريم، الذى يمتع قلب ملكته كل يوم (٣٣).

كما كان من أهم رجالها حابو سيت وزيرها الأول وكبير كهنة الإله آمون.

امتاز عهد حتشبسوت بعهد السلام وأنها اتجهت فى تعاملاتها نحو الجنوب، فعملت جيوشها التى ربما كان يقودها سننموت إلى توطيد الأمن فى منطقة كوش، وقامت باستغلال المحاجر هناك، كما عثر على نقش فى الطابق الأول من معبدها فى الدير البحرى (الرواق الشمالى) يفيد أنها أرسلت حملة إلى الشمال ولكن ليس هناك ما يؤيد هذا، كما اهتمت حتشبسوت بإرسال البعثات إلى سيناء لاستخراج الفيروز والنحاس، وقد أضافت بعض المبانى فى معبد حتحور ربة الفيروز الموجود فى سرابيت الخادم (٣٤).

أما أهم الأعمال التى قامت بها فهى بعثتها الاقتصادية إلى بلاد بونت فى العام التاسع من حكمها، وقد صورت هذه الرحلة على جدران معبدها فى منطقة الدير البحرى فى الطابق الثانى (الرواق الجنوبى) وقد قالت الملكة "إنها أرسلت هذه الرحلة بناء على أوامر والدها الإله آمون، وأنه هو الذى أرشدها إلى خير السبل وأبحرت الرحلة فى البحر الأحمر حتى باب المندب، ومنها إلى بونت (الصومال حالياً) أو ربما الشاطئ الأفريقى والشاطئ العربى" (٣٥).

أما أهم الأعمال الإنشائية للملكة والتى كانت كثيرة فهو معبدها الذى أقامته فى منطق الدير البحرى، وهو معبد يختلف فى عمارته عن المعابد المصرية القديمة، فهو مبنى فى حضن الجبل الغربى، وقد بنى على نظام الطبقات، ويتكون من

ثلاث طبقات تعلو كل واحدة منها الأخرى، واختلفت الآراء حول السبب فى بناء المعبد بهذه الطريقة وكان الرأى الأول: أن مهندس المعبد قد أخذ طريقة البناء هذه من المعبد المجاور فى منطقة الدير البحرى، وهو معبد منتوحتب من الأسرة الحادية عشرة أما الرأى الآخر: فهو رأى معمارى وموجزه أن المعبد كان يقع فى حضن جبل عال وإذا كان قد بُنِى بالطريقة العادية فإنه سوف يكون ضئيلاً مهما كبر حجمه بجوار الجبل المرتفع لذلك بنى بهذه الطريقة حتى يجعل من الجبل كخلفية له، أما الرأى الثالث فيقول: أن حتشبسوت أرادت أن تقيم هذا المعبد على طريقة المدرجات التى كانت تزرع فى بلاد بونت حيث هناك نقش يقول "أمرنى آمون أن أقيم من أجله نموذجاً لبلاد بونت هنا وأن أزرع أشجار هذا البلد المقدس إلى جانب المعبد وفى حدائقه" (٣٦).

ولقد كان لهذا المعبد معبداً للوادى صغير الحجم على حافة الأراضى الزراعية، ويربط بينه وبين المعبد الكبير طريق صاعد فى منتصفه استراحة للقارب المقدس للإله آمون، كما كانت على جوانب الطريق الصاعد خمسين زوجاً من التماثيل التى تمثل الملكة على هيئة أبو الهول.

وفى الفناء الأول للمعبد الكبير وجدت بعض الأشجار المتحجرة التى تفيد فعلاً أن الملكة قد زرعت هذا الفناء بالأشجار التى أحضرتها من بلاد بونت إلى جانب أحواض المياه التى كانت فى هذا الفناء.

وتاريخ إنشاء هذا المعبد غير محدد تماماً فلقد وجدت بعض المخربشات التى تدل واحدة منهم، وهى الآن فى متحف المتروبوليتان بأمريكا على أن الملكة قامت بتشوين الأحجار لبناء هذا المعبد، وهى ما تزال الزوجة الملكة، ونحن نعرف أن الأحجار التى استخدمت فى البناء هى الأحجار الجيرية التى أحضرتها من محاجر فى جبل طيبة الغربى، وأن الملكة بدأت فى إنشاء هذا المعبد فى العام الثانى من حكمها أى توليها العرش، وبعض الآراء الأخرى التى تقول أن الملكة بدأت فى تشييد هذا المعبد فى العام التاسع من حكمها.

على كل سجلت الملكة حتشبسوت أهم أعمالها التى قامت بها فى عصرها فنجد فى الرواق الجنوبى من الطابق الأول من الطريق الصاعد الذى كان يفصل بين الشرفات، ويؤدى إلى قدس الأقداس منظر على جدران هذا الرواق يعتبر من المناظر التسجيلية النادرة، وهو منظر عملية نقل المسلات من أسوان ومن محاجر الجرانيت بها عبر النيل إلى الأقصر، وربما يعتبر هذا المنظر هو المنظر الفريد لعملية نقل الأحمال الثقيلة من الأحجار، وربما أن هاتين المسلتين ليستا هما المسلتان التى تقف واحدة منهما فى معبد الكرنك، والأخرى أمام المدخل الشرقى لمعبد الكرنك فى ذلك الوقت (٣٧).

وعلى جدران الرواق الشمالى صورت الملكة فى هيئة أبو الهول والإشارة إلى بعض النقوش التى تسجل قيامها بحملة على الشرق وأيضاً مناظر القنص والصيد، وكان على جانبى هذه الشرفة تمثالان للملكة يمثلانها فى شكل الإله أوزيريس، وكان ارتفاعهما بحجم ارتفاع الشرفة.

ونصعد إلى الطابق الثانى التى تعتبر نقوشه فى حالة أحسن من نقوش الشرفة الأولى، فنجد على جدران الرواق الجنوبى مناظر رحلة بونت ونرى فى هذه المناظر خمس سفن مصرية تضع رحالها على شاطئ بلاد بونت التى صورها الفنان المصرى بدقة فنرى سكانها وهم يعيشون فى أكواخ مقبية ترتفع أبوابها عن الأرض، وأيضاً أشجار الدوم ونرى حاكم بلاد بونت وزوجته يستقبلان رئيس البعثة المصرية وهم يقولون "تحية لك ملك مصر الملك الأنثى التى تضئ مثل الكوكب". وبعد تبادل الهدايا عادت البعثة إلى مصر ونرى الأهالى وهو يقومون بشحن المراكب المصرية بكميات من الذهب والبخور، وأشجار الكندر والأبنوس والعاج وجلود الفهد والبخور إلى جانب الزراف والقرود، وبعد عودة البعثة إلى مصر نجد أن الملكة تهدى هذه الرحلة وما أحضرته معها إلى والدها الإله آمون (٣٨).

أما على جدران الجناح الشمالى. فنجد القصة الشهيرة وهى قصة الولادة الإلهية من أبيها الإله آمون ففى أول الأمر نجد آمون يأمر خنوم بخلق الابنة الإلهية،

ثم بعد ذلك يقوم خنوم بصناعة الطفلة وقرينها على عجلة الفخار، ونجد الجلسة التى تم فيها حمل الملكة من أمها أحمس ثم الملكة وهى تحمل وتضع وليدها المقدس ثم رضاعتها حتى أصبحت ملكة (٣٩).

ومن هذه الشرفة نصعد إلى الطابق الثالث الذى على واجته نجد حوالى أربع وعشرين عموداً هم الأعمدة الأوزيرية التى تمثل الملكة فى هيئة أوزير، وبعد ذلك المدخل إلى فناء محاط بالأعمدة من جهاته الأربع، وفى منتصف هذا الفناء من الداخل نحت فى الجبل قدس الأقداس الخاص بالإله آمون وعلى جانبيه جدران هما دخلات كانت التماثيل الخاصة بالملكة والإله آمون توضع فيهما، ولقد نقشت عيدين من أهم الأعياد وهما عيد الأوبت الذى كان يتنقل فيه آمون من مقره فى معبد الكرنك إلى معبد الأقصر، والعيد الثانى الذى أطلق عليه عيد الوادى الجميل وفيه يزور آمون المعابد الموجودة فى البر الغربى.

وفى هذا المعبد نجد أن الملكة قد شيدت ثلاثة مقاصير لأهم الإلهة ففى الطابق الأعلى نجد مقصورة للإله رع حور آختى أى شمس المشرقين، أما فى الطابق الأوسط فنجد من ناحية الشمال مقصورة للإله أنوبيس الذى كان هو الإله الحارس للجبانة وإله التحنيط، وإلى الجنوب نجد مقصورة للإلهه حتحور سيدة الجبل الغربى (٤٠).

بجانب هذا المعبد كان للملكة نشاطات معمارية أخرى ففى معبد الكرنك أقامت مسلتين بين الصرحين الرابع والخامس الذين أقامهما والدها تحوتمس الأول وارتفاع الواحدة منهم ما يقرب من اثنان وثلاثين متراً، وكما تقول الملكة فى النقش الموجود على قاعدة المسلة التى ما تزال واقفة حتى الآن "أنهما قطعتا من كتلة واحدة من حجر الجرانيت الصعب وقد شيدتا تحت إمرتى وأن هذا العمل استمر من اليوم الأول من الشهر السادس للسنة الخامسة عشرة حتى اليوم الأخير من الشهر الثانى عشر من السنة الخامسة عشرة أى أن نحتهما من المحاجر قد استغرق سبعة أشهر" إلى جانب هذا فقد شيدت أيضاً قدس الأقداس من الحجر الجرانيتى،

والذى أزاله تحوتمس الثالث، كما شيدت بجواره مجموعة من الحجرات على كل من جانبى قدس الأقداس.

كما أقامت أيضاً معبداً فى الصخر فى بنى حسن بمحافظة المنيا الحالية، للإلهة باخت والتى كانت تمثل برأس قطة، وهو الذى يطلق عليه الآن اسم إسطبل عنتر وأطلق عليه اليونان اسم سيبيوس ارتميدس وقد سجلت على هذا المعبد نقشاً طويلاً يفيد بأنها رممت جميع الآثار التى خربتها الهكسوس، كما شيدت كثير من الآثار فى أبيدوس والكاب وكوم أمبو، وقد أقامت معبدين فى بلاد النوبة احدهما فى بوهن والآخر فى فرس، أما فى البر الغربى فقد شيدت معبداً فى مدينة هابو، والذى كان مقدساً عند المصريين القدماء، كما شيدت ثلاث مقاصير فى معبد الأقصر، وقد وجد لها أيضاً مقبرتان احدهما فى سكة طاقة زايد عندما كانت زوجة ملكية، أما المقبرة الثانية فقد حفرتها فى وادى الملوك وتعتبر من أكبر المقابر حيث يصل طولها ما يقرب من ٢١٣,٥م وقد اكتشفها كارتر ١٩٠٤ وهى المقبرة التى قامت بنقل مومياء والدها تحوتمس الأول لتدفن معها وللأسف لم نعثر على مومياء الملكة حتى الآن، ولا نعرف كيف انتهت حياتها هل ماتت ميتة طبيعية أم قتلت لأننا فجأة نجد تحوتمس الثالث يظهر على مسرح الأحداث ويصبح ملكاً على مصر (٤١).

تحتمس الثالث (من خبر رع)

(١٤٧٩؟ - ١٤٢٥ ق.م)

عثر فى (سمنة) من بلاد النوبة على نقوش تؤرخ بالعام الثانى من حكم تحتمس الثالث فيها كل ألقابه رغم الوصاية التى فرضتها حتشبسوت عليه. وسجلت هذه النقوش ما قام به الملك من أعمال فى تلك المناطق، فقد أعاد معبد سنوسرت الثالث من الحجر بعد أن كان من اللبن، وذلك تقديراً منه للبطولة والأبطال. كذلك يحتفظ متحف تورين بورقة من البردى يذكر فيها كاتبها (أوسر من) أنه خدم ثلاث سنين أيام تحتمس الثالث، وكان آخر السنين هى السنة الخامسة. وقد ظلت الأحكام تصدر باسمه مدة سبعة أعوام، والدليل على ذلك ما وجد من نقوش على جدران قبر حتشبسوت تذكر فيها انفرادها بالحكم فى السنة السابعة.

وقد استطاعت حتشبسوت فى الفترة الأولى من زواج ابنتها أن تفرض وصايتها على تحتمس الثالث ولما غادرت حتشبسوت دنياها استرد تحتمس الثالث حقه كاملاً. فجلس على العرش دون شريك، ومحى اسمها وأسماء أعضاء حزبها، وأرخ حكمه بعد وفاة أبيه تحتمس الثانى مباشرة منكراً المدة التى حكمتها حتشبسوت. وقد حققت له الأيام أمانيه وآماله لا لمصر وحدها بل لأمم الشرق القريب، وقد ترك فى تاريخنا صفحات سطرت بدماء الشعب الذى جاهد وحارب وفتح وعمر كثيراً وشيد كثيراً ولا تكاد بلد من بلدان الوادى أن تخلو من آثاره، فهذه جعارينه ظلت زمنا طويلا يتخذها الناس رقية. ومع ذلك كله فقد فاقت شهرة رمسيس الثانى بطلنا تحتمس الثالث، على أن المؤرخين قد بينوا ماذا كان يفعله رمسيس فكثيراً ما سطا على أعمال أسلافه ونسبها لنفسه، حتى أن أغلب الناس أصبحوا لا يعرفون فى تاريخ مصر بطلاً غير رمسيس ولكن بطلنا تحتمس الثالث بطل أصيل ترك فى دنياه دويًا هائلاً، ومضى أيامه كلها فى حرب وقتال ليقضى على الفتن وليؤمن حدود ملكة وليجمع شمل أمم الشرق كله، وقد ترك لبنى وطنه صفحات من المجد والفخار (٤٢).

سلمه أبوه تحتمس الثانى لرجال الدين ليثقفوه وليغرسوا فيه حب الإله آمون، وقد كان كهانه أصحاب نفوذ وجاه، وقد ظلوا يعملون على تمكينه من العرش حتى بلغه على أيديهم. وقد كان تحتمس وفياً لحزبه مخلصاً، فنجده حينما بلغ العام الثانى والأربعين من حكمه يسجل كيف وصل إلى العرش حينما كان شابا وبتأييد من ربه آمون وكهنته. فجئ به إلى البهو الكبير فى دار آمون وأوقف فى ركنه الشمالى، وبصر ربه فى عليائه وقد زينت السماء لتتقبل موكب الإله، فتحرق البخور، وتنحر الأضاحي، وطاف موكب آمون بجوانب البهو باحثا عن شيء، ودهش الناس وطال انتظارهم، ولم يدر بخلدهم أن آمون كان يبحث عن ذلك الصغير تحتمس. وإذا بزورق آمون الذى أخذ الإله مجلسه فيه يتجه إلى ذلك الصغير فيقف أمامه، فيأخذه الرعب، ويغيب عن الوعى، عند ذلك ينهضه ربه ويأخذه إلى قدس الأقداس، فتفتح له السموات وخلع عليه ألقابه، وتوجه على الوادى كله، ومنحه رضاه وقوته، وأدان له الأمم، وجاءت إليه الشعوب خاضعة، تخشى بأسه وتخاف عقابه، وترجو رضاه (٤٣).

تلك قصة تتويجه فى إيجاز كما صورها الناس من أيامه فيها كثير من الخيال، لا يتفق مع الإيمان بالله، لأن الله لا يترل إلى الناس ولا يتجسد. على أن المؤمنين من الناس كثيرا ما يتصورون مثل ذلك. وأمر ذلك معروف منذ أيام الدولة القديمة، كذلك فعلت حتشبسوت حينما أرادت أن تثبت بنوتها لآمون، وكذلك فعل أمنحتب الثالث عندما أراد يسجل قصة اجتماع آمون بأمه وأودعها نطفته الطاهرة. كل ذلك سجل وصور على صفحات جدران معبد الأقصر.

وحينما كبر تحتمس الثالث، واستوى عوده، وبلغ أشده، واكتملت رجولته، استطاع أن يقبض بيد من حديد على زمام الأمور. وكان واضحاً أنه لم يكن فى مخيلته أن يتفوق على زوج أبيه المتوفاة، والذى تشابه معها فى عزمه الحصول على شعبية كاملة من أجل أعماله العظيمة، فهذا معبدها فى الدير البحرى، قد هيئت حوائطه لأغراضها، كذلك الحال فيما يختص بتحتمس الثالث

فقد استخدم هو أيضاً معبد آمون رع بالكرنك لأغراضه، وقد سنحت له الفرصة للعرفان بالجميل إلى إله أصبح فى هذا العهد الإله الوطنى الكبير، فالمقصورة أو المعبد الصغير الذى بناه الملكان الأوليان من ملوك الأسرة الثانية عشرة كان عملاً متواضعاً، ولكن منذ بداية الأسرة الثامنة عشرة أضيف إلى أبنية الكرنك منشآت كثيرة، فقد قام أمنحتب الأول وتحتمس الأول وحتشبسوت أعمال عديدة فى الكرنك.

أعمال تحتمس الثالث الحربية

بعد أن تولى تحتمس الثالث السلطة الفعلية، وبعد حوالى شهرين ونصف توجه إلى آسيا، فقد تحالف بعض هذه الإمارات ضد مصر فما سبب ذلك؟ هل كانت وفاة حتشبسوت هى السبب فى تكوين هذا الحلف؟ أم أن هذا التحالف قد اتعب حتشبسوت فسقطت؟ لا ندرى فى الواقع أى السببين أثر فى الآخر. وما من شك فى أن الجفاء الذى كان موجوداً بين تحتمس الثالث وحتشبسوت كان معروفاً لدى الشعوب الأسيوية التى يعيش فيها الهكسوس الذين طردوا من مصر، وكذلك السكان الأصليين، وقد وجد هؤلاء جميعاً الفرصة قد سنحت لهم فى الانتقام والتحرر من نير المصريين الذين طردوهم وشتتوا شملهم، وبذلك أعلن الأسيويون العصيان.

قام بحملته الأولى فى السنة الثالثة والعشرين من حكمه، وهى السنة الثانية من حكمه المستقل وقد كون الثوار الأسيويون حلفا بزعامة أمير قادش التى تقع على نهر الأورنت (نهر العاصى حالياً)، وعلى مسافة حوالى مائة ميل شمالى دمشق، وكانت من أغنى الإمارات الأسيوية فى ذلك الوقت. وقد سبق أن أشرنا إلى أن حكم حتشبسوت قد خلا من أى عمل حربى ما عدا حملة غير هامة إلى بلاد النوبة، وبذلك تحرر أمراء فلسطين وسورية بعض الوقت منذ أيام تحتمس الأول.

كان على رأس الثوار أمير قادش، تلك المدينة التى كان لها موقع حربى ممتاز، إذ تقع فى الطرف الشمالى من سهل البقاع، وهو معبر يقع بين لبنان وما قبل لبنان (٤٤).

وفى نهاية الشهر الثامن، فى السنة الثانية والعشرين من حكم تحتمس الثالث، تقدم من حدوده فى منطقة Tjel بالقرب من القنطرة الحالية، على قناة السويس، وكان هدفه كما قص علينا ما يلى : "للقضاء على العدو الخسيس، وليوسع حدود مصر طبقاً لأمر والده آمون رع".

وبعد مرور عشرة أيام وبعد أن قطع حوالى ١٢٥ ميلا وصل إلى غزة التى أخذها، وكان ذلك فى ذكرى عيد جلسوه على العرش، وفى اليوم الأول من السنة الثالثة والعشرين. ثم وصل بعد عشرة أيام إلى مدينة (يوحم)، وهى تبعد عن غزة بحوالى ثمانين ميلا، كما أنها لا تبعد كثيراً من الحافة الجبلية التى لابد من عبورها قبل أن يتمكن من أن ينقض على العدو، وهنا دعا مجلس الحرب وخاطب ضباطه بما يلى:

"ذلك العدو الخسيس صاحب قادش قد أتى ودخل (مجدو)، وهو موجود هناك فى هذا الوقت، وقد جمع لنفسه امراء الأراضى الذين كانوا موالين لمصر حتى نهرين .. والسوريين وشعب (قود Kode) وخيولهم وعساكرهم ورجالهم. وقال لهم : سأقف للقتال ضد جلالته هنا فى مجدو أخبرونى ماذا فى قلوبكم".

وقد أجابه الضباط بما يلى :

"كيف يستطيع أحد أن يسير فى هذا الطريق الشديد الضيق؟ وقد نما إلى علمنا أن العدو يقف فى الخارج، وأصبح كثير العدد. وكيف يمكن أن يسير حصان فى أثر حصان وكذلك العساكر والرجال؟ كيف أن طليعة الجيش ستحارب بينما مؤخرته ستقف فى عارونا بدون قتال؟ والآن يوجد هنا طريقان، يقع احد الطريقين عند تاغاناش Takanach بينما الثانى يقع فى الجانب الشمالى من (جفتى)، وعلى ذلك لابد لنا أن نصل إلى شمال (مجدو) ولنترك قائدنا الباسل يفعل ما يراه حسنا. نرجو ألا نسلك هذا الطريق الوعر" (٤٥).

ولما وصل إلى الملك تقارير جديدة من رسله، عند ذلك قام الملك بالرد عليهم بما يلى:

"طالما أنني حى، وطالما أن رع يحبنى، وطالما أن والدى آمون يكرمنى وطالما أننى شاب ومملوء بالحياة والقوة، فإن جلالتى سوف يتقدم إلى الأمام فى طريق (عارونا) هذا، وسوف أترك من له رغبة منكم فى الذهاب من تلك الطرق التى تتحدثون (عنها)، وسوف أترك من يرغب فى المجىء فى ركاب جلالتى. لا تدعو هؤلاء الأعداء الذين يكرههم رع يقولون "هل تقدم جلالته فى طريق آخر لأنه خائف منا".

وأجابه الضباط فى شىء من الرقة والتواضع قائلين

"إن والدك آمون قد انجح مشورتك. نأمل أننا فى أثر جلالتك أينما سيتوجه جلالتك، وأن التابع سوف يتبع سيده" (٤٦).

إن هذه المقتطفات سالفة الذكر تعطينا بعض الأفكار عن أسلوب هذا الحوار العسكرى الذى دار بين تحتمس الثالث ورجال الحرب، ونجده أنه لم يتخذ قراره الخاص بالتقدم فى طريق (عارونا إلا بعد أن وصلته تقارير من رجال مخابراته العسكريين الذين نقلوا له الاستعدادات التى اتخذها العدو فى (مجدو)، فقراره الخاص بسلوك هذا الطريق لم يكن جرأة منه فقط، وإنما حالف تلك الشجاعة دراسة مدعمة ببيانات وافيه عن مواضع القتال ومراكز العدو، من أجل ذلك صمم على السير فى هذا الطريق، ثم ربما يتساءل بعض الناس لماذا لم يوضح تحتمس الثالث لقواده ورجاله البيانات التى تلقاها من رجال مخابراته، أعتقد أن تلك البيانات قد أحيطت بالسرية التامة لأنها ربما كانت تتعلق بنوع من الجاسوسية التى استخدمها تحتمس الثالث والتى ساهمت فى توضيح بعض البيانات له، وربما كان فى إعلانها أو فى تسجيلها مساس ببعض الذين عاونوه من رجال تلك الإمارات، أو أنه خشى من انتشار تلك البيانات بين عساكره فتتسرب إلى أعدائه وهم قاب قوسين. أو أدنى من ساحة القتال. على أية حال فهو لون من ألوان الحذر أو كتمان السر دفعه الحرص الشديد على المعركة.

اختار تحتمس الثالث الطريق المباشر الصعب، وأقسم أنه سوف يكون فى مقدمة فيالقه، وبعد أن قضى ثلاثة أيام فى قرية (عارونا) تقدم إلى الشمال وقد حمل تمثال آمون، وصل إلى فم الوادى، ورأى بعد الجناح الجنوبى للعدو عند (تاغاناش) على حافة السهل، بينما انتشر الجناح الشمالى قريباً من مجدو. وقد ظن اعداؤه أنه سوف يسلك أحد الطريقين السهلين، ولكن خاب ظنهم فلم يروه فى أحد منهما، وحمل عليهم من طريق (عارونا)، وتقدمت طليعة جيش فرعون، وانتشرت على الوادى إلى الجنوب من مجرى مائى صغير يسمى قنه (Kina).

وخاطبه ضباطه:

"تأمل: جاء جلالته ومعه جيشه الباسل وقد ملأ الوادى، ليت قائدنا الشجاع الظافر يسمع لنا هذه المرة، ليت قائدنا ينتظر مؤخرة جيشه ورجاله. ولما أتت مؤخرة الجيش عن يميننا، فسوف نقاتل ضد هؤلاء الأعداء وسوف لا يكون لدينا أى قلق نحو مؤخرة جيشنا" حينما أقدم (تحتمس الثالث) على تنفيذ خطته وهى التقدم فى طريق عارونا، ورأينا أن رجال الحرب قد أطاعوه رغم معارضتهم أياه، وأنهم لم يتركوه وحده كما فعل عساكر رمسيس الثانى وبعض فيالقه فى آسيا – كما سنرى فيما بعد إذ وجد وحيداً إلا من حول عربته فى معركة قادش – نجد أنهم رغم مخالفتهم لرأيه اشتركوا معه فى تنفيذ الهجوم الخاطف بل كانوا حريصين على القضاء على العدو فأسدوا له بعض النصح الحربى وطلبوا منه أن تنتظر مقدمة الجيش مؤخرته، فيباغت الجيش كله الأعداء دفعة واحدة. وسنرى أن تحتمس الثالث قد سمع لنصح قواده، فأوقف تقدم وحداته الأمامية حتى الظهيرة وحينما مالت الشمس إلى الغروب تقدم الجيش كله إلى جنوب مجدو على طول شاطئ مجرى (قنه) وكانت الساعة حوالى السابعة مساءاً. ثم استطرد الكتاب العسكريون قائلين "ضربت الخيام لجلالته، وصدرت الأوامر إلى كل الجيش بما يلى: جهزوا أنفسكم، ولتكن أسلحتكم على أهبة الاستعداد، لأننا سوف نقاتل ذلك العدو الخسيس فى الصباح" (٤٧).

وبعد ذلك عاد تحتمس الثالث وعساكره للراحة، ونام جلالته فى خيمته سعيداً. وفى الصباح جاءته الأخبار أن الشاطئ أصبح واضحاً، وأن قسمى الجيش الجنوبى والشمالى فى حالة طيبة.

حدث كل ذلك فى اليوم التاسع من الشهر، وأننا سنندهش من حسن التصرفات العسكرية لقائدنا البطل تحتمس الثالث الذى لم يبدأ المعركة إلا فى اليوم الحادى والعشرين. وفى يقينى أن سر هذا التأخير هو الاستعداد للهجوم الخاطف. ويظهر الملك بعد ذلك "على عربة من الذهب مزودة بعدة حرب كاملة وكأنه حورس رفيع الذراع رجل الساعة، ومثل مونتو الطيبى" وقد وصفت حالة القوات قبل ساعة الهجوم بما يلى : أقام الجناح الشمالى فى الناحية الشمالية الغربية من مجدو، بينما أقام الجناح الجنوبى على تل إلى الجنوب من مجرى (قنه). وكان الملك وسط الجناحين وبدأت المعركة ولوحظ أن تحتمس الثالث كان فخوراً بقوته، وقد تمكن من القضاء على العدو الذى اخذ فى الهرب إلى مجدو، تاركين فى الميدان خيولهم وعرباتهم المصنوعة من الذهب والفضة. وبعد ذلك أغلقت أبواب المدينة، ولكن حينما أخذهم الرعب تسلقوا أسوار المدينة وقد عاونهم سكانها فاتخذوا من الثياب حبالا تعينهم فى الوصول إلى داخل الأسوار ثم جاء فى سياق الحديث عن تفاصيل الموقعة ما يلى:

" لولا ميل جيش جلالته إلى سلب متاع أولئك الأعداء، لتمكنوا من الاستيلاء على مجدو فى تلك اللحظة، بينما فر العدو الخسيس إلى قادش[٤٨]".

يذكرنا الكتاب العسكريون ما كان من أمر عساكر فرعون، فقد شغلوا بالأسلاب والغنائم وضعفت نفوسهم أمام ذهب الأسيويين وأمتعتهم ولماذا أمر تحتمس الثالث كتابه العسكريين بتسجيل ذلك الحادث. أعتقد أن تسجيل التفاصيل كان من شأن الكتاب المصريين، كما أنه أراد أن يكون التسجيل درسا من دروس المؤاخذة لضعفاء النفوس أمثال الذين شغلتهم غنائم الأعداء فلا يعودوا لمثل ذلك فى المستقبل. كما أن ذلك يشير إلى الصعوبات التى صادفت تحتمس الثالث من بعض

رجاله، وفيها تفسير واضح لما سبق أن ذكرناه من أن تحتمس الثالث ربما كان يخفى بعض البيانات التى احتفظ بها لنفسه حتى لا يفشى أمرها بين بعض جواسيس الأعداء الذين يحتمل أنهم كانوا يتسللون داخل صفوف جيش فرعون، أن العمل الذى قام به هؤلاء العساكر فوق ما يدل على سوء مسلك هؤلاء، فإنه يدفعنا إلى الاعتقاد أن الأسلاب كانت حقا من حقوق المحاربين فى تلك العصور. لكن كان لذلك قواعد وأسس، فحين عودة فرعون إلى الوطن يقوم بتوزيع الغنائم على جنده كما وجد ذلك ممثلا فى كثير من المناظر.

ومن الوصف الطريف للكتاب العسكريين عن الأعداء، فقد ذكروا أن الأسيويين انبطحوا أرضا وكانوا كالأسماك فى الشبكة. وهو وصف رائع لحصار الأعداء وتمكن الصائد منهم. وقد جاء خبر ذلك على لوح جبل برقل (نباتا) وأنه استمر سبعة أشهر وأننا نتصور مقدار الصعوبات التى لاقاها تحتمس الثالث وأهمية الموقع من قوله "إن كل أمراء الأقطار الشمالية قد حبسوا بداخلها. أن الاستيلاء على مجدو يعادل الاستيلاء على ألف مدينة" (٤٩).

والواقع أن هذا هو أول تحقيق عسكرى لمعركة خاضتها جيوش فى تلك العهود البعيدة فى القدم. أننا لا ننكر أن وصف معركة (مجدو)، وهذا الحوار بين الملك وحاشيته ورجال الحرب يتفق مع الصور المألوفة عن الحوار فى الأحاديث الحربية، وبالرغم من فقدان كثير من العبارات فإنها أعطتنا صورة صادقة عما كان يجرى فى المعركة أو قبلها أو بعدها بكثير من التفاصيل. وقد قام احد المختصين والناقدين للمعارك العسكرية فى عصرنا الحديث بعمل تحقيق محلى فى المنطقة لمعرفة الحقائق الطبوغرافية وليس هناك من نقد وجه إلى تحتمس إلا فى تصميمه اختيار الطريق الضيق للوصول إلى المدينة وأنه قد بالغ فى ذلك على أنه لا يجوز لنا أن ننظر إلى المعركة التى خاضتها جيوش مصر فى ذلك الوقت بالعين التى ترى من قريب ولا تستطيع أن تنفذ إلى عقول هؤلاء الناس. كما لا يجوز لنا أن ننظر إلى نتائج الحملة التى نجحت وانتصر فيها تحتمس الثالث ونقدر أنه لو اختار أحد الطريقين

الأخرين لربما وصل إلى النتيجة التي وصل إليها. يجب أن نقدر أن هناك أسباباً أخرى ربما لم يسجلها تحتمس رغبة منه في الحرص على بعض الأسرار الحربية، أو رعاية لبعض الشخصيات الأسيوية التي كانت تقدم له بعض الخدمات السرية. وأنه ربما في بعض مناطق هذا الطريق كان له بعض العيون الفاحصة والتي كانت تعينه في معرفة الأسرار، وليس قصر الطريق أو ضيقه أو صعوبة سلوك أعدائه فيه هي وحدها من الأسباب التي دفعته إلى اختياره. كذلك ربما أن الأحوال الجوية أيضاً كان لها أثرها في اختيار الطريق الضيق، حيث يحتمي بعض الجنود من الأمطار أو الرياح أو غيرها من تقلبات الجو في هذا الأخدود الطويل. كل هذه الأمور مجتمعة دفعت تحتمس الثالث إلى اختيار هذا الطريق ليكتب لوطنه وللأجيال من بعده صفحات من المجد والبطولة (٥٠).

رأينا أن الطريق الذى سلكها جيش تحتمس الثالث بعد أن وصل إلى غزة هو أنه سار شمالاً محاذياً الشاطئ حتى وصل إلى سهل (شارون)، وبعد ذلك مر في سلسلة جبال الكرمل حتى وصل إلى سهل (اسداركلون Esdarclon) عند مجدو. وأن انتصار تحتمس الثالث في هذه المعركة بعد أن أمضى حوالى عشرة أيام في ارتياد حوالى ١٥٠ ميلا حتى غزة ليدل على حسن النظام خصوصاً تموين هذه الأعداد الكبيرة من الجيوش والجنود والدواب، ثم من غزة وإحدى مدن سهل "الكرمل" حوالى ٨٠ ميلا في أحد عشر يوماً. وقد استغرق مرور تحتمس في الممر الضيق يوماً واحداً ولم يشعر به الأسيويون. وقد مر تحتمس وفر الأعداء تاركين عرباقم وكما رأينا اتجهوا نحو المدينة حيث أغلقت الأبواب في وجوههم وقد عطف أهلها عليهم فادلوا بثياهم وأخذوا يتعلقون ها إلى الأسوار. ثم حوصرت المدينة كما رأينا وقد كانت محصنة بخندق عميق وكذلك بسور، وقد أقام الجنود والمصريون حول الخندق فترة طالت حتى بلغت سبعة أشهر كما سبق أن بينا ذلك. وقد أرسل الأسيويون من سكان المدينة أطفالهم إلى فرعون ومعهم أسلحتهم. وهذا الأسلوب دليل على الاستسلام إذا أصبحت الأسلحة في أيدي أطفال لا يقوون

على الدفاع ووقف جنود الأسيويين فوق الأسوار يطلبون من جلالته الأمان. وقد ذكر فى حوليات تحتمس الثالث بالكرنك أن تفاصيل الحصار قد كتبت على رق حفظ بمعبد آمون. وهناك شخص يدعى (ثنن)، كان يعمل كاتبًا فى الجيش، ذكر على أحد صفحات قبره: أنه طلب منه أن يقوم بكتابة ذكريات عن الانتصارات التى شاهدها. ولما كانت حياة هذا الكاتب قد امتدت إلى أيام خليفة تحتمس الثالث فإنه ليس من المعقول أن يكون قد اشترك فى الحملة الأولى لتحتمس الثالث.

كان تحتمس رجلاً طيب القلب حكيماً فلم يأخذ أعداءه بالشدة والعنف واكتفى بيمين الولاء له. وبعد ذلك سمح لهم بالعودة إلى مدنهم. وبذلك ضرب تحتمس أروع الأمثلة فى التسامح وهو قادر على القضاء عليهم، وهو خلق يندر أن تجده فى تلك العصور.

وقد جاء وصف الحملة أيضاً على لوح إقامة الملك فى (جبل برقل) بالقرب من الجندل الرابع فى السنة السابعة والأربعين من حكمه وبعد أن انتصر فى معركة مجدو هذه أرسل رسولاً إلى حاكم كوش (ولى العهد لكوش) أخبره فيه بذلك النصر، وأمر بنقش ذلك على بعض حوائط معبد (بوهن) بالقرب من (وادي حلفا) وأرخ ذلك بالسنة الثالثة والعشرين وهذه هى أول معركة بالمعنى الحقيقى يشتبك فيها ملك مصر مع جيش أجنبى فى بلاد أجنبية بقوات كبيرة [٥١].

هل قام بعد ذلك بتعيين ولى للعهد ليحكم هناك كما سبق أن فعل هو وغيره من الفراعنة لحكم بلاد النوبة؟ فى الواقع أن الحالة هنا فى فلسطين وسوريا تختلف عن غيرها. فهذه المساحة قد شغلت بإمارات كثيرة أو ولايات دأبت على القيام بمنازعات كثيرة، وأن ولاءهم لفرعون مصر كان يرتبط دائماً بالهزات العنيفة التى تصيبهم من جيرانهم فى الشرق أو الشمال فكان يقيم فى هذه المناطق دول قوية كانت تهددهم من وقت لآخر. ويحتفظ معبد الكرنك بمناظر كثيرة تمثل إخضاع هذه الإمارات، وقد مثل كل منها على هيئة أسير موثوق الذراعين إلى الخلف. وقد عدت قائمة الأسيويين ما لا يقل عن ٣٥٠ اسما، وشبيه بذلك ما ذكر على لوح

نباتا، فقد ذكر ما لا يقل عن ٣٣٥ أميراً من الذين تألبوا على المصريين فى معركة مجدو.

أما عن صدى انتصار فرعون، فقد وصل إلى (أشور) وسارع مليكها إلى التقرب من فرعون مصر وحينما عاد تحتمس الثالث إلى مصر أقام معبداً لآمون بالكرنك، واحتفل بعيد وضع أساسه فى السنة الرابعة والعشرين، فى اليوم الثلاثين من الشهر الثانى من الفصل الثانى وتدل الغنائم التى حصل عليها تحتمس الثالث عقب تلك المعركة، أن هذه المنطقة كانت غنية، فقد كان الأمراء الأسيويون يتخذون أسرة مطعمة وكانوا يحملون على محفات مطعمة بحجارة كريمة، وزودت منازلهم بأوان من ذهب وفضة. وقد لوحظ مجيء أحد الأمراء إلى ساحة القتال وبيده تمثال مصنوع من الأبنوس المزين بالذهب، وصنعت رأس التمثال من اللازورد [٥٢].

الحملة الثانية

شوه النص فى هذا القسم من حوليات تحتمس الثالث بالكرنك بحيث لم يتمكن احد من استنباط شيء سوى تاريخ قيام الحملة إذ كانت فى السنة الرابعة والعشرين. وكانت غالباً لتفقد الأحوال.

الحملة الثالثة

فى السنة الخامسة والعشرين، وجد المتن مهماً أيضاً كسابقه وقد ذكر أنه أحضر بعض الأشجار والزهور وغرسها فى مصر. وعند الانتهاء من بناء المعبد فيما بعد نقش على صفحات أحد حجراته أنواع الأشجار والزهور التى أحضرها من أسيا. وغالباً أنه أحضر بعض الطيور والحيوانات التى كانت تعيش فى أسيا كما هو واضح فى الرسوم، وقد بقى من هذه النباتات حوالى ١٧٥ نباتاً أو بعض أجزاء من نبات. وقام بعض العلماء بدراستها، وعرف بعضها منها (الرمان) وغيرها. ولم يتمكن العلماء حتى الآن من معرفة بعض هذه النباتات.

الحملة الرابعة

لم يصلنا أى شيء عنها تحويه نقوشها.

الحملة الخامسة

سبق هذه الحملة استعداد للاستيلاء على الساحل الفينيقى، من أجل ذلك بنى تحتمس الثالث أسطولاً كبيراً وجهزه بالعتاد والعدة وكان يهدف أيضاً من وراء ذلك القضاء على مملكة ميتانى وذلك بعد القضاء على مدن الساحل الفينيقى.

كانت هذه الحملة فى السنة التاسعة والعشرين، وقد استولى فيهـا علـى مدينة (وارثت) التى تقع على الساحل الفينيقى، وقد ذكر لنا أنه كان بهـا معبـد لآمون بناه أحد الفراعنة السابقين، ثم تقدم بأسطوله فوصل مدينة (أر واد) واستولى عليها وغنم منها غنائم كثيرة. وبذلك أصبحت مدن هذا الساحل قواعد يـستطيع منها أن يقدم على أعمال حربية فى داخل البلاد ويهاجم أمير قادش.

الحملة السادسة

وقعت فى السنة الثلاثين، وكان هدفه الاستيلاء على قادش، وكانت المدينة حصينة منيعة تقع على نهر العاصى وأحد فروعه، وكانت هناك قناة توصل النـهر بهذا الفرع. كما كانت توجد فيها تحصينات صناعية أخرى تقع خلف ما رزقه الله هذه المدينة من تحصينات طبيعية من اجل ذلك وجد تحتمس الثالث صعوبة كـبرى فى الاستيلاء عليها. وقد حاصرها تحتمس، وأثناء ذلك الحصار حاول بعض المـدن الساحلية القيام بثورة ضده مثل مدينة أرواد، ولكن بعد الاستيلاء علـى قـادش، توجه بأسطوله إلى مدينة أرواد.

الحملة السابعة

حدثت فى السنة الحادية والثلاثين، وقد اخضع فيها بلدة (انراثو) وهى تقع على الساحل بالقرب من (سميرا)، التى اتحدث مع (تونب)، وقد قام بعمليات إمداد الثغور بالمؤن.

الحملة الثامنة

من أعظم غزواته، وقد قام بها فى السنة الثانية والثلاثين، وبلغ الفرات وقد دونت وقائع تلك الحملة على جدران معبد الكرنك وعلى لوح (جبل برقل) [٥٣].

وجدير بالذكر أن المصريين قد اهتموا ببناء السفن من أول يوم كتبوا فيه تاريخهم، لان النيل قد علمهم ركوب الماء وأنه كان الوسيلة الأساسية للانتقال من مكان لآخر. وكذلك ركبوا مياه البحر لإحضار الأخشاب من لبنان أيام الدولة القديمة منذ أيام سنفرو. وكذلك توجهوا إلى بلاد (بنت) لإحضار أشجار المر والعطور المختلفة. إنما فى هذه الفترة كان عليهم أن يركبوا البحر على سفن حربية ليقاتلوا الأعداء على سواحل فينيقية وكان يوجد فى شمالى الوادى فى منف حوض لبناء السفن جهز بكل ما يلزم لصناعة السفن وأدوات الحرب والقتال.

كانت قوات (نهرين) هى العقبة الكؤدد فى سبيل توسع تحتمس الثالث. وقد سبق أن قام تحتمس الأول بحملة هناك. وأن عبور الفرات وهزيمة ملك ميتانى هما العملان اللذان توج بهما تحتمس الثالث حملته الثامنة فى السنة الثالثة والثلاثين.

وهناك أوصاف كثيرة لهذه البقعة، ولكن تفاصيل كل منها يختلف عن الآخر. فلو كان الطريق من بيبلوس (جبيل) مارا (بقطنة) وتونب بالقرب من حلب وكركميش، كان لابد إذن من نقل هذه السفن فى مسافة طولها أكثر من ٢٥٠ ميلا، وعلى ذلك فإن استخدام عجلات تجرها الثيران فى مثل هذه المسافة الطويلة أمر فيه استحالة ولو صح ذلك لكان تحتمس الثالث من أقدم قادة الحرب وأكفأهم فى عمليات نقل الجنود والعتاد فى تلك الحقبة من التاريخ وعلى أرض تختلف طبيعتها ومناخها عن مصر. ومن الجائز أن النصر لم يكن حاسماً كما صوره الكاتب لأننا سنسمع بعد ذلك بعامين عن نشوب قتال مع أمير نهرين، ولو انه لم يكن فى هذه البلد نفسها.

وقد حدثت بعض الأحداث أثناء الرحلة إلى الوطن تستوجب الذكر فقد كان للفراعنة فى أوقات فراغهم تسليات محببة إلى نفوسهم. وقد كان تحتمس

الثالث مثل جده، فقد عمد إلى (ني) لصيد الأفيال. وقد ورد ذلك فى نصين، وأنه واجه مالا يقل عن ٢١٠ فيلا، وفى تلك المناسبة كان معه قائـــد شـــجاع وهـــو أمنمحاب الذى نزل إلى الماء وقطع ناب أكبر هذه الأفيال، التى يحتمل أنها حاولت الهجوم على تحتمس.

عبر تحتمس نهر الفرات على قوارب بنيت فى بيبلوس، قطعت أخشابها من هناك، ثم نقلت بعد ذلك إلى كركميش. وهذا العمل بما فى ذلك صناعة الـــسفن ونقلها يعد من الأعمال الحربية العظيمة فى عصر صعبت فيه وسائل النقل وطرقـــه، إذ كيف تتم صناعة وإعادة تركيب هذه القوارب ونقلها من جبيل إلى كـــركميش دون مشقة. إن ذلك العمل وحده يدل على دقة واستتباب الأمن فى هذه المنطقـــة وكذلك الثقة فى رجاله ومعاونيه الذين أخلصوا له حتى تم له النصر. كل ذلك يدل على عبقرية قائدنا البطل تحتمس الثالث فى جميع العمليات الحربية من اســـتعدادات للمعارك أو تموين للوحدات العسكرية أو فى الهجوم. أنه حقا كان يقوم بدراســـة كل موضوع قبل أن يقبل عليه ولولا ذلك لفشل. ثم أخـــيراً ينقـــل عـــساكره فى قوارب لتعبر النهر. أن ذلك كان يستوجب استعدادات كبيرة خشية أن يهاجمـــه الأعداء ساعة العبور فى عصر لم تعرف فيه بعد الطائرات إنما كان سلاح الحـــرب الرئيسى هو السهام والقوس والنبال.

أما تفاصيل المعركة التى دارت بين المصريين وأعدائهم فلم يوردها كتـــاب تحتمس مفصلة. وقد هرب ملك ميتانى. واستولى تحتمس على الأراضي التى تقـــع شرق الفرات، ثم عاد ونصب لوحه التذكارى على الشاطئ الأيمن بجـــوار لـــوح تحتمس الأول.

على أن بلاد ميتانى بقيت فى الواقع محافظة على ســـيادتها. وفى يقـــينى أن النصر الذى أحرزه تحتمس الثالث حقيقة نصراً كبيراً إلا أنه لم يكن مثل ذلك الذى أحرزه فى معركة مجدو الذى فصله الكتاب العسكريون كما سبق أن شرحنا ذلك، وأن إحجام الكتاب عن ذكر تفاصيل الحملة الثامنة كما تعودنا أن نـــرى ذلـــك

والوصول إلى ميتاني، غالباً ما يدل على أن تحتمس الثالث لم يقصد من وراء غزوته إلى ميتاني إلا تامين حدوده فقط، وأن الحملة إلى هنـــاك كانـــت علـــى ســبيل الاستعراضات العسكرية أو لونا من ألوان التحذير، لان بلاد ميتاني ظلت صــاحبة سيادة حتى بعد تلك الحملة وسنرى فيما بعد وبعد فترة قصيرة أن تحتمس الرابــع يتزوج من ابنة ملك ميتاني.

وكان من نتائج تلك الحملة، أن ملك الخيتا (الحيثيين) بدأ يتقــرب مــن مصر، فأرسل لأول مرة رسولاً يحمل هدايا لفرعون، كذلك خاطبت آشور مــصر تطلب ودها وأرسلت هدايا (٥٤).

الحملة التاسعة

كانت فى السنة الرابعة والثلاثين، وتوجه إلى بلاد (جاهى) حيث كانـــت الأمور فيها غير مستتبة، وقد أخضعهم وأحضر كثيراً من أسلاب الحرب. وظــاهر من النص أن قبرص قد بدأت تدفع جزية لمصر. وقد فرض تحتمس على بلاد جاهى أن تمد الموانى الفينيقية بما يلزم من المؤن كما أمرهم ببناء السفن. ومن ذلك نرى أنه أصبحت لمصر قوة بحرية كبيرة بدليل أن جزيرة قبرص خافته، وخشيت بأس مصر. وأصبح لمصر أسطول حربى وقد لقب قائده تحوتى بحاكم الأقطار الشمالية.

الحملة العاشرة

ثارت بلاد نهرين فهاجمها فرعون فى السنة الخامسة والثلاثين التى تقع عند أسفل بلاد نهر العاصى وانتصر على هذا الإقليم.

الحملة الحادية عشرة والثانية عشرة

وقعتا فى السنة السادسة والثلاثين. والسنة السابعة والثلاثين، ووجد النص مشوها بحيث يصعب علينا معرفة أخبارهما.

الحملة الثالثة عشرة

حدثت فى السنة الثامنة والثلاثين، وتوجه إلى شمال سورية واخضع ثـــورة قامت هناك، وفرض جزية على تلك البلاد وعلى بلاد جديدة وهـــى (أربـــخ) أو

(الالاخ) فى شمالى سورية، وقد فرض ضرائب إضافية خصيصاً للموانئ التى كانت تحمى أملاكه فى سورية لأنها كانت أمكنة للتموين.

الحملة الرابعة عشرة

وقعت حوادثها فى السنة التاسعة والثلاثين، وكان هدفه هو تأديب البـــدو الذين يقيمون فى الشمال الشرقى من الأقاليم الواقعة على الحدود المصرية.

الحملة الخامسة عشرة

كانت فى السنة الأربعين من حكمه، وغالباً أنه لم يقم بحرب، وإنما كـــان هدفه جمع الجزية. وقد جاء فيها ذكر أوزان كبيرة من الذهب.

الحملة السادسة عشرة

كانت فى السنة الثانية والأربعين، وفيها نرى عودة أمير قادش إلى الاتحـــاد مع بعض أمراء الولايات الأخرى، وكذلك ملك ميتانى وصاحب تونب (بعلبك). كل هؤلاء اتحدوا وأعلنوا الثورة على فرعون، وقد سار تحتمس الثالث فى هذه المرة بأسطوله إلى شواطئ فينيقية، ونزل فى ميناء سميرا، واستولى على ميناء (عرقات). ومن هناك زحف إلى تونب وكانت قريبة من قادش وقد سقطت فى يده، ثم حاصر قادش. ومن الطريف أن أمير قادش لجأ إلى حيلة طريفة لتفريق عربـــات الجـــيش المصرى فأطلق فرساً أمام جياد فرعون لتهيجها، وقد فطن قائده أمنمحاب إلى تلك الحيلة وقضى على الفرس كما قص لنا ذلك. وفر الأعداء داخل المدينـــة، وأمـــر فرعون بهدم سور المدينة وأسر أمراء نهرين الذين اشتركوا مع أمير قادش وســـلمت المدينة (٥٥).

وبتلك الحملة قضى تحتمس الثالث على الثوار الأســـيويين وعلـــى قـــوة الهكسوس التى كانت تعاونهم وأمن حدود بلاده من بدو الصحراء، كمـــا حمـــى شواطئ مصر فشيد أسطولاً حربياً عاونه فى الاستيلاء على بعض المدن الساحلية فى فينيقية وسورية.

لاحظنا أن تحتمس الثالث قام بين السنة الثالثة والعشرين والسنة التاسعة والثلاثين بأربع عشرة حملة لإخضاع المنطقة الشمالية الشرقية له. وقد اهتم الكاتب الذى سجل الحوادث فى الكرنك بذكر الغنيمة والجزية التى كانت تؤخذ من هذه الإمارات، ولم يظهر اهتماماً كبيراً بسير العمليات الحربية، ولكن هذه الدخول العارضة تلقى صوراً على المقاييس التى اتخذت وعلى السياسة التى اتبعت. ومنذ اللحظة الأولى اعتنى تحتمس الثالث بإقامة الأمراء الجدد الذين اختارهم، وجاء بأخواتهم أو أبنائهم إلى مصر رهائن بينما كانت الحقول المحيطة بمجدو تحت يد الزراع المصريين وخصوصاً المناطق الغنية بالفواكه، كانت تمون الجيش بالتعيينات الخاصة بالعساكر، كان يوجد أيضاً إشارة تنذر بالعقاب لكل من يحاول إهلاك المحاصيل أو البساتين. ويلاحظ أيضاً أن هناك اهتماماً شديداً بتزويد الموانئ الساحلية بالمؤن التى تحتاجها.

إن الحملات التى تبعت الحملة الأولى، هى فى الواقع استعراضات عسكرية أو إنها إنذارات لتنبيه كل من يفكر فى الثورة وكما أشرنا فقد كانت تقع بعض المعارك من وقت لآخر. ولم يبق له غير عدوين، هما أمير قادش وملك ميتانى. ورأينا أنه استولى على قادش فى حملته السادسة وعاد إليها فى العام الثانى والأربعين وهى حملته الأخيرة على قادش. واشد الحملات وأصعبها هى الحملة الثامنة، وقد حدثت فى العام الثالث والثلاثين (ضد عدوه الخسيس فى نهرين) وهو ملك ميتانى، وهى مملكة صبغت بالصبغة الهندو أوربية، وكان نفوذها فى شرق الفرات، وكانت تعمل على الامتداد إلى غرب الفرات.

أما عن كبار الموظفين أو الأشراف الذين عاشوا فى أيام تحتمس الثالث فلم يكن هناك أعظم من (رخمى رع)، وقبره من القبور العظيمة فى طيبة. وكان يشغل وظيفة وزير المدينة الجنوبية، وملئت صفحات القبر بمناظر الأجانب والصناع التى تزين الحوائط، ولكن توجد صور تمثل بعض موظفى المدن من جزيرة (بيجا) فى الجندل الأول إلى أسيوط فى الإقليم الثالث عشر من أقاليم مصر العليا، وأغلبها

يصور رؤساء المدن، ومسجل الإقليم، وبعض الكتبة وبعض صغار الموظفين، وقد جاءوا إلى مكتب الوزير لينجزوا بعض الأعمال. وعلى أحد الحوائط منظر طريف يصف استقباله فى الحضرة الملكية. وأهم حديث مسجل هو ذلك الذى ذكر يوم تعيين رئيس القضاة. فقد قيل على سبيل المثال أن وظيفة الوزير جمل مر المذاق. وفى يقينى أن هذه النصوص التى نراها فى هذا الموضوع والخاصة بوظيفة الوزير وخطورتها ومسئولياتها الضخمة والأعباء الملقاة عليه، كل ذلك صدى لما سمعناه من أدبيات الدولة الوسطى مثل قصة (الفلاح الفصيح) (٥٦).

أما عن الأشخاص الذين عاشوا فى تلك الفترة والذين تركوا لنا مخلفات أوذكرت أسماؤهم فيبلغ عددهم ما يقرب من مائة، والكثير منهم قد نحت له قبراً فى شيخ عبد القرنة. وقد ملئت صفحات حوائط تلك القبور بنشاطهم فى جميع الميادين. وقبر "من خبر رع سنب" شبيه بقبر "رخمى رع"، وقد كانت مهمته جمع الكنوز المختلفة من ضرائب فرضت على البلاد المهزومة وإحضارها إلى معبد الكرنك، وزينت حوائط قبره بمناظر تمثل الحيثيين والوريين وقد جاءوا إلى مصر ومعهم أوانى فى غاية الجمال والروعة، بينما صور على القبر بعض كبار الموظفين من قفط وهم يقدمون هدايا من ذهب على هيئة خواتم وأقراط، وهى تمثل جزية أهل كوش والصحراء الشرقية، وتحدثت النصوص عن المسلات وسوارى الإعلام التى كلف بالإشراف عليها "من خبر رع سنب" كما جاء فى النصوص، وكذلك صور النجارون والفلاحون وهم يقومون بإحضار حصصهم المفروضة عليهم (٥٧).

وليس من الممكن ذكر جميع الموظفين الذين كانوا يعملون فى هذا العهد، وسنحاول أن نتحدث عن واحد منهم فى إيجاز. فقبر تحوتى الذى كان يعمل مشرفاً على البلدان الشمالية وقائداً لم يكشف عنه بعد، ولكن يحتفظ متحف اللوفر له بطبقين من ذهب صيغاً باتقان وقد كانا منحة ملكية من تحتمس الثالث، وكان له بمختلف دور التحف آثارا أخرى. وكان تحوتى بطلاً لقصة تشبه قصة (الأربعين لصاً) وفى السنوات الاثنى عشر الأخيرة من حكم تحتمس الثالث لم تسجل أى حملة

إلى سورية ما عدا ما جاء على لوح نباتا فى السنة السابعة والأربعين إذ ذهبت بعض الوحدات لإحضار الخشب من سورية بواسطة أمراء لبنان، ومن هناك تحملها سفن مصرية. وفى السنة الخمسين عاد الملك من النوبة ماراً بالجندل الأول كما سبق أن ذكرنا متتبعاً طريق سنوسرت الثالث وتحتمس الأول، وقد قام بتطهير قناة ردمت بالحجارة. وهناك احتمال كبير أنه فى الفترة الأخيرة كان يفكر تحتمس الثالث فى إقامة منشآت جديدة، وكذلك كان.

ولكن حدث فى الشمال اضطرابات، فالحيثيون قد مروا بفتن داخليه كثيرة، وكانوا فى موقف حرج بحيث لم يستطيعوا أن يمدوا نفوذهم بعيداً عن حلب والتى دمرها مليكها Tudhaliyas II فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد. وكان الخطر الرئيسى لمصر وللنفوذ المصرى هذا الوقت هم الميتانيين. ومن الجائز أنه جاء ذكرهم أيام أمنحتب الأول وكانت لهم حكومة قوية من أصل (آرى) فرضوا سلطانهم على الخوريين الذين أتوا من مرتفعات أرمينيا، ولا نعرف تماماً مدى تقدم الميتانيين شمال سورية. وفى النصوص الهيروغليفية يلاحظ أن اللفظين (ميتانى) و(نهرين) مترادفان، ولو أن كلمة (نهرين) أكثر استعمالاً وشيوعاً وكانت تعنى ما وراء الفرات. وعلى أية حال فإننا نلاحظ التباهى المستمر بأن (نهرين) موطئ قدم فرعون، وأنها تركت بدون شك شعوراً داخلياً أنهم هم المحرضون للثورة والشغب فى سورية وفلسطين، وقد كان التهديد من (ميتانى) له أثر قوى. وبعد أن قضى Suppeluluimas عام ١٣٧٠ ق.م على الميتانين، لم يستطع جيش مصرى لمدة حوالى ثمانمائة سنة أن يتجاوز الفرات. وأن الضعف البطيء لقوة مصر، لم يقف حجر عثرة فى سبيل محاولة أمنحتب الثانى بن تحتمس الثالث العمل على الاستمرار فى تحقيق الانتصارات التى بدأها والده (٥٧).

لم يكن تحوتمس الثالث محارباً عظيماً فحسب بل أنه كان محباً للإنشاءات المعمارية أيضاً فقد بنى معبداً جنازياً فى منطقة العساسيف الشرقية، كما بنى معبداً آخر بجوار الطابق الثالث لمعبد الملكة حتشبسوت كما بنى معبداً فى منطقة مدينة هابو فى البر الغربى وأيضاً مقبرته التى تعتبر من أجمل المقابر فى وادى الملوك.

وقد أقام تحوتمس الثالث العديد من المسلات فأقام مسلتين بجوار مسلتى جده أمام الصرح الرابع ومسلتان أمام الصرح السابع وأخرى فى شرق معبد الكرنك وقد نقلت من هذه المسلات مسلتان أحدهما فى روما والأخرى فى اسطانبول وأقام العديد من المسلات فى مدينة أيون نقل منهما اثنان إلى الإسكندرية حيث أهداهما محمد على واحدة منهم إلى انجلترا والثانية إلى نيويورك والتى هى الآن فى حديقة سنترال بارك. كما أقام قدس أقداس جديد فى معبد الكرنك والذى يطلق عليه معبد اليوبيل الفضى، كما شيد أيضاً الصرح السابع كما أقام فى منف معبداً للإلهة بتاح وآخر للإله مين فى قفط وأيضاً أضاف إلى معبد حتحور سيدة الفيروز فى سيناء وشيد معبداً فى أرمنت للإله منتو إلى جانب بعض المعابد فى الكاب وإدفو وكوم إمبو والفنتين وفى بلاد النوبة فى كلابشة وأبريم وبوهن وجبل برقل.

وقد ترك لنا فى معبد الكرنك قائمة بأجداده من الفراعنة العظام وقد تضمنها أسماء فراعنة من الدولة القديمة والوسطى وهى تضم ١٦ اسماً طمس الأول منها وكان الثانى سنفرو حتى نهاية الأسرة السادسة عشرة.

وعلى كل حال كان تحتمس الثالث حربياً ممتازاً، لم يكلف احداً من رجاله القيام بعمل صعب بل يتقدم هو الصفوف كما رأيناه حين تقدم الجيش راجلاً فى ممر (عارونا). وكان إدارياً ممتازاً، فقد وصفه وزيره رخمى رع (أنه كالصقر الذى يرى ما لايبصره البشر العادى). لم يكن نهازاً للفرص فعامل أعداءه باللين والمحبة مع الحيطة، وقربهم إليه ووثق فيهم بعد أن أدوا له يمين الولاء والطاعة. ثم هو أول من فكر فى أن يأخذ أولادهم إلى مصر، فيتعلموا فى قصر فرعون، وينشأوا نشأة مصرية، حتى إذا ما عادوا إلى بلادهم فحكموها لم ينسوا فضل مصر عليهم، وقد تحقق ذلك،واتصفت حملاته بلون آخر، فالظاهر أنه إلى جانب الكتاب العسكريين والفنانين والرسامين، أخذ فى ركابه بعض علماء الحيوان والنبات وأحضروا بعضها إلى مصر، مثل الدجاج والرمان.

كان تحتمس الثالث يقدر البطولة والأبطال، فيكافئ المجد بالمنح الكثيرة، مثل أمنمحاب الذى أبدى شجاعة وإخلاصاً كبيراً فى حربه مع الأسيويين فى حادث هجوم أحد الفيلة على تحتمس الثالث، وكذلك القضاء على فرس الأعداء التى كانت ستهيج خيل عربات المصريين. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل خلد الأبطال من السلف أمثال سنوسرت الثالث.

وهو بعد ذلك صاحب حكمة ورأى سديد فى الحكم، وأبرز لذلك نصائحه لوزيره رخمى رع حينما عينه وزيراً، وقد كتب كل ذلك على صفحات جدران قبره، وفيها تصوير واضح لسياسة الحكم ودستور يستطيع الناس أن يهتدوا به. وفيها تحليل لنفوس الناس وإحساسهم، وما يجب مراعاته لحكم الشعب وعدم الإنقاص من حقوقه، وعلاقة الحاكم بالمحكوم.

ازدهرت طيبة فى عهده بالمبانى والمنشآت الدينية، وأما البر الغربى فقد حفل بقبور كبار رجال الدولة. وعمر تحتمس الثالث كثيراً وشيد كثيراً من المبانى، وامتد عمره طويلاً فتجاوز السبعين بقليل وترك لنا ثروة هائلة من الوثائق التاريخية، كتبت بدماء هذا الشعب الذى وهب نفسه لحماية وطنه والدفاع عن حقوقه. وغادر الدنيا بعد أن جلس على العرش أربعة وخمسين عاماً.

وقد توفى تحوتمس الثالث عام ١٤٥٠ ق.م بعد أن تجاوز السبعين بقليل وجلس على العرش حوالى أربعة وخمسين عاماً، ودفن فى مقبرته السرية التى حفرها فى الطرف الجنوبى لوادى الملوك بالقرب من مقبرة أبيه تحوتمس الثانى، وهى تحمل رقم ٣٤ وهى تشبه مقبرة أمنحتب الثانى فى طرازها المعمارى وقد نقشت حجرة الدفن بنقوش تشبه أيضاً مقبرة أمنحتب الثانى، وتوجد فى حجرة الدفن نصوص تمثل النسخة الأولى كاملة لكتاب ما هو موجود فى العالم الاخر بفصوله الإثنى عشر(٥٨).

أمنحتب الثانى - عاخبرورع
(١٤٢٧ - ١٤٠٠ ق.م تقريباً)

أمنحتب الثانى ملك قل أن نجد له مثيلاً بين فراعنة مصر، فهو رياضى من الطراز الأول، ومحارب من نوع ممتاز. فقد فاق غيره من ملوك مصر بممارسته الكثير من أنواع الرياضة المختلفة، وكان الفضل الأكبر فى تقويمه يرجع إلى والده العظيم تحتمس الثالث، بطل مصر وقائدها الأول، والذى ضرب لجيله وللأجيال من بعده أروع الأمثلة فى البطولة والأبطال. لقد أدرك أن عصره يتطلب الاهتمام بسلامة الأجسام للتمكن من ممارسة صناعة الحرب التى كانت ضرورية لرجال الحكم، ليؤمنوا حدود الوطن وليحافظوا على ما تم فتحه من إمارات فى الشمال أو الحفاظ على جنوبى الوادى. من اجل ذلك سلم تحتمس الثالث ولده أمنحتب إلى أحد قواده المدعو (مين) وكان يشغل وظيفة حاكم مدينة ثنى (طينة) وهى تقع إلى الشمال من العرابة المدفونة فى بعض نواحى جرجا. ومن بين مناظر قبره فى جبانة طيبة منظران خاصان بطفولة أمنحتب، أحدهما يظهر فيه أمنحتب طفلا عارى الجسد وقد حمله (مين) على فخذيه.

وهذا يدل على أن مين كلف برعاية أمنحتب منذ أن كان طفلاً. ولما أشتد عوده صور أمنحتب وهويتدرب على الرماية مرتديا ثوباً شفافاً فضفاضاً حتى لا يقيد حركاته، وقد صوب سهمه نحو هدف وضعوه أمامه، وكان قد أصابه بأربعة سهام. أما مدربه (مين) فقد وقف من خلفه يراقبه ويسدى إليه النصح حتى يتمكن من إصابة المرمى، ومن الطريف أن الفنان المصرى القديم قد زود هذه اللوحة بعنوان يدل عليها فقد كتب فوق المنظر ما يلى "الأمير (أمنحتب) يتمتع بدرس فى الرماية فى ردهة القصر الفسيحة فى ثينى". وهذا يدل على أن تدريب أمنحتب كان فى قصر والده فى ثينى. وقد صاحب المنظر ما يلى: "أنه (مين) الذى لقن الصغير الأسس الأولى فى تعليم الرماية".

من الأدلة الثابتة أن أمنحتب الثانى قد اشترك مع أباه فى العرش حوالى سنتين وقد عثر على اسميهما معاً فى معبد عمداً ببلاد النوبة، وكان شاباً قوياً ذا قوة مدهشة وقد انتفع هذا الشاب بالتربية العسكرية التى تعهده أبوه بها، ومما يقال عنه بأنه كان قوى ولديه قوس لا يستطيع غيره أن يشده، ويبدو أن أمنحتب ولد فى منف وقد سجل ذلك على أحد جعارينه، وكان يشغل فى شبابه المسئول عن توزيع الأخشاب الخاصة بصناعة السفن، كما أنه كان مولعاً بالخيل ومعرفة طبائعها وكان يتم تدريبه على قيادة العجلات الحربية فى صحراء الجيزة، وكان فى استطاعته أن يصوب نحو هدف معدنى سمكه حوالى قبضة يد بسهمه فيخرقه وقد صور ذلك على لوحة حجرية عثر عليها سنة ١٨٢٧م وموجودة الآن فى متحف الأقصر، واهتم أيضاً بالصيد وقد جاء ذكر ذلك على لوحة عثر عليها فى ميت رهينة وعلى خاتم موجود الآن فى متحف اللوفر، ونرى أمنحتب واقفاً يمسك بيده اليسرى ذيل أسد بينما يهوى بيده الأخرى على الحيوان (٥٩).

وقد حاول أمنحتب أن يحذو حذو والده فى توسيع الإمبراطورية والضرب على أيدى الثوار، وسجل أعماله الحربية على ثلاثة لوحات واحدة فى ميت رهينة، ولوحة فى معبد الكرنك، ولوحة فى معبد عمدا فى بلاد النوبة، ومالت حوليات هذا الفرعون إلى المبالغة فى تصوير إنتصاراته على العكس من حوليات والده التى راعت سلامة المنطق فى روايتها بقدر الإمكان، فقد كان أمنحتب يحب التفاصيل وخصوصاً التى تمجد قوته وحيويته.

وبعد موت تحوتمس الثالث وبعد تولى أمنحتب العرش قامت الولايات بالثورة على الملك الجديد، وقد رفض الأمراء إرسال الجزية المقررة عليهم آملين أن يكون الفرعون أقل قسوة ونشاطاً من الفرعون السابق، ولكن خاب ظنهم وفى العام الثالث من حكمه ذهب على رأس جيشه إلى آسيا لكى يقضى على هذه الثورات، ويقول النص "أنه عبر المياه الضحلة بنهر العاصى الهادرة. اكتشف جلالته بعض الأسيويين يندفعون بخيولهم ويصلون بسرعة وحمل جلالته الأسلحة الحربية

وعندما اتجه بنظره إلى إحدى العربات لجأت الأخرى إلى الهرب". ونقرأ أيضاً أنـــه قتل سبعة أمراء، وحمل أجسادهم إلى طيبة وعرضها لكى تستخدم كعـــبرة لكـــل هؤلاء الذين يفكرون فى الثورة(٦٠).

وتروى النصوص أيضاً أنه تجمع فى معسكر الأسرى ذات مـــرة حـــوالى ٣٠٠ أسير فخشى الملك هروبهم فقام بالليل، وحفر حفرتين أوقد فيهما النار وظل ساهراً يحرسهم حتى الصباح ولما سمع الأمراء بهذا النصر تسابقوا لإحضار هداياهم ولأول مرة نرى ميتانى ترسل هداياها أيضاً إلى الفرعون، وربما أن الوضع فى الشرق بدأ يميل إلى التغيير فدولة ميتانى كانت حتى هذه اللحظة هـــى الدولـــة والقـــوى العظمى فى مواجهة مصر ولكنها بدأت تخشى تطور دولة جديدة بدأت فى الظهور وهى دولة الحيثيين، ولأمنحتب الثانى حملتان أخريان فى العامين الـــسابع والتاســـع إجتاح فى الأولى رتنو ثم عبر نهر العاصى والتحم مع العدو وانتصر عليه، وفى حملة العام التاسع اتجه إلى "يحم" التى خربها وأسر أمرائها، واتجه بعد ذلك إلى العديد من مدن فلسطين واستولى عليها (٦١).

أما عن أعماله الداخلية التى أنشأها الملك فيبدو أنها غير كثيرة كما كانت فى عهد والده تحوتمس الثالث فقد أقام فى معبد الكرنك مقصورة بـــين الـــصرحين التاسع والعاشر بمناسبة احتفالات عيد اليوبيل (الحب سد)، وقد أتم الأعمال الـــتى كان قد بدأها والده فى معبد عمدا فى بلاد النوبة والذى كان مخصصاً لعبادة آمون ورع حور آختى، هذا وقد عثر له عدة آثار مختلفة فى بعض المناطق فى تل بـــسطة ومنف وميدوم وكوم غراب ودندرة ونوبت على مقربة مـــن طـــوخ، والمـــداموا وأرمنت والكاب وأسوان واليفانتين وإبريم وبوهن وقمة وسمنة، وقد أقام معبداً فى جنوب طيبة الغربية، وشيد مقبرته فى وادى الملوك الذى كـــشف لوريـــه عنـــها ١٨٩٨م، وقد عثر فى داخل هذه المقبرة على خبيئة كانت فيها بعـــض مميـــاوات الملوك التى كان رمسيس التاسع قد أعاد ترميمها وتحنيطها وخبأها فى هذه المقـــبرة وقد وجدت مومياء الملك داخل المقبرة (٦٢).

هذا وبعد وفاة الملك الذى حكم مصر ما يقرب من ٢٦ سنة وعند وفاته تجددت المشاكل فى وراثة العرش فقد كان له أكثر من ابن أحدهم يسمى تحوتمس ويبلغ من العمر تسعة عشر عاماً، وربما كان الأولاد يتراوح عددهم ما بين الخمسة والسبعة. ولكن نجد أن تحوتمس هذا قد تولى العرش دون أى صراع ظاهر، وكانت أمه تسمى "تى — عا" أى تى العظيمة.

تحوتمس الرابع – من خبرو رع

(١٤٠٠ – ١٣٩٠)

تولى العرش ربما بعد وفاة أخيه الأكبر الذى كان من المفروض أن يـرث العرش بعد وفاة والده، وربما بذلك قد مهد الطريق له لوراثة عرش مصر، ويبـدو أيضاً أنه كان يعيش فى منف، وكان متأثراً بكهنة إله الشمس فى هليوبوليس الذين كانوا دائماً مناهضين لكهنة الإله آمون، وقد دعوا الملك إلى تولى العرش وذلـك وفقاً لما جاء على لوحة الحلم التى أقامها تحوتمس بين قدمى تمثال أبو الهول فى هضبة الجيزة، وهو الذى أصبح فى عصر الدولة يعبد كأنه الإله رع حور آخـتى أى إلـه المشرقين الشرق والغرب (٦٣).

وفيها يقول: أنه كان ذات يوم أن خرج الابن الملكى تحـوتمس فى نزهـة للصيد وفى الظهيرة أراد أن يستريح فى ظل أبو الهول ذلك المكان المقدس منذ بداية الزمان، فغفا الملك وقد رأى هذا المعبود يتحدث إليه بفمه كما لو كان أباً يتحدث إلى ولده قائلاً تطلع إلى وألقى نظرة على أبا ابنى تحوتمس فأنا والدك" حورام آخت رع آتوم" سوف أهبك مملكتى الأرضية وأقيمك على رأس الأحياء وتلبس التـاج الأبيض والتاج الأحمر على عرش جب الوراثى وتصبح الأرض طولاً وعرضاً وكافة ما تنيره عين رب الكون ملكاً لك هيا راقب حالى فالألم شملنى وفتـت أوصـالى وجسدى حل به الخراب ورمال الصحراء التى انتصب فوقها تزحف على، أعتنى بى ونفذ كل رغباتى أعلم أنك ولدى وحام لى تعال هنا وأقترب جداً إننى معك إنـنى مرشدك" (٦٤).

وبعد أن تولى العرش بواسطة كهنة إلـه الـشمس وبمـساعدة كهنـة هيلوبوليس، ويبدو أن كهنة الإله آمون اضطروا إلى قبول الأمـر الواقـع دون أى اعتراض، وقد قام الملك بإزالة الرمال عن جسم التمثال.

وقد قاد هذا الملك حملة على سورية وربما كانت هذه الحملة حملة تفتيشية للضرب على أيدى أى ثوار، لأن بعض المدن كانت قد تعودت بأنه عند تولى أى

فرعون جديد يقومون بثورة وذلك لرؤية مدى قوة هذا الفرعون، فإن كان قويـاً فلن يخسروا شيئاً فسيبقى الحال كما هو عليه وإن كسبوا فيكون ذلـك مكسباً يتخلون فيه عن سيطرة مصر، ولكن الفرعون الجديد لم يكن أقل من سابقيه فخرج على رأس هذه الحملة حتى لا تفكر أى إمارة فى الثورة عليه (٦٥).

ولكن الأمور فى الشرق كانت قد بدأت فى الاختلاف بعض الشىء فقـد رأى تحوتمس الرابع عقد معاهدة مع ملك الميتانيين الذي كان يدعى "ارتاتاما" و لم يتردد الميتانيون فى قبول صداقة الملك المصرى ذلك لأن خطر الحيثيون بدأ يـزداد، وأن صداقة الملك المصرى سوف تعاون ملك الميتانيين فى الوقوف ضـد أخطـار الحيثيين، وانتهز الملك المصرى هذا التحالف وأرسل الرسل إلى بلاط ملك ميتـانى يطلب الزواج من إحدى بناته حتى يوثق أواصر الصداقة بين مصر وميتانى، وبالفعل أرسل ملك ميتانى إحدى بناته لتكون زوجة للفرعون المصرى وهى الملكة "مـوت أم ويا" التى أنجبت وريثاً للعرش وهو أمنحتب الثالث (٦٦).

ولقد كان هذا الزواج السياسى هو واحد من المتغيرات التى ظهـرت فى عصر الدولة الحديثة، كان فى بعض الأحيان لتوطيد العلاقات بين مصر وجيرانهـا، وقد فعل هذا تحوتمس الثالث وابنه أمنحتب الثانى ذلك، ولكن الزوجات الأجنبيات فى عهدهم لم يكونوا إلا زوجات ثانويات أما فى عصر تحوتمس الرابـع أصـبحت "موت أم ويا" زوجة رئيسية وأما لولى عهده.

وفى السنة السابعة من حكمه قامت ثورة فى الجنوب فى النوبة الـسفلى، واضطر الملك القيام على رأس جيشه لقمع هذه الثورة وقد سجلت هذه الحملات على معبد الكرنك، وسجل حملته على بلاد النوبة على عربته الحربية (٦٧).

ولقد كان هاتان الحملتان هما الحملتين اللتين قام بهما الملـك فى خـلال حكمه، وبعدهما استقر الأمن واتجه إلى أعماله الإنشائية ومنها العثور على أحجـار معبد فى الصرح الثالث لأمنحتب الثالث، وقد قامت البعثة الفرنسية الآن بإعـادة بناء أحجار هذا المعبد الذى يعتبر صوره من أجمل المناظر، وقد أقام مسلة كان جده تحوتمس الثالث لم يتمها فأتمها وأقامها وهى الآن فى روما امام كنيسة "سان جـان

دى لاتران"، كما شيد فى البر الغربى معبده الجنازى إلى الجنوب مـــن الرمـــسيوم، وحفر له مقبرة فى وادى الملوك وقد عثر على التابوت الحجرى وبعـــض الأثـــاث الجنائزى.

مات تحوتمس الرابع و لم يحكم سوى تسع أعوام وربما مات وهو شـــاب فكان يبلغ من العمر حوالى ثمانية وعشرين عامًا، بعد أن أحدث تغييرات كبيرة فى التقاليد الفنية، وقد ساعد على ذلك الثراء الكبير الذى أصابته مصر من الـــضرائب والجزية التى كانت تأتى من الإمارات التى كانت تحتلها إلى جانب التجارة الضخمة بين مصر وجيرانها، هذا الثراء لم تعرفه مصر من قبل، وقد أراد المصريون منذ عصر تحوتمس الرابع الاستمتاع بهذا الثراء، فنرى المناظر على جدران المقابر فى عهد بـــدأ عليها الجمال مع زيادة مناظر الرفاهية مثل الحفلات ورحلات الصيد، إلى جانـــب التقارب الحضارى بين مصر وجيرانها فقد أخذ الفنانون المـــصريون مـــن الفنـــون الأخرى ما يتناسب مع أذواقهم وديانتهم فنجد الرقة والإبتسامة الرقيقة التى بدأت تظهر على الوجوه فى فن النحت والرسم، كما أن مصر فى ذلك الوقـــت كانـــت مليئة بالأجانب حيث كان يعيش فيها الأمراء الأجانـــب إلى جانـــب الأســـرى، وأيضاً الجوارى وإلى جانب البعثات الدبلوماسية والتجارية الـــتى كانـــت تـــأتى إلى مصر حيث نجد أن تعبير أحد المؤرخين وهو "جين كابارت" عند وصف طيبة فى هذا الوقت ويقول أنه كان عندما تمشى فى شوارعها تـــسمع جميـــع لهجـــات العالم القديم(٦٨).

أمنحتب الثالث – نب ماعت رع

(١٣٩٠ – ١٣٥٣)

بعد وفاة الملك تحوتمس الرابع تولى ابنه أمنحتب الثالث عرش البلاد،ولقد واجه هذا الملك مشكلة فى وراثته للعرش حيث أن أمه ليست من الدم الملكى الخالص أو حتى مصرية وهى "موت أم ويا" الميتانية الأصل، وكما عرفنا أن أبوه كان قد ارتمى فى أحضان كهنة الإله رع. ومن هنا رأى كهنة الإله آمون أنهم لابد من احتضان الملك الجديد حتى يبعدوه عن كهنة الإله رع لذلك وجب عليهم أن يسروا عليه توليه العرش ففعلوا معه مثلما فعلوا مع الملكة حتشبسوت فى الماضى وهى أن هذا الملك قد ولد ولادة إلاهية وحاكوا له نفس القصة القديمة وهى أنه ابن مقدس من صلب الإله آمون نفسه(٦٩).

وبعد توليته العرش أصبح هو الابن المدلل لكهنة الإله آمون فكسر أمنحتب الثالث معظم القوانين وأهمها وهى الزواج من أخته التى ساعده الحظ فى أن الأخت الوحيدة التى كانت له قد ماتت، وبذلك نجد أن أمنحتب يتزوج من فتاة لاتمت بأية صلة بالدم الملكى وهى الملكة "تى" التى أصبح لها بعد ذلك شأن كبير، وكان أبوها يويا ضابط بسلاح المركبات المصرية ومشرفاً على خيول الملك، وقد افترض البعض أنه ربما يكون من أقرباء الملكة "موت أم ويا" أما أمها "تويا" هى المشرفة على ملابس الملك، وهناك من الآراء التى تقول ربما إنها كانت من العائلة المالكة حيث أنه أطلق عليها لقب "الأم الملكية لزوجة الملك" (٧٠).

ولقد تركت هذه الملكة تى بصمتها على شئون البلاد سواء الداخلية أو الخارجية وذلك لشخصيتها القوية وعمرها المديد إذ امتد بها العمر حتى وفاة زوجها، وقد بالغ الملك أمنحتب الثالث فى تكريم زوجته فأمر أن يبنى لها قصر وبحيره بجوار معبد مدينة هابو على البر الغربى للنيل فى منطقة تقع جنوب المعبد، وهى التى يطلق عليها الآن اسم الملقطة وأرادت الملكة أن تتصل هذه البحيرة بمياه النيل التى تأتى وقت الفيضان، اشترك آلاف العمال فى حفرها، وقد زرعت

الأشجار حول هذه البحرية ويحتمل أن هذه البحيرة حفرت فى ١٥ يوماً ولقد قدر بعض الباحثين أن العمال الذين اشتركوا فى حفر هذه البحيرة حوالى مائة ألف رجل عملوا ليل نهار [٧١].

إلى جانب ذلك كان أمنحتب يكن لزوجته كل احترام وتقدير، وكان شخصاً مزواجاً إلا أن ذلك لم يكن يسبب للملكة أية ضغائن حيث أنها كانت الأثيرة عنده، وقد عرف ذلك من أن أمراء الإمارات التى كانت تحتلها مصر كانوا يرسلون لها رسائل الود يطلبون فيها تحسين العلاقات بينهم وبين سيدة ملوك العالم كما تشير إلى ذلك رسائل العمارنة، كما نجد أن أمنحتب الثالث كان من أول الملوك التى جعل تماثيل زوجته تماثله فى الحجم كما هو معروف فى تماثيل الملك فى المتحف المصرى [٧٢].

أنجبت الملكة لزوجها العديد من البنات وفى السنة الرابعة والعشرين أنجبت له ولياً للعرش وهو الذى أطلق عليه أيضاً اسم أمنحتب.

ساد عصر أمنحتب السلام وربما خرج فقط فى العام الخامس من حكمه على رأس حملة إلى الجنوب فقد قامت بعض القبائل بثورة ولكن الفرعون هزمهم، وعاد إلى مصر بحوالى ٧٤٠ أسير وربما لم تطأ قدم أمنحتب الأراضى السورية إلا أنه صور نفسه فى كثير من الأحيان أنه أخضع البلاد الأجنبية بسيفه، وانه وضع كوش ونهارين وسوريا تحت قدمه، وكانت هواية هذا الملك هو الصيد وقد ادعى بأنه قتل حوالى ١٠٢ أسد خلال السنوات العشر الأولى من حكمه. ونجد أن الملك قد استن سنة جديدة وهى الاهتمام بتسجيل الأحداث الهامة على ظهور جعارين كبيرة الحجم، ومن أهم هذه الجعارين ما أطلق عليها جعارين الزواج، وقد سجل عليها زواجه من الملكة تى والذى كتب عليه "الملك أمنحتب المعطى له الحياة والملكة تى لها الحياة "يويا" هو اسم والدها وتويا هو اسم والدتها وهى زوجة ملك عظيم تمتد حدوده الجنوبية إلى كارى بالقرب من نباتا والشمالية إلى بلاد نهرين[٧٣].

ساد السلام عصر أمنحتب الثالث وأن العلاقات التي سادت بين مصر والشرق الأدنى دليل واضح على ما تمتعت به مصر من إشعاع حضارى فى آسيا وحوض البحر المتوسط، وانتشرت الحضارة المصرية حتى فى جزر البحر المتوسط وخاصة كريت وأيتوليا فى بلاد اليونان، والأناضول واليمن وبابل وآشور، وأن مصر قد وطدت سيطرتها على عصب التجارة البرية فى الشرق وإزدادت أساطيل مصر فى البحرين الأحمر والمتوسط، وحملت التجارة أفواجاً من التجار، وترتب على ذلك كله نتائج طيبة وأخرى غير مستحبة، فمن الأفكار الطيبة اتسعت آفاق المصريين المادية والفكرية واستحبوا حياة السلام، وزاد انتشار حضارتهم بين أهل الشام.

وقد هادنوه ملوك الشرق واعتاد كل منهم أن يسأل عن أحوال أخيهم أمنحتب ملك ملوك الشرق، ويرجونه أن يفيض عليهم من ذهب مصر، ومرة كتب له ملك الميتان يقول له " أخى أرجو أن تهدينى ذهباً فالذهب فى أرض أخى كالتراب" واستغل أمنحتب الثالث صداقته مع ملوك الشرق فى إرضاء نزواته من الزيجات وأسرف فى ذلك إسرافاً كثيراً وسار على سياسة والده من الزيجات السياسية، فكتب إليه ملك بابل يعتذر للملك بأنه ليس له أخت يزوجها له ويرجوه فى الوقت نفسه بأن يرسل له إحدى بناته ليتزوجها فاعتذر أمنحتب بأنه لم يسبق لأميرة مصرية أن أرسلت إلى أى إنسان" فعاد الملك البابلى يرجوه أن يرسل له أى فتاة من قصره حفظاً لماء وجهه أمام شعبه، ولكن أيضاً الملك يعتذر عن ذلك، مع أنه تزوج الكثيرين من الأميرات الأجنبيات إلا أنه لم يوافق أن يرسل مصرية لكى تتزوج من أجنبى وقد تزوج على سبيل المثال من الأميرة الميتانية "جلوخيبا" ابنة "شوتارنا" التى وصلت إلى مصر ومعها ٣١٧ وصيفة ثم تزوج أيضاً من "تادو خيبا" ابنة توشراتا [٧٤].

وكان أمنحتب الثالث مولعاً بالتشييد والبناء وقد وضع لوحة موجودة فى المتحف المصرى اغتصبها من بعده مرنباح وقد سجل أمنحتب على هذه اللوحة نصاً من ٣١ سطراً يتحدث فيه عن نشاطه المعمارى.

ففى السطرين الثانى والثالث أنه شيد معبداً لأبيه الإله آمون على الضفة الغربية من الأقصر وأنه بناه من أجود الأحجار الجيرية وزين جميع أجزائه بالذهب، وأن أرضيته حليت بالفضة وللأسف أن هذا المعبد الكبير لم يبقى منه الآن إلا بعض الأساسات ولكن بقى منه التمثلان الضخمان لأمنحتب الثالث، وبجوار قدميه زوجته. ارتفاع كل منهما ما يقرب من ١٩م والذى يطلق عليهما الآن "تمثالى ممنون" وهذان التمثالان أمام مدخل المعبد وقد اعتقد أن التمثال الشمالى هو للبطل "ممنون" الذى قتله "أخيلويوس" خلال حرب طرواده ويقال أن مقبرة ممنون تحت هذا التمثال وفى عام ٢٧ ق.م وقع زلزال فتفككت بعض أجزاء التماثيل، وكانت تخرج من هذه الأجزاء المفكوكة صوت صفير وهذا الصفير كان يخرج عندما تشرق الشمس فيتبخر الندى المتراكم طول الليل فيسبب هذا الصفير، واعتقد الناس أن ممنون يبعث بالتحية إلى أمه فى صوت أنين، وبعد أن رحم الإمبراطور الرومانى سيبتميوس سيفروس هذا التماثل انقطع هذا الصفير إلى الآن (٧٥).

ونجد فى السطرين الثامن والتاسع أنه شيد صرحاً مرتفعاً جداً فى معبد الكرنك وهو الصرح الثالث الموجود فعلاً فى معبد الكرنك.

وأيضاً فى السطرين العاشر والحادى عشر أنه شيد لأبيه الإله آمون رع الحرم الجنوبى (وهو معبد الأقصر الآن) من الحجر الرملى وكانت جدرانه بصفائح من الذهب الخالص وأرضيتها من الفضة وكل الأبواب أعدت بأعمال الترصيع، ويعتبر هذا المعبد حتى الآن من أجمل آثار مدينة الأقصر فنجد أعمدته التى نحتت نحتاً دقيقاً على هيئة حزم البردى المقفول وقد سجل على جدرانه قصة ولادته المقدسة (٧٦).

وقام بتشييد معبد فى صولب فى شمال الجندل الثالث بالنوبة العليا، وكان معبد صولب مخصصًا للمعبود آمنون، وهذا المعبد بعمارته وفنونه يضارع معبد الأقصر، كما أقام أمنحتب الثالث أمام معبد صولب سلسلتين لم يبق منهما شيء يذكر.

ويبدو أن الملك كان محل تكريم فى صولب هـو وزوجتـه، وفى منطقـة صادنجا قام الملك بتشييد معبدًا للملكة تى كرسى لعبادة الإلهة حتحور والملكة تى المؤلهة، و لم يبق من هذا المعبد ما هو قائم الآن سوى العمود الحتحورى الضخم.

كما شهدت هذه الفترة نهضة معمارية أكثر من أى وقت مـضى، فقـد شيدت المبانى الضخمة والعمائر الجميلة فى كل من طيبة ومنف، فقد كانت المنازل مزينة برسومات غاية فى الدقة تمثل فراشات بألوانها الجميلة ومناظر البط البرى بين أدغال البردى والبوص، وأيضاً الأسماك الملونة الجميلة. أما الأعمدة فقد نحتت بدقة ورشاقة، ونجد أن الملابس كانت رقيقة تظهر طيات البطن ويلبس الرجال والنساء الشعور المستعارة، وكثرت الحفلات الموسيقية ونرى فيهـا المغنيـون والمغنيـات والراقصات، وكان الأمراء والنبلاء يـسيرون فى الـشوارع بعربـات مـصفحة بالذهب والفضة (٧٧).

كما نجد التماثيل الضخمة فيحتمل أن أمنحتب الثالث أول مـن صـنع التماثيل الضخمة العملاقة. وامتازت هذه التماثيل بالليونـة والاسـتدارة والرقـة ونجحوا أن يظهروا المشاعر التى تتفاعل فى نفوس أصحاب التماثيل. كمـا أظهـر الابتسامة الرقيقة الراضية على وجوه التماثيل (٧٨).

ومن أهم الشخصيات التى عاصرت هذا الفرعـون شخـصية لا يمكـن تجاهلها فى التاريخ المصرى القديم وهى شخصية أمنحتب الذى كان اسمه على اسم مليكه، ولكن كان اسمه فى الأصل "حوى" وهو ابن رجل يـدعى "حـابو" مـن مواطنى بلده اتريب عند سوهاج فى مصر العليا، وقد لاحظ ذكاء هذا الرجل منـذ أوائل حكمه بسبب معرفته "للكلمات المقدسة"، وقد نقش على أحد تماثيله وهـو يقول "تبحرت فى شئون الدين وعرفت أسرار حجوتى وحللت كـل ألغازهـا إن الجميع يستشيرونى فيما يستعصى عليهم من الأمور" وقد رقاه الملـك إلى وظيفـة الكاتب الملكى الرئيسى لشئون التجنيد، وقد كان قائداً عسكرياً بالإضافة إلى ذلك فقد كان المهندس الأول لدى الملك ويقول "لقد كرمنى جلالته وعيني مشرفاً على كل الأعمال العامة فخلدت اسم الملك إلى الأبد و لم أقلد ما صنع من قبل".

ويسرد بعد ذلك الأعمال التى أشرف عليها، وبعد ذلك أصبح أيضاً يماثل أيمحتب الذى عاش فى عصر الملك زوسر من الأسرة الثالثة وكان أيضاً الطبيب الماهر والذى كرم وعبد أيضاً فى العصر اليونانى وشيدت له المقاصير كإله، وكان قصره يجاور قصر الملك فى الجنوب من معبد مدينة هابو (٧٩).

ارتبطت مصر منذ عصر تحوتمس الثالث بمجريات الأمور بمنطقة الشرق القديم لذلك نجد أن أحوال الاستقرار الخارجى فى عصر أمنحتب الثالث تعدلت فنجد أنه لم يخرج للضرب على يد الثوار والخروج من حين إلى آخر لتفقد أحوال الإمبراطورية، والحد من أطماع الدول المتربصة بها لذلك بدأت هذه الولايات تئن تحت وطأة أصحاب الدسائس والمطامع، وبدأ الحيثيون يعبثون بالحدود السورية والميتانية ويغرون الأمراء للعمل لصالحهم فتوالت صرخات الإغاثة من الأمراء الموالين لأمنحتب الثالث، فلم تجد آذان صاغية فى كثير من الأحوال ولم يقدر الملك هذه الأحوال خير تقدير، واستمر يظن انه السيد واستمر يتلقى رسائل التكريم من أمراء بابل ومتيان وزاد الطين بله أنه وجد بعض الأمراء الذين كانوا يضللونه ويظهرون الود والطاعة وفى نفس الوقت يضمرون الحقد وصورت هذه الأمور رسائل وجدت بواسطة إحدى الفلاحات عام ١٨٨٧ وكانت حوالى ٣٧٩ لوحة كتبت بالخط المسمارى وهو خط المراسلات وكانت هذه الألواح عبارة عن رسائل متبادلة بين أمنحتب الثالث وولده إخناتون وهى ما يطلق عليها الآن رسائل العمارنة، وكانت هذه الرسائل تحتوى على الكثير من الأحوال السياسية فى هذا الوقت، فقد كان حاكم يسمى "ريب أدى" ظل موالياً لمصر حتى آخر حياته ثم حاكم آخر يدعى "عبدو اشرتا" وكان منافقاً حيث كان ينافق الحيثيين والمصريين، وادعى لكل طرف أنه يعمل لحسابه وتوالت رسائل الإغاثة من "ريب أدى" إلى أمنحتب الثالث بعد أن وجد أن عاصمته جبيل شبه محاصرة، وتوالت أيضاً رسائل حلفائه إلى مصر ترجو نجدتها وبلغ من فجور "عبدو اشرتا" أنه كان يكتب رسائل يُكَذب فيها كل ما يقال عنه، وعندما مات "عبدو اشرتا" جاء ابنه "عازيرو" وسار على نهج والده (٨٠).

وكتب "ريب أدى" قائلاً أن حكام كنعان إذا رأوا جندياً مصرياً كانوا يولوا الأدبار أما الآن فهم يستخفون بالجند المصريين ويهددونى بالأسلحة، حدث هذا من كل الأمراء فى أواسط آسيا يطلبون الفرعون، وحدث ذلك أيضاً فى أواسط فلسطين وقام بالدور المهدم جماعة العابيرو وجأر الحكام بالشكوى إلى أمنحتب الثالث ثم إلى إخناتون.

حدثت كل هذه الخلخلة فى أواخر عهد أمنحت الثالث واشتدت فى عهد إخناتون.

وأصيب الملك فى أواخر أيامه بمرض شديد حتى أن ملك ميتانى أرسل له تمثالاً للإلهة عشتار على أمل أن تشفى الملك، وربما أنه اختفى من الحياة العامة وان الملكة تى هى التى أصبحت الملكة الحاكمة. ويبدو أنه مات وهو فى سن الخمسين ودفن فى مقبرته التى كان قد حفرها فى منطقة وادى الملوك الغربى. وقبل وفاته أشرك ابنه فى الحكم وهو أمنحتب الرابع الذى غير اسمه إلى إخناتون (٨١).

أمنحتب الرابع (إخناتون)

(١٥٥٣ - ١٣٣٦ ق.م)

تولى أمنحتب الرابع عرش البلاد فى الوقت الذى كانت فيه منطقة الشرق القديم مرجلا يغلى بالصراع، ولم يكن من اليسير التنبؤ عن الدولة التى تستطيع أن تحتل مركز الصدارة. لقد كانت مصر أشدها مراسا لأن بابل كان يغطيها غبار التراخى، وكانت آشور لاتزال فى مرحلة الطفولة لا تطمع فى الكثير مما حولها. وكان الحيثيون يتحسسون قواهم، وأما ميتانى فكانت تخشى عائلة الانهيار. وكان كل شيء يتوقف على نوعية ملك مصر، فإذا كان من طراز تحتمس الثالث، فقد ضمن لمصر السيطرة والتفوق، وكان لابد لميزان القوى فى المنطقة أن يتغير.

ولكن مصر أنجبت رجلاً من طراز آخر... كان عظيما ما فى ذلك من شك، ولكن عظمته كانت لسوء الحظ من لون غير الذى كانت تقتضيه الظروف الشائكة التى كانت تمر بها الإمبراطورية، والتى كانت أوضاعها تتطلب رجلاً من طراز آخر، جندياً من طراز تحتمس الثالث مثلا.

ولكن بدلاً من المحارب الذى يستطيع أن يوقف أطماع خيتا وآشور نرى داعية للسلام، وبدلاً من السياسى المحنك الذى يقابل مؤامرات العدو بمؤامرات أكثر منها حنكة، نرى حاكماً ذا خيال واسع يطمع فى أن يعيش الناس على الحق وللحق.

وهناك تساؤل عما إذا كان هذا الملك قد شارك والده فى الفترة الأخيرة من حكمه، أم انه جلس على العرش بعد وفاته.

وعلى أية حال، وكما سبق أن ذكرنا، فقد كانت الملكة "تى" صاحبة اليد العليا فى تصريف أمور البلاد فى عهد زوجها. وفى الفترة الأولى من حكم ابنها اتخذ أمنحتب الرابع، كأسلافه من الملوك، طيبة عاصمة لحكمه وكان يحترم الآلهة المصرية، إلا أنه كان مؤمناً بعبادة الشمس، فاختار أحد مظاهرها وهو "آتون" أي "قرص الشمس" إلها وأقام له معابد فى منطقة الكرنك[٨٢].

وبطبيعة الحال لم يكن هذا الإله غريباً عن المصريين، فهو إله مصري ورد اسمه فى النصوص المصرية منذ الدولة القديمة، أي قبل أن يولد أمنحتب الرابع بحوالي ألف عام.

والظاهر أن هذه الدعوة الجديدة لاقت منذ بدايتها معارضة كبيرة من كهنة الإله آمون رع، لأنهم أيقنوا مدى ما سوف يفقدونه من سلطان فى حالة نجاح هذه الدعوة.

ولهذا بدأ الصدام بين الملك وكبار رجال الدين من جهة وبينه وبين بعض العائلات المحافظة من جهة أخرى، و لم يكن أمام الملك سوى أن يعلنها حرباً صريحة على آمون وكهنته.. فأعلن آتون إلها رسمياً للدولة بل إلها للإمبراطورية كلها، وأمر بتحويل جميع معابد الإله آمون رع إلى أماكن لعبادة الإله الجديد وبإزالة اسم آمون من عليها، وحدث نفس الشيء بالنسبة للآلهة الأخرى(٨٣).

و لم يقف الأمر عند هذا الحد بل إننا نجد الملك يغير اسمه من أمنحتب الذى يتضمن فى الجزء الأول منه إسم "آمون" إلى "آخ – أن – آتون" ومعناه "المفيد أو المخلص لآتون".

وكان من نتيجة ذلك أن حدث انقسام فى البلاد وخصوصاً فى صفوف رجال الدولة، فأبقى منهم إخناتون من سانده فى دعوته وأبعد من لم يعترف بإلهه الجديد.

وبعد فترة قصيرة، وجد إخناتون أن جو طيبة لم يعد ملائماً لنشر دعوته، فهو جو مليء بالحقد والدسائس والسموم. فما كان منه إلا أن هجر طيبة واختار مدينة جديدة له فى مصر الوسطى فى محافظة المنيا وأطلق عليها اسم "آخت-آتون" أى "أفق آتون"، وهى المنطقة المعروفة حالياً باسم "تل العمارنة" والتى قام بتحديد حدودها بلوحات سجل عليها قسماً بأنه لن يغادر هذه المدينة طوال حياته(٨٤).

واستمر العمل يجرى على قدم وساق فى المدينة الجديدة بإقامة المنشآت كالمعابد والقصور والمنازل والمقابر الملكية ومقابر كبار رجال الدولة.

وفى الوقت الذى كان فيه الملك مشغولاً بإلهه الجديد وبناء مدينته الجديدة، كانت الأمور تسير فى غير صالح مصر فى كافة أرجاء الإمبراطورية وخصوصاً فى آسيا.

فلقد أشرنا من قبل إلى أن الإمبراطورية المصرية فى أواخر أيام أمنحتب الثالث كانت آخذه فى التداعي، وأُها كانت فى حاجة إلى ملك قوى الشكيمة يستطيع أن يرد عنها شر الجيران الطامعين.

وكان الأمراء والحكام بين مخلص يريد الخير لمصر وناشز يتمنى لو أتيحت الفرصة للتخلص من الحكم المصري.

ولما كان إخناتون رجلاً مثالياً يعيش فى مناخ الحق والصدق، فقد آمن بما كانت تقوله عصبة المنافقين و لم يكلف نفسه عناء معرفة حقيقية الأمر خارج مصر، رغم أن بوادر الانهيار كانت تتضح يوماً بعد يوم. لقد أخذت مملكة ختيا تغير بين الحين والآخر على أطراف سوريا وتضمها ولاية بعد أخرى إلى ممتلكاتها، كما أخذت مدن كثيرة فى فلسطين وفينيقيا تستقل بنفسها وتخرج عن طوع ملك مصر. بل إن بدو الصحراء أيضاً أخذوا يثيرون القلاقل والمتاعب، ومنهم قبائل "الخابيرو"(٨٥).

ولم يترك الحكام المصريون أو الأمراء الآسيويون المخلصون لمصر وسيلة من الوسائل إلا لجأوا إليها، فأرسلوا الرسل يحملون الكتب إلى الملك إخناتون، ولكنه لم يبد اهتماماً، بل إنهم أرسلوا إلى أمه الملكة "تى" لعلها تجعل ابنها يفيق من غفلته، ولكنه لم يحرك ساكناً ورفض أن يتخذ موقفاً من الأحداث التى تجرى من حوله، واكتفى بالتعبد لإلهه، ووضع الأناشيد فى مدحه والثناء عليه.

وهذه هى صرخة أحد المخلصين لمصر .. "ربعدى" حاكم جبيل الذى بعث برسالة إلى إخناتون يقول فيها: "إن والدك لم يخرج إلينا بجولة تفتيشيه على أقاليمه ومقاطعاته، منذ عاد أبوك من صيدا بدأ القوم يتصلون بالعدو، والبعيد عن العين بعيد عن القلب كما يقولون".

لقد أرسل ربعدى إلى إخناتون أكثر من ٥٠ كتاباً، ولكنه كان يصم أذنيه، ولما أصبحت جبيل مهددة تماماً بالغزو من خيتا عدوة مصر أرسل للملك يقول : "ها هو ذا الملك قد سمح بأن تخرج المدينة المخلصة من يده".

وفى رسالة أخرى يحذر ربعدى الملك من أحد الأمراء الأسيويين ويدعى "عبد شرتا" الذى كان يُتظاهر بالولاء لملك مصر .. فنرى ربعدى يقول : "عبد شرتا كلب يسعى لامتلاك مدن الملك".

ومرة أخرى لم تكن كتب ربعدى تلقى ما تستحق من التقدير، وربما يرجع ذلك إلى أن عدوه وعدو مصر "عبد شرتا" كان يدس وينافق وكان يكتب لإخناتون متهما "ربعدى" بالخيانة .. فنراه وهو يسعى إلى تقليص ممتلكات مصر فى الخارج، يكتب إلى فرعون قائلاً : إلى مولاى الملك، عبد شرتا خادمك، إننى تراب قدميك، وعلى قدميك أسقط سبع مرات، أنا كلب حارس كل أرض "آمور" للملك "مولاى".

ولم يقف الأمر عند حد الانهيار الخارجي، بل أن المؤامرات بدأت تحاك ضد الملك فى الداخل، وكاد المتآمرون فى مرة من المرات أن يصلوا إلى غرضهم لولا يقظة حراس الملك(٨٦).

وبعد هذه المؤامرة أيقن الملك أنه من الأفضل له أن يتروى فى قصره حيث قرب إليه المتملقين والمنافقين، ونذكر منهم شخص أجنبي يدعى "توتو" بدأ حياته فى القصر خادماً ثم لم يلبث أن أصبح صاحب اليد العليا فيه.

ولعل هذه الشخصية كانت أحد العوامل الهامة فى انهيار الإمبراطورية المصرية، لأنه كان يخفى على الملك بعض ما كانت تتضمنه الرسائل الواردة من الولايات الخاضعة للحكم المصري بقصد تضليله. وكما انهارت سوريا، فقد انهارت بقية قطاعات الإمبراطورية فى آسيا، وضاعت صرخات الموالين لمصر وسط زحام الأحداث وضربات أعداء مصر فى الخارج والداخل، ولم يكن هناك من سبيل لوقف النزيف فى عهد هذا الملك ومن خلفه من ملوك ضعاف، إلى أن شاء القدر لمصر أن تسترجع شيئاً من مجدها على يد ملوك الأسرة التاسعة عشرة.

وإذا كان اسم إخناتون قد ارتبط بانهيار الإمبراطورية، فإنه من ناحية أخرى قد ارتبط بتلك الثورة الدينية والفكرية الجديدة.

فبالرغم من أن أغلب آثار هذا الملك قد هدمت بعد وفاته انتقاماً منه، وبالرغم من أن عاصمته تل العمارنة قد هجرت بعد القضاء على دعوته، إلا أنه لدينا من المعلومات ما يكفى للتعرف على هذه الديانة الجديدة وخصوصاً من خلال ما سجل على جدران معبد الكرنك، وعلى جدران بعض مقابر تل العمارنة.

كان المصريون قبل عهد إخناتون يتعبدون للعديد من الآلهة التى كان بعضها محلى والبعض الآخر عام. وكانت الآلهة بالمئات، فلكل قرية إله ولكل مدينة إله، لكل إقليم إله، بالإضافة إلى الآلهة الكونية كالشمس والقمر. وكان لكل إله رمزه الخاص به ومعبده وكهنته وعباده.

وفجأة يظهر إخناتون على مصر والعالم كله بعقيدة وإله جديد، وطلب من الجميع فى مصر وخارجها أن لا يعبدوا غير إلهه آتون.

وكلمة "آتون" كلمة مصرية قديمة تعنى "قرص الشمس" وقد ورد ذكرها فى قصة سنوهى فنراه يتحدث عن الملك قائلاً : "أنه صعد إلى الرفيق الأعلى وأصبح متحداً مع قرص الشمس (آتون)".

ولقد أشرنا من قبل إلى صلة الملك تحتمس الرابع بعبادة الشمس التى أصبحت أكثر قوة ووضوحاً فى عهد الملك أمنحتب الثالث، والشواهد على ذلك كثيرة ومنها : إطلاق "آتون" على اسم القارب الذى كانت تتنزه فيه زوجته الملكة تى فى البحيرة الملحقة بقصره، وكان اسم هذا القارب "آتون يسطع".

من هذه الشواهد وغيرها يمكن أن نستنتج بأن ديانة آتون كانت معروفة قبل عهد إخناتون وإن كانت فى نطاق ضيق[٨٧].

وعندما تولى إخناتون الحكم ظل وحتى السنة الخامسة من حكمه يستخدم فى اسمه كلمة أمون، وكان يقوم بعبادة هذا الإله.

ومع بداية حكمه بدأ فى بناء معبد لعبادة آتون فى طيبة، وكان هذا أمر صدم شعور الكهنة والمهيمنين على أمور العبادة المتصلة بإله العاصمة الرسمى، ففيه معنى التحدى لمشاعرهم، ولكن هذا التحدى يدفعهم للثورة حتى يجهروا بالعصيان، خاصة وأنهم قد سمحوا ببناء هياكل لآلهة أخرى مثل بتاح ومين وعشرات من الآلهة الأخرى.

وتلى بناء المعبد تحديات أخرى لآمون وكهنته أشرنا إليها من قبل، وفى وسط هذه الأحداث كان إخناتون يقود الحركة بنفسه، فهو مسئول عنها مسئولية شخصية، كما أنه مسئول كذلك عن تطور الأمور بعد ذلك، وليس لنا أن نشرك فى المسئولية فى هذه المرحلة أمه أو زوجته.

لم تكن عبادة الشمس، التى يعتبر آتون صورة من صورها، بجديدة على الشعب المصري، وبكلمات أخرى لم تكن حركة إخناتون انتقالاً مفاجئاً،وليست إلغاءً لعبادة قائمة وإحلالاً لعبادة جديدة، وإنما كانت هذه الحركة نتيجة لتطور بدأ على الأقل منذ عهد تحتمس الرابع بدت فيه محاولة إحياء عقيدة قديمة تتفق والوضع السياسي الجديد لمصر(٨٨).

فإذا كان ذلك كذلك، فما وجه الجدة فى المعتقد؟ وما قيمة إخناتون كمفكر ديني؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة تتلخص فى كون إخناتون ينفرد بأنه هو وحده الذى أدرك أن الوحدانية هى التى تحقق هذا الأمر، ويقول أحد علماء الآثار فى هذا المجال "يمكننا أن ندرك أن التفكير الديني فى المدة السابقة لحكم إخناتون كان يميل إلى الوحدانية، ولكنه كان من الضروري أن نتقدم فى هذه الناحية خطوة أو خطوتين لنصل إلى التوحيد الحقيقي، وهذا هو ما فعله إخناتون حين أكد بل قطع نهائياً بأن إله الشمس ليس الإله الأكبر والعالمي فحسب بل هو الإله الوحيد"(٨٩).

وبعد أن سار إخناتون شوطاً طويلاً فى عقيدته الجديدة، نراه يتخذ رمزاً لإلهه على هيئة قرص الشمس تنزل منه أشعة تنتهي بأيدي بشرية تمسك بعلامة الحياة، كأنما هى تهب الحياة للمتعبدين.

ومن العناصر البارزة فى هذه الدعوة الجديدة "ماعت" أى "الحق، العدل، فلسفة الحياة، منهج الحياة ...الخ"، فقد كان إخناتون وإلهه آتون يعيش على الحق، وكان ينطق على الوفاء المطلق لقرص الشمس والوفاء الصريح فى حياة الملك. وكان "للحق" أثر كبير على فنون عصر العمارنة، فنرى الفنان يتحرر من قواعد الفن القديمة، ومن تقاليده المتوارثة، فيصور الملك وأسرته فى أوضاع لم تكن معهوده من قبل، كمداعبة الملك لزوجته أمام الناس، وتقبيله لأولاده أو تصويره وهو يأكل بشراهة على إحدى موائد الطعام(٩٠).

لقد سجل إخناتون مضمون عقيدته فى نشيدين كان يتغنى بهما للإله آتون، وجدا منقوشين على جدران بعض مقابر تل العمارنة، مثل مقبرة آى فى منطقة الحاج قنديل جنوب تل العمارنة، والراجح أن الملك هو مؤلفهما، أو مؤلف أحدهما على الأقل.

وقد أثير الجدل حول صلة أناشيد إخناتون بالمزمور ١٠٤ من مزامير النبى داود عن هذا النشيد انظر ص ٢١٦ وما يليها، حيث أن كلاهما تضمن نفس المعانى والأفكار.

فعلى حين يرى البعض أنه ليس هناك تأثير من نشيد إخناتون على المزمور ١٠٤، وأن الأمر مجرد توارد خواطر، يرى البعض الآخر أن هناك بعض التأثير الذى عللوه باحتمال وصول النشيد إلى آسيا وبقاؤه فى آدابها تتناقله الأجيال حتى جاء الوقت الذى بدأ فيه العبرانيون كتابة التوراة فى القرن الثامن قبل الميلاد(٩١).

ولم يقدر لهذه العقيدة أن تستمر بعد وفاة صاحبها لأنها كانت مرتبطة بوجوده على اعتبار أنه كان الواسطة بين الإله والناس، فلم تأخذ الديانة الشعبية اللازمة لتحقيق استمراريتها.

ولم تكن العقيدة بقادرة وعلى الصمود أمام ضربات كهنة آمون وأمام الضربات الخارجية الناتجة عن انشغال ملك مصر بإلهه وإهماله لشئون الإمبراطورية.

ورغم أن كهنة آمون بذلوا كل الجهد بعد وفاة إخناتون لتحطيم آثاره وآثار إلهه آتون .. إلا أن هذه العقيدة ظلت باقية كصفحة ناصعة البياض فى تاريخ الفكر البشرى.

وقبل أن ننتقل إلى ملك آخر، نود أن نشير إلى عالة هذا الملك. تزوج إخناتون من الملكة نفرتيتي، وأنجب منها ست من البنات أشهرهن "مريت — آتون" و "عنخ — إس — أن — با — آتون". كانت حياة إخناتون ونفرتيتي تسير سيراً طبيعياً حتى العام الثانى عشر من حكمه، وهو العام الذى انتقلت فيه والدته "تى" إلى تل العمارنة، ولعل "تى" كانت تهدف بهذه الزيارة إلى تحذير ابنها مما هو مقدم عليه، وتبصيره بمظاهر انهيار الإمبراطورية المصرية[٩٢].

ومنذ وصول تى بدأ الشقاق بين إخناتون وزوجته نفرتيتي، ربما لأن الأم كانت قد نجحت فى إقناع ابنها بالتخفيف من غلواء دعوته الجديدة، وهو الأمر الذى لم ترض عنه نفرتيتي التى ربما كانت أكثر تشدداً من إخناتون للعقيدة الجديدة[٩٣].

وعلى أية حال فهما كانت أسباب الخلاف، فإن الفجوة بينهما قد وصلت إلى حد أن هجر كل منهما الآخر، فبقى إخناتون فى القصر الملكي وربما انتقلت نفرتيتي إلى قصر آخر فى تل العمارنة.

نشيد آتون

يمثل النشيد الذى ناجى به الملك إخناتون ربه آتون، أهمية خاصة من الناحيتين الدينية والأدبية. فمن الناحية الدينية، فقد ربط بعض الباحثين بين هذا النشيد وبين المزمور ١٠٤ من مزامير النبي داود من حيث تماثل بعض الجمل والمفردات فى كليهما وكذلك مضمون النشيد. وتصور البعض أن المزمور قد تأثر إلى حد كبر بالنشيد رغم الفترة الزمنية الطويلة التى تباعد بين الاثنين (إخناتون فى القرن ١٤ ق.م وداود عليه السلام فى القرن ١٠ ق.م).

على حين رأى البعض الآخر أن الأمر لا يعدو مجرد توارد خواطر، فكلاهما يناجى ربه ومن ثم يتفقان فى تعداد نعمه وأفضاله.

ومن الناحية الأدبية، فإن النشيد يمثل أدباً رفيعاً يمكن أن يضعه فى عداد روائع الأدب العالمي فى إطار المقاييس المعروفة من حيث البلاغة وسلامة اللغة وسلاسة التعبير.

ولقد نشر النشيد أكثر من مرة ولكنني اخترت الترجمة العربية التى أعـــدها أستاذنا المرحوم الدكتور أحمد فخرى الواردة فى كتابه مصر الفرعونية.

نص النشيد

أنت تطلع ببهاء فى أفق السماء،
يا أتون الحى، (يا) بداية الحياة،
عندما تبزغ فى الأفق الشرقى،
تملأ كل البلاد بجمالك،
أنت جميل، عظيم متلألئ، وعال فوق كل بلد،
وتحيط أشعتك بالأراضي كلها التى خلقتها،
لأنك أنت "رع" وتصل إلى نهايتها،
وتخضعها لأبنك المحبوب،
وبالرغم من أنك بعيد فإن أشعتك على الأرض،
وبالرغم من أنك أمام أعينهم فلا يعرف أحد خطوات سيرك.

* * *

وعندما تغرب فى الأفق الغربى،
تصبح الأرض سوداء كما لو كان حل بها الموت،
ينام (الناس) فى حجرة وقد لفوا رؤوسهم،
فلا ترى عين عيناً أخرى،
ويمكن أن تسرق أمتعتهم التى يضعونها تحت رءوسهم،
فلا يدركون ذلك،
ويخرج كل أسد من عرينه،
وجميع الزواحف (تخرج) لتلدغ،
ويلف الظلام كل شيء ويعم الأرض السكون،
لأن الذى خلقهم يرتاح فى أفقه،

وعندما يصبح الصباح، وتطلع أنت من الأفق،
وعندما تضئ كأتون أثناء النهار،
تطرد الظلمة وتمنح أشعتك،
فالأرضان فى عيد كل يوم،
ويستيقظ (الناس) ويقفون على الأقدام،
لأنك أنت الذى أيقظتهم

* * *

يغسلون أجسامهم ويلبسون ملابسهم،
ويرفعون أذرعهم ابتهالاً عند ظهورك،
والناس جميعاً يؤدون أعمالهم،
وتقنع كل الحيوانات بمراعيها،
وتزدهر الأشجار والنباتات،
والطيور التى تطير من أعشاشها،
(تمد) أجنحتها لتمدح قوتك،
وتقف الحيوانات على أرجلها،
وكل ما يطير أو يحط،
إنهم يعيشون لأنك أشرقت من أجلهم،
وتسير السفن نحو الشمال ونحو الجنوب،
لأن الطرق كلها مفتوحة عندما تظهر،
وتمرق الأسماك فى النهر أمامك، لأن أشعتك تتغلغل فى المحيط.

* * *

أيها الخالق لبذرة الحياة فى النساء،
إنك أنت الذى يجعل من البذرة السائلة إنساناً،
إنك أنت الذى يعنى بالطفل فى بطن أمه،

وأنت الذى يهدئه بما يوقف بكاءه،
لأنك تعنى به وهو فى الرحم،
أنت الذى يعطى النفس ليحفظ حياة كل من يخلقهم،
عندما يترل (الطفل) من بطن أمنه ليتنفس،
فى اليوم الذى يولد فيه،
تفتح فمه، وتمده بكل ما يحتاج إليه،
وعندما يصرخ (الكتكوت) وهو داخل البيضة،
فأنت الذى يمده بالنفس فى داخلها ليعيش،
وعندما تتم خلقه داخل البيضة، تجعله يكسرها،
ويخرج من البيضة وهو يصوصو إذا ما حان موعده،
ويمشى على رجليه عندما يخرج منها.

* * *

ما أعظم (أعمالك) التى عملتها،
إنها خافية على الناس،
أيها الإله الأوحد الذى لا شبيه له،
لقد خلقت الدنيا كما شئت،
عندما كنت وحدك،
الناس والماشية والوحوش الضارية،
وكل ما على الأرض يسعى على قدميه،
وكل ما يرتفع (فى السماء) يطير بجناحيه.

* * *

فى بلاد سورية والنوبة وأرض مصر،
تضع كل شىء فى مكانه،
إنك أنت الذى يمدهم بما يحتاجونه،

ويحصل كل شخص على طعامه، وسنوات حياته مقدرة له،
يختلف الناس فى لغاتهم،
كما يختلفون أيضاً فى طبائعهم،
ويمتاز لون جلودهم عن بعضهم البعض،
لأنك أنت الذى يميز أهل الأمم الأجنبية،
وأنت الذى خلقت نيلاً فى ذلك العالم الآخر،
وأنت الذى يأتي به عندما يشاء، لتبقى على الناس،
وذلك لأنك أنت الذى خلقتهم لأجل نفسك،
أنت سيدهم جميعاً، (سيدهم) الذى يشغل نفسه من أجلهم،
سيد كل أرض، الذى يشرق لأجلهم،
أنت آتون (شمس) النهار، عظيم البهاء.

* * *

أنت الذى يعطى الحياة (أيضاً) لكل البلاد الأجنبية البعيدة،
لأنك خلقت نيلاً فى السماء،
لينزل لجلهم ويحدث أمواجا فوق الجبال،
مثل (أمواج) البحر،
لتروى حقولهم التى فى قواهم،
ما أجمل أعمالك يا رب الأبدية،
فالنيل الذى فى السماء (خلقته) للأجانب،
ولكل حيوانات الصحراء التى تسعى على الأقدام،
أما النيل (الحقيقي) فإنه ينبع من العالم الآخر لأجل مصر،
تغذى أشعتك كل مرج،
وعندما تشرق، تحيا وتنمو لجلك،
وجعلت فصول السنة لتغذى كل ما خلقت،

فالشتاء يبرد أجسامهم،
والحرارة تجعلهم يحسون بك،
لقد خلقت السماء البعيدة لتشرق منها،
وحتى ترى كل ما صنعت،
وذلك عندما كنت وحيداً،
تشرق فى صورتك كآتون الحى،
لامعاً، مضيئاً فى جيئتك ورواحك،
جعلت ملايين الصور من نفسك وحدها،
(وسواء أكانت) مدنا أو بلاداً أو حقولاً، طريقاً أو نهراً،
فإن كل عين تراك فوقها مشرفاً،
لأنك آتون (شمس) النهار على الأرض،

* * *

أنت فى قلبى،
وليس هناك من يعرفك،
غير ابنك "نفر – خبرو – رع، وع – إن –رع"،
لأنك أنت الذى خلقته عالماً بمقاصدك و(مدركاً) لقوتك،
أنت الذى صنعت الدنيا بيديك،
وخلقت (الناس) كما شئت أن تصورهم،
فهم يحيون عندما تشرق،
ويموتون عندما تغرب،
إنك أنت الحياة بعينها،
ويعيش الإنسان (فقط) إذا أردت،
تعلق العيون بالجمال حتى تغيب،
ويترك الناس أعمالهم عندما تغرب فى الغرب،

ولكن عندما (تشرق) ثانية،
يزدهر كل شيء لأجل الملك،
لأنك أنت الذى خلقت الأرض،
وأنت الذى خلقتهم (أى الناس) لأجل ابنك،
الذى ولد من صلبك،
ملك الوجه القبلى والوجه البحرى، .. إخناتون،
وزوجة الملك العظيمة ... نفرتيتي،
عاشت ممتعة بالشباب، دائماً وإلى الأبد(٩٤).

* * *

تل العمارنة:

عندما أدرك إخناتون أنه لا إمكانية للاستمرار فى طيبة بعدما أظهر كهنة آمون العداء السافر لدعوته الجديدة، كان عليه أن يبحث عن موقع جديد ينتقل إليه ويدعو منه لإلهة آتون. وكان هذا المكان الذى استقر عليه الأمر هو "آخت آمون" أى "أفق آتون" وهو الذى تقوم على أطلاله قرى ثلاث هى تل العمارنة والحاج قنديل مركز ديرمواس بمحافظة المنيا والحوطة (مركز ديروط بمحافظة أسيوط). وضمت المدينة التى أمر إخناتون بتحديد حدودها بأربعة عشرة لوحة تعرف بلوحات الحدود، ضمنت معابد آتون والقصور الملكية والأحياء السكنية ومقابر رجال عصره والمقبرة الملكية.

وفى إطار فكره الدينى وفلسفة الحياة التى أعلن عنها وتبناها من خلال "ماعت" أطلت علينا اعمارة متميزة وفن فريد وإبراز للطبيعة وتحرر من قداسة الملكية وإظهار للحياة الخاصة. وكان الطوب اللبن هو مادة البناء الأساسية ربما حرصاً على الانتهاء من كل عناصر المدينة فى أسرع وقت ممكن. ومن العلامات البارزة فى حياة إخناتون زوجته نفرتيتي شريكته فى حياته وفى دعوته.

انهمك إخناتون فى ديانته والدعوة لها ونسى أمر الإمبراطورية المصرية وأنه لم يولى الحيثيين الاهتمام اللازم وفى هذه الأثناء كانت الأوضاع فى آسيا فى حالة

يرثى لها فقد استغل الحيثيون انشغال الملك بدينه الجديد وبدأوا يثيرون القلاقل ضد مصر فنجد أن ملك فارس استعاد سهل سوريا الشمالية واستولى ملك أمور على الموانى الفينيقية التى كان يحتلها المصريون، وقد عرفنا من خطابات تل العمارنة التى ذكرت من قبل تعطينا الفكرة الكاملة عما كان يحدث فى الإمبراطورية المصرية المنهارة، فقد حاول عازيرو أن يستولى على مدن الشاطئ بيّن صيدا وأوجاريت وكان "ريب أدى" يقاوم أعداء مصر وكتب ملك تونيب إلى إخناتون يرجوه أن يرسل إليهم بمساعدة وقال له "تونيب مدينتك تبكى وتسيل دموعها لأنها لا منقذ لها ولقد أرسلنا الرسائل ولا إجابة ولا كلمة واحدة" وأيضاً استجار "ريب أدى" وعبده خيبا ملك القدس يستجيروا وقالوا لعل الملك يرعى البلاد ويرسل القوات، وكتب إلى سكرتير إخناتون الملك يقول له "اشرح هذا إلى الملك بوضوح البلاد كلها عرضة للفناء وفى ذلك كان شعب الخابيرو تسلل إلى سوريا من الجنوب، وأرسل الأمراء الخطابات طالبين حماية الملك. وعلى الرغم من كل خطابات النجدة لم يتحرك إخناتون واكتفى بإيفاد مبعوث لبحث الموقف فى فينيقيا. يعنى أن موقف الإمبراطورية المصرية كان فى انهيار تام وإخناتون مشغول بمسئولياته الدينية إلى جانب أنه جعل فى البلاط كثيراً من الذين غرروا به وتركوه لقدره.

أما فى أواخر عهد إخناتون انفصلت نفرتيتي فى العام الثانى عشر ولكنها لم تترك آخت تون وبقيت بها منعزلة فى العام الرابع عشر على ما يبدو ويسود الغموض السنوات الثلاثة الخيرة من حكم إخناتون فإنه حاول أن يتقرب من كهنة آمون فى طيبة وأرسل إلى طيبة سمنخ كارع لكى يتفاوض مع كهنة آمون. ولا نعرف ما أدى إليه هذا التفاوض لأنه لم يظهر لنا حتى الآن ما يدل على التقارب فى وجهات النظر بين كهنة آمون والملك. وربما كانت الملكة الأم هى السبب فى هذا التقارب[٩٥].

وأخيراً توفى إخناتون فى السنة السابعة عشرة من حكمه وكان يبلغ من العمر تسع وعشرين أو ثلاثين عاماً أي بعد ثلاثة عشر عاماً من ثورته الدينية.

واعتقد بعض الأثريين انه قد دفن مع أمه تى فى وادي الملوك فى البر الغربي والآخر يعتقد أنه دفن فى مقبرته التى أعدها فى آخت آتون[٩٦].

وبعد موته انهارت دعوته الدينية وأصبحت مدينة آخت آتون كما كانت مدينة طاهرة أصبحت مدينة نجسة محرم دخولها وكان هناك عدة أسباب لسقوط هذه الديانة الجديدة من أهمها أن هذا الإله لم يكن له أية معابد تبشر بدعوته فى خارج تل العمارنة اللهم إلا مقصورة فى الدلتا ومقصورة فى بلاد النوبة[٩٧]. واعتكاف البلاط الملكي فى تل العمارنة.

والسبب الثانى كان تعارض هذه العبادة مع التكوينات الهيكلية للمجتمع إذا ظلت جماهير الشعب مرتبطة بالتقاليد الدينية القديمة حتى أنه اكتشف فى منازل العمال فى تل العمارنة عن ابتهالات لآمون.

والسبب الثالث أن الطبقات الفقيرة لم تعرف أسرار هذه الديانة التى كانت حكراً على الملك وعائلته.

السبب الرابع أن إخناتون كان يعتبر نفسه حلقة الوصل بين الإله ومريديه.

وذلك بعد وفاة إخناتون انتهت هذه الديانة كما انتهى إخناتون أى أنها كانت ديانة مرتبطة بالملك.

قضية الحكم المشترك بين إخناتون وسمنخ كارع
(١٣٣٦ – ١٣٣٢ ق . م)

من المعروف أن "إخناتون" قد أشرك معه على عرش الكنانة أخاه "سمنخ كارع"، بعد أن زوجه من ابنته الكبرى "مريت آتون" "Meryt-Aton"، وأعطى كلاً منهما أحد أسمى الملكة "نفرتيتي" (نفر، نفرو، آتون = Neferreferuaten)، فضلاً عن إظهار "مريت آتون" فى المكان الذي كانت تشغله أمها "نفرتيتي".

وهناك لوحة يظهر فيها الملكان – إخناتون وسمنخ كارع – جالسين فى مظهر مودة شديدة، ورغم أنه ليست هناك كتابة هيروغليفية بالخراطيش إلا أنهما بالتأكيد، إخناتون وسمنخ كارع، على أن الشك ما يزال قائماً فيما يتصل باشتراك فى الحكم بين الملكين، مادامت ليست هناك تواريخ مزدوجة، وما دمنا لا نقبل – كوسيلة لإثبات الحكم الثنائى – تلك القطع المتناثرة، التى تظهر فيها رأسان ملكيان جنباً إلى جنب، ويختلف الواحد منهما عن الأخر فى تفاصيل صغيرة.

هذا وهناك من الباحثين من يذهب إلى أن "سمنخ كارع" (Smenkh – Ka-Ra)، أنما كان قد خلف حميه إخناتون لفترة قصيرة، معتمدين فى ذلك على عدة أدلة، منها (أولاً) أنه على الرغم من عدم وجوه تواريخ مزدوجة، فإن النقش الذى يظهر فيه إخناتون مع زوجته "نفرتيتي" فى مقبرة بالعمارنة، وهما يكافئان صاحب المقبرة بالذهب، قد استبدلت خراطيشهما، بخراطيش "سمنخ كارع" (Smenkh – Ka-Ra) وزوجته "مريت آتون" "Meryt-Aton"، مما ينهض دليلاً على أن الملك الكبر سناً مات قبل أن يهجر شريكه الأصغر العمارنة إلى طيبة[٩٨].

ومنهما (ثانياً) أن بعض الباحثين أنما يعتبر الكتابة الهيراطيقية – والتى تؤرخ بالعام الثالث من حكم سمنخ كارع – دون أن تحمل أى تاريخ ثان بالنسبة لبدء حكم إخناتون، إنما هي دليل واضح على وجود حكم مستقل للملك "سمنخ كارع"، صحيح أن هناك نصوصاً يكتب فيها اسم "سمنخ كارع" مع "إخناتون"،

إلا أن هذه يمكن تفسيرها على أنها تصور الملك الجديد مع سلفه المتوفى، وهى فكرة شاعرية كانت شائعة فى دفن العمارنة، هذا فضلاً عن أن هناك عدداً أكبر من النقوش – وإن كانت على أشياء صغيرة – يظهر فيها اسم "سمنخ كارع" وحده[٩٩].

ومنها (ثالث) تلك الرسوم التى يظهر فيها "سمنخ كارع" مع زوجه "مريت آتون"، كملك وملكة، فى واحدة من أخريات ما بنى من مقابر العمارنة لكاتب الفرعون، وأحد رجالات بلاطه المدعو "مري رع الثانى"، ذلك أننا نرى فى الجهة الجنوبية للردهة منظراً يظهر فيه "إخناتون" مع زوجه "نفرتيتي" وخمسة من بناتهما، وهم يكافئون صاحب المقبرة، بينما يرى فى الجهة الشرقية، المنظر الكبير لاحتفالات استلام الجزية، هذا إلى جانب منظر الحائط الشمالى، قد رسم بطريقة مختلفة إلى حد كبير، حيث يظهر "سمنخ كارع" و"مريت آتون" وحدهما، وهما يكافئان "مرى رع"، وعلى الرغم من أن خراطيشهما غير واضحة الآن، فأنهما كانت يوماً ما تبرز اسميهما بوضوح، وربما كان ذلك يعنى أن حفر وزخرفة المقبرة، إنما قد بدأ من الإمام إلى الخلف، وأن إخناتون أنما كان قد انتقل إلى العالم الأخر أبان ذلك،ومن ثم فإنه رسم للمرة الخيرة وهو على قيد الحياة، على الحائط الشرقي[١٠٠].

هذا ويذهب فريق أخر من الباحثين إلى أن "سمنخ كارع"، لم يقدر له أبداً أن يحكم بمفرده، دون أن يشاركه إخناتون فى هذا الحكم، وأنه مات – وربما خلع – فى نفس الفترة التى مات فيها "إخناتون" فى عام ١٣٥٠ ق.م[١٠١].

وأما أدلة هذا الفريق من العلماء، فمنها (أولاً) عدم وجود ذكر لـ"سمنخ كارع" فى رسائل العمارنة، بينما جاء ذكر زوجه "مريت آتون" فى ثلاثة رسائل على الأقل، ومن ثم فإن هذه الرسائل إن كانت فيما يبدو – إخناتون – وليس لسمنخ كارع – فإذا كان ذلك الأخير (أى سمنخ كارع متزوجاً من "مريت آتون"، وجالساً على العرش المصري، فربما كان ذلك دليلاً على اشتراكه فى الحكم

مع "إخناتون" — ولو لفترة ما — غير أنه يمكن الرد على ذلك بأن سجل العمارنة غير كامل، ومن ثم فربما كانت هناك رسائل قد أرسلت إلى "سمنخ كارع"، وإنها قد فقدت، أو نقلت إلى طيبة عندما هاجر القوم العمارنة[١٠٢].

ومنها (ثانياً) تلك الإشارة إلى منازل "سمنخ كارع" فى العمارنة، على بطاقة مؤرخة بالسنة الأولى من حكم ملك لم يذكر، فهل يمكن تبرير وجود منزل لـ"سمنخ كارع"، ومنزل لـ"عنخ خبر ورع". وهو اسم سمنخ كارع كذلك)، على أن "سمنخ كارع" إنما كان قد مات وقت كتابة تلك البطاقة.

وانطلاقاً من هذا، فإن السنة الأولى المذكورة في البطاقة، إنما تعني السنة الأولى من الحكم "إخناتون" ولما كان من المعروف أن هناك بطاقة هيراطيقية كتبت في السنة السابعة عشرة من حكم إخناتون، ثم حورت إلى السنة الأولى، مما يدل على أن موت إخناتون تبع إغلاق ذلك الإناء بفترة وجيزة، الأمر الذى دعا الكاتب بعد تفكير إلى تغيير السنة، لتصبح السنة الأولى لحكم الملك الذي تلاه — أى "توت عنخ آمون" — ومن ثم فإن "سمنخ كارع"، إن كان مات فى السنة الأولى من حكم "توت عنخ آمون" (Tut- Ankh-Amun)، وإذا كانت تلك السنة، قد تبعت السنة ١٧ من حكم إخناتون مباشرةً، فإن ذلك يعني أن "سمنخ كارع" لم يتمتع بأي حكم منفرد على الإطلاق.

ومنها (ثالثاً) أن اللقب — "نفر — نفرو — أتون"، المحبوب من رع ان رع"، الذى يثبت مدى إعزاز "إخناتون" لـ"سمنخ كارع"، إنما قد استعمله الأخير فى كل كتاباته، وهو موجود كذلك فى نقش السنة الثالثة — أعلى تقدير لسني حكمه — مما يشير إلى أن إخناتون إنما كان حياً يرزق، طوال فترة حكم "سمنخ كارع"[١٠٣].

ومنها (رابعاً) أن هناك من ذهب إلى أن "سمنخ كارع" أن ما دام قد استطاع بناء معبد لآمون فى طيبة فى السنة الثالثة من حكمه، فلابد أنه قد ترك عبادة أتون، وهجر العمارنة، ومن الصعب أن نتصور أن "توت عنخ آمون" — قد

ولى الحكم صبياً – كان بقادر على أن يوقف الردة التي كانت قد بدأت فعلاً، وأن يعود إلى العمارنة، وأن يدافع عن "آتون" لمدة عامين، أو ثلاث، قبل أن يستسلم نهائياً، ومن ثم فلابد أن "سمنخ كارع" كان يحكم حكماً ثنائياً مع والد زوجته (أى إخناتون)، وبالتالي فإن "توت عنخ آمون"، إنما يكون قد جلس على عرش الكنانة بعد "إخناتون" مباشرة(١٠٤).

على أن هذا الإدعاء، إنما يقوم على افتراض أن وجود معبد فى طيبة بناه "سمنخ كارع"، إنما يثبت أمرين، أولهما: أن "سمنخ كارع" قد ترك العمارنة وأقام فى طيبة، وثانيهما : أنه ترك عبادة آتون كلية، وفى الواقع فإنه ليس هناك دليل على الإدعاء الأول، ذلك لأن ملوك العمارنة، رغم أنهم كانوا يقيمون فى العمارنة، فإنهم كانوا – فى نفس الوقت – يتحركون بحرية تامة فى كل أنحاء مصر، ويقيمون المعابد أينما شاءوا، متى شاءوا، ومن ثم فمجرد بناء "سمنخ كارع" معبداً للإله آمون في طيبة، لا يدل على أنه ترك العمارنة.

واما القول بأن بناء معبد لآمون في طيبة يعني أن "سمنخ كارع" قد ترك عبادة "آتون" كلية، فأمر ليس له أساس من الصحة، ربما يدل على بعض الضعف للآتونية فى السنوات الأخيرة لإخناتون، وخلال عهد "سمنخ كارع"، وحتى الفترة المبكرة من عهد "توت عنخ آمون"، كما أنه ليس من المحتمل أن "توت عنخ آمون" استطاع أن يثبت نفسه فى العمارنة – بمساعدة الملكة "نفرتيتي"، وكذا "آى" على الرغم من أن "سمنخ كارع"، الذي كان يحكم وقت ذاك. وإنما كان الأمر، فالذي لاشك فيه إن "سمنخ كارع" قد شارك أخاه "إخناتون" فى الحكم حينا من الدهر، وأنه قد بدا هذه المشاركة في "إخيتاتون" – وليس قي طيبة – كما يؤيد ذلك قاعة التتويج التي شيدت من أجله فى جنوب قصر "إخناتون" الكبير، وعند هذا نلقى اسما تتويجياً، هو "عنخ خبرو رع".

وهناك ما يشير إلى أن "سمنخ كارع" قد هجر العمارنة إلى طيبة، بدليل أن هناك كتابة هيراطيقية – ترجع إلى السنة الثالثة، وهى أعلى تاريخ له، بل والتاريخ الوحيد له فى الواقع – وجدت فى القرنة، ويشار فيها إلى المدعو "بواح"، وهو

كاتب قرابين في قصر : عنخ خبرو رع" (Ankhkheprure) – أي سمنخ كارع– في طيبة، وقد تناول النص – على أية حال – أنشودة للإله القديم (آمـون رع)، ومن هنا يتضح أن صهر إخناتون كان أول من تخلى عن عبـادة آتـون، وقـام بمجهودات كبيرة لمصالحة آمون، وإعادة آتون، بينما ظل أخوه الأكبر في العمارنـة بارًّا بيمينه الذي أقسمه يوم وضع حدود مدينة العمارنة، غير أن هناك من يرى – كما أشرنا من قبل – أن بناء "سمنخ كارع" معبداً للإله آمون في طيبـة، لا يعـني بالضرورة أنه ترك عبادة آتون، وربما يشير ذلك فحسب إلى ضعف الأتونية، ومن ثم إقامته في طيبة – إن كان قد بُعث إليها فعلاً – لم تحمله علـى التخلـي عـن تقديسه لآتون، ذلك لأن "سمنخ كارع" إنما قد استمر فى حمل لقب "نفر – نفرو، آتون، المحبوب من رع أن رع"(١٠٥).

ومن ثم فإن هذه الزيارة – فيما يرى البعض – أنما هي محاولة يائسة مـن الحاكمين الشريكين في العمارنة، للتقرب من كهانة آمون، وهكـذا فقـد أوفـد إخناتون "سمنخ كارع" وزوجته "مريت آتون" إلى طيبة لتهدئة الحالة هناك، ولعلها توجها إليها تحت ضغط من الملكة "تي" – كمندوبين المملك – بل ربمـا كـان الاشتراك في الحكم بين إخناتون وسمنخ كارع، لم يكن سوى وسيلة لتغطية موقف إخناتون، الذي أقسم إلا يترك عاصمته الجديدة طالما هو على قيد الحياة، وربما أن صحته قد ساءت، بحيث لم تمكنه من الذهاب إلى طيبة والتفـاهم مـع أعدائـه، واعتقدت "تي" بأن الشريك الصغير سوف يعمل على إنقاذ الدولـة مـن الهـوة السحيقة التي تردت فيها، ولم يكن الخطر فقط في الانقسامات المذهبية، بل كذلك فى الثورات التي تفشت في المستعمرات المصرية في آسيا، وكادت أن تقضى علـى إمبراطورية مصر هناك، وإن كان هناك من يرى أن هذه الزيارة لم تكن إلا مجـرد إجراء شعائري بسبب أصل "سمنخ كارع" نفسه، الذي تمسك بحقه الـشرعي فى العرش في مواجهة "توت عنخ آتون"(١٠٦).

وعلى أى حال، فلقد سبقت نهاية "سمنخ كارع" مـوت "إخنـاتون" – أو أعقبته بفترة قصيرة – وإن كان من المرجح أن زوجته "مريت آتون" قد سـبقته

إلى العالم الآخر، وهناك – أخيراً – احتمال طفيف لإمكان الحصول على مؤمياء الملك الصغير.

وفاة إخناتون:

كانت السحب العاصفة منذ حين من الدهر حول شخص "إخناتون" – المصلح السيء الحظ – ولسنا نعرف على وجه اليقين كيف انتهت حياة الرجل العظيم، ولا المكان الذي مات فيه، بل حتى لا يستطيع أحد في الوقت الحاضر أن يبت برأى حاسم في هذا الشأن لانعدام الأدلة والبراهين، وكل ما يمكننا قوله الآن أن "إخناتون" إنما قد نجا من مؤامرة دبرت ضده، بفضل يقظة رئيس شرطته "ماحو".

وعلى أى حال، فإن آخر ما لدينا من عهد الداعية العظيم، أنما هي أختام جرار من العاصمة "آخت – آتون" (العمارنة)، ترجع إلى العام السابع عشر من الحكم، وربما تشير إلى أنه مات قبل جمع محصول العنب من العام السابع عشر، وإن كان هناك من يرجح أنه مات في العام الحادي والعشرين من الحكم.

وهناك ما يصلح أساس للقول، بأن أمله في أن يدفن فى مقبرته الفسيحة في العمارنة التي كان قد صممها لنفسه ولأسرته لم يتحقق، وقد وجدت الأجزاء المكسورة لأربعة توابيت من الجرانيت الأحمر طريقها من المنطقة إلى متحف القاهرة، وهكذا لم يستطع الرجل العظيم أن يفي بالعهد الذي قطعه على نفسه، والذي قال فيه: أنه ليس هناك شيء – حتى الموت نفسه – بقادر على إبعاده عن مدينته "أخت أتون"، ولا أن تجهز له مقبرة فى خارج "إخيتاتون" (Akhetaten).

وقد استطاع "جون بندلبوى" (١٩٠٤ – ١٩٤١م) أن يستخرج من الأرض أجزاء من صندوق الأحشاء المرمري للملك "إخناتون" وهو يقرر فى صراحة أنه لم يستخدم، ذلك لأن بقايا المادة الراتنجية السوداء، التى نراها في المقابر الملكية الأخرى، لم تلطخه أبداً، ومن الواضح أن أيدي انتقام الحريصين على التقاليد القديمة لم تكف عن العمل.

وفى عام ١٩٠٧م، عثر "تيودور ديفز" (١٨٣٧ – ١٩١٥م) مصادفة في وادي الملوك بطيبة الغربية، على مقبرة (رقم ٥٥) خربت بعنف، وبعد الاكتشاف مباشرةً – وبعد فترة سريعة – نسبت المقبرة إلى الملكة "تى"، اعتماداً على العثور على بقايا هيكل مزار كبير مغطى بالذهب، تشير النقوش التي عليه إن إخناتون قد صنعه من أجل أمه، ولكن هناك كذلك تابوت مشوه جداً ومرمم، يحوى مومياء قدر العالم الفسيولوجي الكبير "اليوت سمث" أنها لرجل، يبدو أنه لم يتجاوز الخامسة والعشرين، وأن بها علامات استسقاء دماغي أكيدة، ثم كان ظهور لقب "إخناتون" على التابوت دلالة صريحة، على أن شاغله ليس سوى "إخناتون" نفسه(١٠٧).

وفى عام ١٩١٦م، استطاع "دارسي" أن يقدم دليلاً مؤداه أن شاغل التابوت الأول أنما كان امرأة، يظن أنها "تى" وأنه تصلح فيما بعد لتحفظ به بقايا الملك، غير أن هناك من يذهب الآن إلى أن التابوت أنما كان للأميرة "مريت آتون" كبرى بنات إخناتون، قبل أن تتزوج من "سمنخ كارع" وقد استخدمت الأوعية الكانوبية التي كانت مخصصة في بادئ الأمر للأميرة لصالح الملك، ومن ثم أضيف على مقدمة الشعر المستعار "الثعبان الفرعوني"، وعدل التابوت بحيث يلائم شخصية صاحبه الجديد، وهو فيما يرى دارسى "توت عنخ آمون"(١٠٨).

غير أن الأمر لم يستقر عند هذا الحد، ربما بسبب النقوش، وكذا بسبب ما بقى من المقبرة من أمتعة ذات عناصر غريبة، وكلها لم تستطع أن تتيح الكشف عن اسم آخر أصحاب هذا القبر على وجه اليقين، ومن ثم فقد بدأ "ركس انجلباك" فى عام ١٩٤٠م مناقشة الأمر من جديد، وكانت مقبرة "توت عنخ آمون" قد تم الكشف عنها في الرابع من نوفمبر عام ١٩٢٢م وهكذا كان المرشح ليكون شاغل التابوت هو "سمنخ كارع"(١٠٩).

وتذهب "كريستيان نوبلكور" إلى أننا نستطيع أن نبرهن على أن المومياء أنما كانت "سمنخ كارع"، ذلك أن وضع الذراعين يجعل له هيئة مومياء امرأة

ملكية، فالذراع اليسرى مثنية على الصدر، واليمنى مستقيمة على طول الجسم، وإنا لنذكر في هذا الصدد كل ما كان من شأنه أن يصدد علماء الآثار الأوائل من ناحية الخصائص وموقف "سمنخ كارع"، وربما كان هذا يعبر ببساطة عن اهتمام إخناتون، بأن يمنح "سمنخ كارع" المكان الرمزي الذي كانت تحتله "نفرتيتي". وقام "درى" بعد ذلك، فإعادة فحص الهيكل العظمى الذي اعتبر منذ قرار "اليوت سمث" أنه للملك "إخناتون"ن وكان من رأيه أن الجثة خالية من أى أثر للاستسقاء الدماغي، ولكن الجمجمة — وهي مفرطحة مثل جمجمة توت عنخ آمون — ليست لإخناتون، وإنما هي لشاب أصغر منه سناً، لا يكاد يبلغ الثالثة والعشرين من العمر، وعلى هذا فقد، دعم "درى" فكرة بعض علماء الآثار الذين يعتقدون أن المومياء إنما هي مومياء "سمنخ كارع" أخى "توت عنخ آمون"(١١٠).

غير أن الأمر سرعان ما أعيد للمناقشة مرة أخرى فى عام ١٩٤٧م، واتجه بعض الباحثين من جديد — استناداً إلى حجج تكميلية — إلى أن هذه المومياء إنما هي جثة إخناتون، ومع ذلك فلم تزل الآراء متفرقة، والعلماء ما يزالون مختلفين فى الأمر، ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا، إلى أن تابوت "الأنثى" — والذي ظن البعض أنه للأميرة "مريت آتون" — أنما كان قد جهز ليناسب "إخناتون" نفسه، بدليل وجود قطعة من البرونز تحمل لقبه فى صورته الخيرة، وليس من شك فى أن هذه قد أضيفت إلى الجبهة فيما بعد، ويعدل هذا من الأهمية كدليل الأربع قطع من الطوب السحرية التي عثر عليها في القبر فى أماكنها الصحيحة وعليها كذلك خرطوش إخناتون، ولا يستطيع تفسير وجودها إلا بأن المقصود منها أن تؤدى وظيفتها الحقيقية، إلا وهي حماية الملك من الأرواح الشريرة.

وانطلاقاً من هذا كله يؤكد "سير الن هندرسون جاردنر" (١٨٧٩ — ١٩٦٣م) أن أولئك الذين جهزوا أمر الدفن، أنما كانوا قد اعتقدوا — أن خطأ أو صواباً — أنهم أنما يقومون بدفن "إخناتون" نفسه، وهو افتراض معقول، أن يكون قلة من أتباعه الأوفياء قد استطاعوا أن يستنقذوا من مقبرة العمارنة — بقدر ما

وسعهم الجهد — أثاثاً جنزيا، نقلوه إلى طيبة، جاهدين في تجهيز دفنه تليق بالداعية العظيم، الذي يكنون له احتراماً ما بعده احترام، ولئن كان ما يقرره "درى" صحيحاً، فإنهم إنما قد جانبهم الصواب، حتى في هذا العمل الأخير الذي ينم عن ولاء كبير، ومن ثم فيمكن تقبل الرأي الذي يذهب إلى أن جسد إخناتون أنما قد مزق إلى أشلاء وألقي به إلى الكلاب.

على أن هناك أراء أخرى تذهب إلى إخناتون إنما قد مات فى العمارنة وأن "توت عنخ آمون" قد دفنه فى مقبرته التى أعدها لنفسه فى الصحراء، شرقى "أخيتاتون" ووضع الجسد الملكي في تابوت فخم مغشى بالذهب، نقرأ على غطائه — المصنوع من تغشية، من أحجار شبه كريمة، ومن عجينة من زجاج مختلف ألوانه— العبارات التالية: "المصطفى من آتون، ملك مصر العليا والسفلى، الذي يعيش في الحقيقة، ملك القطرين، إخناتون، الابن الجميل لآتون الحي، الذي يحيا اسمه إلى الأبد"[111].

وعلى أي حال، فما ينتهي القوم من تشييع الجنازة، ويرقد داعية التوحيد في مثواه الأخير، حتى قرر البلاط الملكي أن يهجر "أخت آتون"، وأن يعود إلى طيبة، وأن تتم ترضية مقبولة مع كهانة آمون، ولما كانت ذكرى "إخناتون" ما تزال بعد يحيطها الاحترام، و لم تبدأ بعد الهجمات المسعورة الشريرة التي لاحقته بعد ذلك، فقد رؤى أنه من الخير أخراج جثة الداعية العظيم من مقبرته، وإلحاقها بمثوى أسلافه العظام فى وادي الملوك بطيبة الغربية.

وهكذا تم نقل جثمان "إخناتون" إلى طيبة، حيث دفن هناك فى مقبرة صغيرة غير مزخرفة فى وادي الملوك، وقد شمل الأثاث الجنزى الذي وجد فيها، بعض الأدوات التي كانت مخصصة أساساً لأمه الملكة "تي"، ولابنته الكبرى "مريت آتون".

نفرتيتي بعد وفاة إخناتون

لاشك أن وفاة إخناتون كانت تجربة شديدة الحزن والأسى في مجتمع مغلق كمجتمع العمارنة. ولنا أن نتصور مظاهر هذا الحزن التي حلت بهذا المجتمع بالمقارنة بالمناظر المنقوشة على جدران المقبرة الملكية التي تصور لوعة وأحزان النائحين والنائحات.

وقد كان على نفرتيتي أن تتحمل أحزانها الخاصة، وأن تواجه المسئوليات الجسيمة التي ترتبت على موت الملك الذي اشتركت معه في الحكم بهذا الاشتراك القائم على التماسك والحب، وهو اشتراك لم يعرف له مثيل في التاريخ المصري القديم.

ومن البقايا القليلة التي عثر عليها من تابوت إخناتون بعد تحطيمه وتدميره في العصور القديمة، تبين ما يدل على أن نفرتيتي كانت مصورة على جوانب هذا التابوت كما لو كانت ملكة تحكم وحدها. وفى مثل هذه الحالة كان عليها بالفعل أن تقوم بشئون الدولة والحكم، وأن تحافظ على السلام المستقر فى الداخل، وأن تحافظ فى الوقت نفسه على استمرارية وتواصل توارث العرش بداخل الأسرة وذلك برعايتها لابن زوجها "توت عنخ آمون" منذ أن كان صبياً في الخامسة أو السادسة من عمره حتى وصل إلى سن البلوغ فزوجته من إحدى بناتها، حتى تكتمل له شرعية توارث العرش.

ولاشك أن نفرتيتي قد اكتسبت خبرة وتمرسا في إدارة شئون الدولة حين كانت مشتركة في الحكم مع زوجها في حياته. وبالرغم من توافر الأسباب لنشوب ثورة أو قلاقل في أعقاب موت "إخناتون" الذي جعل عبادة آتون رسمية للدولة بدلاً من عبادة أمون، فلا توجد آية دلائل أثرية أو تاريخية لحدوث ثورة أو قلاقل أو اضطرابات بعد رحيل إخناتون مباشرةً، ويبدو أن نفرتيتي كانت تعرف تماماً كيف يمسك بزمام الأمور، ومن المؤكد أنها كانت تعتمد في ذلك على مساعدة ومساندة بعض المخلصين من كبار رجال الدولة في العمارنة، وعلى رأسهم النبيل "آى" خصوصًا وأن هناك احتمالاً كبيراً لاعتباره من أقارب العائلة المالكة(١١٢).

نفرتيتي كفرعون

(١٣٣٦ - ١٣٣٣ ق.م)

وقد عثر على قطعتين من الحلي مصنوعتين من الذهب ضمن الكنوز التي عثر عليها بمقبرة "توت عنخ آمون". ومن الواضح أن تاريخ صنعهما يرجع إلى الشهور الأولى من خلافة نفرتيتي لإخناتون في حكم البلاد.

ونرى على وجه القطعة الأولى من هاتين القطعتين اسم "نفر نفرو آتون" مقروناً باسم الإله "آتون" الذي كتب بطريقة معكوسة ليواجه نقشاً لشخصية ملكية في أسفل الخرطوش الملكي الذي نقش بداخله الاسم. وقد رأينا من قبل أن هذه الطريقة المعكوسة في كتابة اسم الإله لم تحدث أبداً في كتابة اسم الإله إلا بالنسبة لاسم نفرتيتي أو صورها. وقد لوحظ أن هذا الشكل الملكي المحفور بداخل الخرطوش يمثل "فرعوناً" ذا لحية مستعارة (وهي رمز للفراعنة) كما يمسك بالصولجان الذي يعتبر رمزاً آخر من رموز الفراعنة.

أما قطعة الحلي الثانية فقد نقش عليها اسم "عنخ خبرو رع" وهو اللقب الشخصي الذي أطلقته "نفر نفرو آتون نفرتيتي" على نفسها مضافاً إليه اللقب الآخر وهو "المحبوبة من آتون" وهو اللقب الذي حل محل لقبها السابق "المحبوبة من إخناتون". وهذا دليل آخر على أن تاريخ قطعة الحلي يرجع إلى فترة مبكرة بعد وفاة "إخناتون" وقبل التتويج الفعلي لنفرتيتي باعتبارها ملكة حاكمة وقبل استخدامها لاسم التتويج الذي اختارته وهو "سمنخ كارع". ومن المعروف أن فترة إعداد الفرعون المتوفى للدفن تعتبر فترة طويلة نسبياً حيث يستغرق تحنيط الجثة نحو سبعين يوماً كما تجرى خلال هذه الفترة طقوس ومراسم وإجراءات تولية الفرعون الجديد الذي يخلف الفرعون المتوفى على العرش[١١٣].

وليس هناك أى أثر سجل عليه أى نص أو منظر يخص مراسم التتويج التي أجريت لتولى نفرتيتي عرش البلاد خلفاً لزوجها، فيما عدا العثور على بعض قوالب الطوب التي استخدمت في بناء ما اسماه علماء الآثار بقاعة التتويج، وهى قاعة كانت ذات تصميم خاص وتقع في الجانب الجنوبي من قصر الحكم الرئيسي وإن كانت غير متصلة بمباني هذه القصر.

ويقول "بندلبيرى" وفى وصف الآثار القليلة المتبقية من تلك القاعة، أنها كانت مبنية على عجل للاحتفال بمناسبة طارئة، وقد بنيت فيما يبدو خلال فترة إعداد جثمان إخناتون للدفن. والاسم الوحيد الذي عثر عليه منقوشاً على آثار القاعة هو اسم "عنخ خبرو رع" الذي كتب بطريقة التأنيث.

ومن المحتمل أن نفرتيتي قد عاشت وواصلت حياها بالقصر الذي كان إخناتون قد أعده لها في أقصى شمال وادي العمارنة، وهو قصر كان يحيط به سور يبلغ سمكه نحو ثلاثة أقدام.

وقد وجد اسم التتويج "سمنخ كارع" منقوشاً على بعض الكسرات من بقايا البوابة الاحتفالية للقاعة، كما وجد أيضاً اسم إخناتون واسم مريت آتون. وفى فترة الثلاثينات من القرن الماضى احتار "جون بندلبيرى" فى تفسير هذا اللغز وتساءل عن السر في اختفاء اسم نفرتيتي .. ولم يكن أحد يعلم فى تلك الفترة أن "سمنخ كارع" هو اسم التتويج لنفرتيتي. وقد وجد "بندليرى" اسم نفرتيتي مكتوباً على بعض أختام سدادات أوانى النبيذ، كما وجد سدادات أخرى مختومة بختم "بيت آتون"[١١٤].

وقد اعتبر بعض المستكشفين الأوائل هذا المبنى الضخم الذي أقيم خلف أسوار المدينة، بوابة تذكارية للمدخل الشمالي لمدينة العمارنة. كما ذكروا أن هذا المبنى قد تعرض للتدمير الشامل الذي تعرضت له بقية المنشآت الأخرى بالعمارنة. ولكن أنقاض هذا المبنى تساقطت فى مجرى سيول الأمطار الجارفة التي تتساقط فى تلك المنطقة فى بعض المواسم، كذلك فقد استخدمت تلك الأنقاض كمحاجر يأخذ منه الأهالي على مر العصور ما يحتاجونه من أحجار، كما أن قوالب الطوب الهشة التي استخدمت كنوع السماد اللازم لتخصيب الأراضي الزراعية التي زحفت إلى جزء كبير من الموقع الذى كان به هذا المبنى الذي شاهد السنوات الأخيرة من حكم نفرتيتي[١١٥].

توت عنخ آمون – نب خبرو رع

(١٣٣٢ – ١٣٢٣ ق.م)

لا يعرف على وجه التحديد نسبة هذا الفرعون أيضاً إلى الأسرة المالكة ويعتقد أنه كان أخاً لسمنخ كارع وربما كان ابناً لإخناتون؟ وأنه زوجه من الإبنه الثالثة له وهى "عنخ با أس ان أتون" التى كانت تبلغ من العمر حوالى تسعة أعوام أما "توت عنخ آمون" لقد كان عمره حوالى ١١ عاماً عندما تولى الملك.

ويحتمل أن هذا الملك قد حكم فى تل العمارنة ثلاثة سنوات وبعدها رحل إلى مدينة طيبة وغير اسمه إلى توت عنخ آمون كما غيرت زوجته اسمها إلى "عنخ با اس آن آمون". وعادوا إلى عبادة الإله القديم آمون وعادت الأمور إلى ما كانت عليه قبل عصر إخناتون وانتصر كهنة آمون فى النهاية، ويعتقد أن العودة إلى عبادة آمون قد حدثت بتعويز من الأب الإلهى "آى" الذى كان يعتبر أهم شخصية فى البلاط الملكي، ونجد أن هناك مرسوم لإحياء العبادات السابقة وقد استفاض المرسوم فى الحديث عن الأوضاع المؤسفة التى تردت فيها البلاد بسبب ضلال إخناتون وقد وضع هذا المرسوم أسفل الصرح الثالث الذى شيده أمنحتب الثالث. ويقول النص "إنه قد مرت على البلاد وعلى معابد المعبودات فترة عصيبة وأصبحت أفنيتها مثل الطرق يمر فيها كل الناس ولقد فزت منها المعبودات و لم تنصت لدعوات الداعين ... وحل الوهن بالبلاد نتيجة الاضطرابات وأهملت الطقوس للمعبودات .. ولكن جلالته أخذ يبحث عما يليق بآمون لكي ينقذه .. فأمر أن ينقش وزاد من أوقافهم".

بدأ الملك فى إقامة معبده الجنائزى فى منطقة هابو و لم يتبقى منه غير تمثال اغتصبته "حورمحب" لنفسه. كما أضاف المبانى والتماثيل فى معبد الكرنك والأقصر وقام بنقش صالة الأعمدة فى هذا المعبد باحتفالات عيد الأوبت (الفتح)، كما قام بإعادة بناء مركب الإله آمون وكساها بالذهب. كما أتم نحت أسد من الجرانيت فى صولب.

ويحتمل أن البدو قد تسربوا إلى الدلتا فى عصر سادت فيه الفوضى وربما قام الملك بنفسه على رأس حملة لتطهير الدلتا من هؤلاء البدو وهناك نقش يفيدنا

"بيوم القضاء على الآسيويين". ويبدو أن الملك الشاب قد طرد هؤلاء المتسللين. وقد صور على أحد جانبي صندوق من الصناديق التي عثر عليها في مقبرته مناظر لمعركة حربية(١١٦).

وتوفى الملك فجأة وهو شاب صغير ويحتمل أنه مات بعد أن حكم تسع سنوات. وبعد وفاته نجد أن أرملته قد أرسلت خطاب إلى ملك الحيثيين "شوبيلوليوما" تطلب أن يزوجها أحد أبنائه ليربط بذلك بين العرش المصري والحيثي. وأن زوجها مات دون أن ترزق بولد يجلس على العرش وفى نفس الوقت فإنها تربأ بنفسها من أن يتزوجها أحد رعاياها، وأرسل الملك بواحد من أبنائه ولكن هذه الحيلة قد اكتشفت فقتل هذا الابن قبل أن يصل إلى مصر(١١٧).

ذاعت شهرة هذا الملك أكثر من أى فرعون فى تاريخ مصر القديم مع أنه لم يكن له أى نشاطات عسكرية أو داخلية اللهم إلا إعادة عبادة آمون مرة أخرى. ولكن شهرته قد أتت بعد أن تم كشف مقبرته الوحيدة التي لم تسرق وذلك فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٢م عندما عثر كارتر على هذه المقبرة كاملة، وكانت هذه المقبرة قد ردمت تماماً عندما قام رمسيس السادس بحفر مقبرته فى أعلاها فأخفاها عن أعين اللصوص وقد عثر فى هذه المقبرة على آثار كثيرة تملأ الآن المتحف المصرى فقد عثر فى داخل التابوت الحجرى على ثلاث توابيت من الخشب المغطى بالذهب أما المومياء فقد كانت فى داخل تابوت ذهبي وقناع الملك الذهبي أيضاً ومعه ما يقرب من حوالى ١٤٣ حلية من الذهب، والتابوت الذهبي يبلغ وزنه ما يقرب ١١٠ كيلو جرام من الذهب الخالص، أما فى حجرة الدفن فقد عثر فيها على ما يقرب من ٤٥ ألف قطعة مرصعة، ومن بين الأثاث عثر على كرسى العرش الذى صور عليه الملك وأمامه زوجته تقدم له باقات الزهور وقد استخدم فى هذا المقعد الذهب والفضة والعتيق والقيشانى والزجاج الملون إلى جانب الخشب(١١٨).

وقد صور الملك على أحد الصناديق وهو يمارس رياضة الصيد ويحمل قوسه وسهامه لصيد الأوز البرى وأيضاً كان يخرج لصيد النعام.

مات هذا الرجل وبموته توضع نهاية أسرة أحمس الأول لأنه تولى من بعده ذلك العجوز آى الذى كان يطلق على نفسه الأب الإلهى[119].

اكتشاف مقبرة الملك توت عنخ آمون

لقد كان اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون من الأحداث الأثرية الهامة في القرن الماضي ففي الرابع من نوفمبر ١٩٢٢ أزيحت الأتربة عن الدرجة الأولى من الدرجات الست عشرة التى تؤدى لمقبرة الملك توت عنخ آمون فى جبانة طيبة (وادي الملوك) والتي حملت فيما بعد الرقم ٦٢ وظهرت بذلك للعالم أجمع أهم وأشهر مقبرة من مقابر ملوك مصر القديمة وأصبح الملك توت عنخ آمون من أشهر الملوك. أما مقبرته الصغيرة وغير المنقوشة فغدت المقبرة الأسطورة التي نسجت من حولها القصص والحكايات وباتت المادة الخصبة للأفلام والروايات وخاصة ما يتعلق فيها بلعنة الفراعنة وغيرها من الخرافات. وباكتشاف هذه المقبرة تم إغلاق ملف مقابر الملوك في وادي الملوك لتصبح المقبرة رقم ٦٢ آخر مقبرة يتم اكتشافها في الموقع.

وقصة اكتشاف المقبرة قصة شيقة تستحق أن تروي ففيها إصرار وعزيمة لتحقيق هذا الأمل ورغم ذلك فإن هذا الاكتشاف تم بمحض الصدفة فمكتشف المقبرة هوارد كارتر (١٨٧٤– ١٩٣٩) هو باحث في الآثار ورسام إنجليزي شهير، حضر إلى مصر سنة ١٨٩٩ وأصبح مفتشاً لآثار مصر العليا، واستطاع كارتر أن يقنع تيودور ديفر بالحفر في وادي الملوك وهي المنطقة التى كان متأكداً أنها تحوي العديد من الآثار والمقابر، فتم خلال أربع سنوات اكتشاف مقابر كل من تحتمس الرابع وحتشبسوت. وفى سنة ١٩٠٦ عثر ديفر على إناء من الفخار يحمل اسم توت عنخ آمون، أما في سنة ١٩٠٧ فقد عثر على غطاء صندوق وعليه صورة كل من توت عنخ آمون وزوجته والكاهن آى، وأصبح بادياً في الأفق وجود مقبرة الملك توت عنخ آمون الذي تذكره قوائم الملوك، وأصبح هدف كارتر هو العثور على هذه المقبرة وإن كان واثقاً أنها تعرضت للسرقة كغيرها من المقابر خاصة بعد العثور على بعض أثاثها الجنائزي مبعثراً فى وادي الملوك.

وفي هذا التوقيت حضر إلى مصر اللورد كـارنرفون (١٨٦٦ – ١٩٢٣) وهو لورد إنجليزى ثرى، كان مهتماً بتربية الخيول وشراء السيارات ويعشق الصيد والسفر ولكنه أصيب فى حادث سيارة، ونصحه الأطباء بقضاء شهور الـشتاء في مصر للعلاج فى رمال أسوان الجافة، وحضر كارنرفون إلي مـصر عـام ١٩٠٣ وارتبط بها وأصبح عاشقاً لآثارها، وعندما تعرف على كارتر عرض عليـه تمويـل الحفائر وكان كارتر في ذلك الوقت معرضاً لإيقاف أعمال الحفر لأنها طالـت ولم يؤد إلى نتيجة تذكر وفعلاً بدأ كارتر الحفر في وادي الملوك من ١٩١٢ إلى ١٩٢٢ هي سنة اكتشاف المقبرة أي لمدة عشر سنوات بتمويل من لورد كارنرفون الـذي كانت شروطه واضحة وتتلخص في إعلان اسمه مع الاكتشاف إن تم وعدم دخول المقبرة إلا فى وجوده فى حالة اكتشافها.

وأثناء هذه الفترة ركز كارتر فى حفائره على جميع مناطق وادي الملـوك ولكنه في النهاية استطاع تحديد منطقة البحث فى المثلث الذى تقع زواياه الـثلاث عند مقابر كل من رمسيس الثانى، مرنبتاح ورمسيس السادس، وقد تطلبت هـذه الحفائر الكثير من الأموال التى وصلت إلى مليون فرنك سويـسرى دون طائـل. وعندما أوشك كارنرفون أن يفقد حماسه فى العثور على المقبرة حدثت المعجزة.

ففى اليوم الرابع من نوفمبر ١٩٢٢ قام شاب من الذين يحملـون المـاء للعمال بمحاولة لتقليدهم فيما يقومون به بأن ابتعد عن المثلث الذي يحفرون فيـه وقام بالحفر ليتم العثور على أولى درجات سلم المقبرة وعندها تم أخطـار كـارتر الذي تولى الحفر فى المنطقة الجديدة واستمر العمل لمدة يومين للوصول عـبر سـتة عشر درجة إلى الباب الأول، وهو عبارة عن جدار مغلق وتعلوه أختام الإله أنوبيس وهو يعلو أعداء مصر التقليديين بجانب اسم الملك توت عنخ آمون، وهذا الختم هو الختم الخاص بشرطة الأسرة التاسعة عشر، وهنا أيقن كارتر أن هذه المقبرة تعرضت لمحاولة سرقة وأن الشرطة استطاعت الحفاظ على المقبرة وإغلاقها مرة أخرى إلى أن جاءت الرمال المتخلفة عن حفر مقبرة رمسيس السادس لتغطي موقع المقبرة تماماً وتحافظ عليها من السرقة حتى جاءت معاول كارتر فى عام ١٩٢٢.

وعندما وصل كارتر إلى الباب الأول قام بتصويره ثم هدمه فوجد أمامه ممراً طويلاً وعندها أيقن أنه أمام مقبرة توت عنخ آمون قام بتشييد باب خشبي مكان الجدار الأول وعين عليه حراسة دائمة، ولأن الجو كان في مصر وقتها شديد الحرارة فإن كارنوفون لم يكن قد حضر إلى مصر بعد فبعث إليه كارتر ببرقية يخبره فيها بالاكتشاف الكبير ويطلب منه الحضور على وجه السرعة لافتتاح المقبرة واستطاع كارنرفون الوصول مع ابنته ليدي إيفيلين إلى الإسكندرية يوم ٢٠ نوفمبر حيث استقبلهم كارتر وأصطحبهم إلى الأقصر، وفى الرابع والعشرين من نفس الشهر تم فتح المقبرة من جديد حيث تطلب الأمر يومان لإعادة تنظيف درجات السلم وفتح الباب الخشبي وكان ذلك فى حضور وكالات الأنباء العالمية وكافة مراسلى الصحف العربية والأجنبية، وكان الاكتشاف الرسمي يوم ٢٩ نوفمبر عام ١٩٢٢ .

ويختلف تخطيط المقبرة عن بقية المقابر، فهى مقبرة صغيرة خالية من الممرات التى تزيد فى عمق المقبرة مما جعل علماء الآثار ينسبونها إلى الملك آي ولكنها استخدمت كمقبرة لتوت عنخ آمون بسبب موته المفاجئ.

أما مقبرة توت عنخ آمون الأصلية فهي رقم ٢٣ التي أصبحت مقبرة الكاهن آي فيما بعد. أما بالنسبة للنقوش، فالمقبرة خالية منها تماماً بينما نجد غرفة واحدة وهي الغرفة الجنائزية تحتوي على بعض مناظر مصورة أي مرسومة يغلب عليها الفن الآتوني المميز لفترة العمارنة بالنسبة لنسب الجسم وطريقة تمثيل الملوك والآلهة.

وبالعودة لاكتشاف المقبرة فإننا نجد أن الباب الأول الذي كانت تعلوه أختام الشرطة واسم الملك توت عنخ آمون وتم هدمه، نجده يؤدي إلى ممر منحدر بطول ثمانية أمتار والذي يؤدي بدوره إلى جدار آخر أو باب ثاني تعلوه أختام الشرطة كذلك، وعندما قام كارتر بتصوير باب الغرفة وقام بفتح فتحة صغيرة فيه ومرر منها عصا من الحديد فوجد أنها تتحرك فى الفراغ فعرف أن ذلك الباب يخفي

وراءه الغرفة الأولى من غرف المقبرة والتي تتصل بغرفة أخرى من خلال باب ثالث تعلوه الأختام، كذلك ويوجد فى الجهة الغربية. أما الجهة الشمالية فلاحظ كـــارتر وجود تمثالين من الخشب المطلي باللون الأسود بالحجم الطبيعي أمام جدار رابـــع وعندما قام بفتح فتحة صغيرة فيه إهتز ضوء الشمعة التي كان يمـــسكها فى يـــده وعندما سأله كارنفون عما يراه أجاب بصوت مبهور إجابته الـــشهرة: "أنـــا أرى أشياء رائعة، جبالاً من الذهب "وكانت هذه هي الغرفة الجنائزيـــة الـــتى لم يـــتم الدخول إليها إلا يوم ١٩٢٣/٢/١٧. ومنها تم الوصول إلى آخر غرف المقبرة وهي غرفة الكنز التى كانت متصلة بالغرفة الجنائزية من خلال فتحة وليس باب مغلـــق حيث أنها تحتوي على أواني الأحشاء التي لا يجب أن تنفصل عن مومياء المتوفى.

ولقد لفت أنظار مكتشفوا المقبرة أن غرفتين من غرف المقـــبرة كانتـــا فى حالة يرثى لها من الفوضى مما يعنى أنها كانت هدفاً للصوص الذين دخلوها مـــرتين إحداهما لسرقة الذهب والحلي والجواهر التي كانت موجودة بها وثانيهما للعطـــور والزيوت العطرية. أما الغرفتين الأخريين فلم يصل إليهما اللصوص لحـــسن الحـــظ وهما الغرفة الجنائزية وبها المومياء والغرفة التى يطلق عليها غرفة الكنز.

ولقد استغرقت عمليات إخراج ما تحتويه المقبرة من أثاث جنائزي وفكـــه وأعاده تركيبة خارجها واستخراج ما تحتويه غرف المقبرة من آثار وتنظيف التماثيل والصناديق وتعبئتها لنقلها إلى المتحف المصري استغرقت حوالى عشر سنوات. ولقد قام بهذه العملية هوارد كارتر بمساعدة فريق من متحف المتروبوليتان فى نيويورك.

أما محتويات المقبرة فكانت رائعة ومبهرة لمكتشفيها فالحجرة الأولى ضمت العديد من الآثار الرائعة : الأسرة الجنائزية، العربات الحربية والخاصة بالمناســـبات، الصناديق التى أفرغت من محتوياتها وأصبحت ملقاة على الأرض أحياناً بدون غطاء، علب بيضاء تحتوي على أنواع من اللحوم، أقواس، أوانى، تمثال أوشابتى واحـــد، باقة من الورد المجفف، مجموعة من الكراسي مختلفة الأشكال، تمثال صغير لتـــور عنخ آمون وتمثالين بالحجم الطبيعي يطلق عليهما تماثيل الكا أو الحرس وهما يقف أمام باب الغرفة الجنائزية.

أما الغرفة الإضافية فاحتوت على العصي، الدروع، الأسلحة، الـواني، المراكب، الأسرة، الصناديق، أواني من البوص، الألعاب، نوع من الكراسي مطلي باللون الأبيض وصندوق مليئ بأدوات الرياضة، ٢٦٣ أوشابتي ومصابيح. وكـان يغلب على هاتين الغرفتين الفوضى العارمة فلا شيء فى مكانـه حيـث تتـضح بصمات اللصوص الذين دخلوا مرتين إلى المقبرة.

أما غرفة الدفن فقد ضمت مومياء الملك التي ترقد في تابوتها داخل المقـبرة إلى يومنا هذا فى حالة سيئة حيث أن تحنيطها كان سريعاً كما أنها لم ترمم من قبل الكهنة كما فعلوا لبقية الملوك، وتعلو المومياء إثنتا عشر طبقـة وهـي بالترتيـب اللفائف الكتانية، اللفائف الجلدية، القناع الذهبي ووزنه ١١ كجم من الـذهب، تابوت من الذهب الخالص ١١٠ كجم، تابوتان من الخشب المطعـم بالأحجـار نصف الكريمة وعجينة الزجاج الملون، تابوت من الجرانيت والكوارتزيت، أربـع مقاصير خشبية مطلية بالذهب وهي بأحجام أصغر فأكبر، (الناموسـية). وهـذه الطبقات ترمز لساعات الليل الإثنتا عشر التي سيمر بها المتوفى فى رحلـة البعـث للحياة من جديد، وبين هذه الصناديق الضخمة وضعت المراوح وأواني الألبـستر التي تحوي العطور وبعض الأسلحة مثل الأقواس والسهام.

وترتبط الغرفة الجنائزية بالغرفة الأخيرة — وهي غرفة الكنز — بمدخل دون باب مغلق حيث أن الاتصال بين الغرفتين يجب أن يكون بلا حواجز، ويوجد بهذه الغرفة صندوق أواني الأحشاء الخشبية وبه الصندوق المصنوع من الألبستر الـذي يحوي بدوره على الأربع توابيت الصغيرة والتي تحتوي بدورها على الأحـشاء إلى جانب مجموعة من نماذج المراكب الجنائزية الرمزية وتمثال الإله أنوبيس في وضـع حراسة للمقبرة ولأواني الأحشاء وصناديق الأحشاء وصناديق الأوشابتي التي تحتوي على ١٧٦ تمثال أوشابتي، وصناديق الأداوت الموسيقية إلى جانب الصناديق الـتى تحتوى على خمسة وثلاثين تمثالاً للملك توت عنخ آمون وتماثيل الآلهة[١٢٠].

الملك آى – خبر – خبرورع اير باعت
(١٣٢٣ – ١٣١٩ ق.م)

توفى توت عنخ آمون دون أن يترك أولاداً ذكوراً يتوجوا على عرش مصر وأصبح العرش خالياً لآى الذى كان كما يقولون أنه اتخذ هذا الحق فى ولايته للعرش من زواجه من زوجة توت عنخ آمون، وإن كان هذا الأمر من باب الافتراضات حيث أنه لم يوجد أى آثار لزوجة توت عنخ آمون بعد وفاة زوجها، وربما أنها قتلت بعد اكتشاف خيانتها، ولقد كان هذا الرجل جندياً وكان يشغل وظائف كبيرة فى سلاح المشاة وسلاح المركبات، وأصبح على رأس الجيش وبعد ذلك انخرط فى الوظائف الإدارية والكهنوتية ولقب بلقب الأب المقدس، وفى نصوص تل العمارنة كان لقبه المشرف على خيول جلالته، وربما أن الجيش هو الذى عاونه فى الوصول إلى العرش[١٢١].

وكانت فترة حكم هذا الملك قليلة فلم تتجاوز الأربع سنوات لذلك لم يكن لديه الوقت الكافى لإقامة مشروعات كبيرة فى مصر فقد أضاف بعض المبانى فى معبدى الكرنك والأقصر وتخصيص معبد صخرى للإله مين بأخميم وأعد لنفسه معبداً جنائزياً وقصراً فى منطقة مدينة هابو، وأنه زار منف فى العام الثالث من حكمه.

وربما أنه كان على وفاق مع قائد الجيش حورمحب لأننا نعرف أن حورمحب عندما تولى العرش محى أسماء آى من على الآثار وبعد موته دفن فى المقبرة رقم ٢٣ فى وادى الملوك الغربى[١٢٢].

حور محب مرى امن – جسر خبروع

(١٣١٩ – ١٢٩٢ ق.م)

بعد وفاة آى أصبح العرش خالياً ولم يوجد ما يتولى العرش إلا الرجل القوى فى هذه الفترة وهو قائد الجيش فى عصر الملك توت عنخ آمون وآى وهو حور محب.

ولقد كان لحور محب كقائد للجيش فى عصر توت عنخ آمون نشاطات خارجية فهو الذى قام بالمساعى الدبلوماسية فى بلاد النوبة، وهى التى كللت بالنجاح وكان من نتيجتها أن جاء أمير ميعام (عنيبة) فى بلاد النوبة إلى بلاط توت عنخ آمون وقد سجلت هذه الزيارة فى مقبرة أحد الموظفين فى عصر توت عنخ آمون، وهو "حوى" كما كان أيضاً مرافق للملك توت عنخ آمون فى إخماد إحدى الثورات التى كانت فى آسيا، فقد ادعى "حورمحب" أنه كان على رأس جيشه فى البلاد التى فى الشمال والتى فى الجنوب وأنه كان عند قدمي سيدة فى ساحة الحرب فى يوم قتل الآسيويين(١٢٣).

كان حور محب رجلاً من خاصة الشعب تولى العرش لعدم وجود وريث شرعي، ولكي يعطى نفسه الحق فى توليه العرش تزوج من "موت نجمت" ابنة الملك آى، كما ساعده أيضاً على بلوغ هدفه خبرته بأمور الحرب والإدارة منذ عصر إخناتون وكانت مصر تود أن ترى رجلاً حازماً بعد فترة طال فيها النزاع بين كهنة آمون والقصر، هذه الفترة التى سادت فيها الفوضى فى داخل البلاد وأيضاً انهيار جزء كبير من الإمبراطورية المصرة فى الخارج.

وقد ذكر تتويج حور محب وزوجته "موت نجمت" على تمثال من الجرانيت الأسود فى متحف تورين، وبعد أن تم تتويجه فى طيبة اتجه إلى منف، وأصدر أوامره بتطهير البلاد من اتباع إخناتون وأمر بهدم معابده ومقاصيره وإصلاح المعابد الأخرى، وقد تمتع "حورمحب" بحب كهنة آمون وأيضاً كان يتمتع بتأييد كهنة المذاهب الدينية الأخرى فى منف والأشمونين، وبعد توليته العرش نجده

قد أرح مدة حكمه من بعد عصر أمنحتب الثالث أى أنه محى كل الملوك الـذى حكموا بعد أمنحتب الثالث حتى عصره(١٢٤).

شيد حور محب فى بداية عصره قبراً فى جبانة سقارة عندما كان ضابطاً فى الجيش وللأسف أن هذه المقبرة قد سرقت وبيعت محتوياتها إلى المتـاحف العالميـة، وبعد أن تولى العرش حفر مقبرة له ملكية فى وادى الملوك تعتبر من أجمـل المقـابر الموجودة فى داخل وادي الملوك.

وقد ركز "حورمحب" من البداية على إصلاح مصر من الداخل وأشـرف بنفسه على مواطن الفساد والرشوة والسرقات التى انتشرت داخل الـبلاد مثـل أعمال السلب والنهب التى كانت تتم على أملاك المعابد، لذلك قام حـور محـب بسن مجموعة من القوانين التى تحد من كل هذه الأمور وتنظم العلاقة بـين النـاس والسلطة الحاكمة(١٢٥)، وقد وجدت هذه القوانين على لوحة عثر عليها فى الكرنك سنة ١٨٨٢ م ولعل أهم ما جاء فى تشريعات حور محب:

١- أن كل من يتعرض للسفن التى تحمل الضرائب إلى خزائن الدولة يعاقب بجدع الأنف فضلاً عن النفى إلى ثارو.

٢- أن كل موظف يجد مواطناً لا يستطيع الحصول على سفينة لتوريد الـضرائب عليه أن يعمل على إيجاد سفينة له.

٣- أن كل مواطن اغتصبت حمولة سفينته يعفى من الضرائب.

٤- أن كل من يسرق سفناً تحمل ضرائب للحريم أو المعابد تجدع انفه وينفـى إلى ثارو، والأمر كذلك إلى الموظفين الذين يعملـون بمكتـب قـرابين الملـك ويغتصبون نبات "كث" ويستخدمون عبيد الآخرين دون استشارتهم فى أعمال خاصة بهم.

٥- أن كل جندى يدخل بيوت الفلاحين لسلب الجلد دون وجه حق يحكم عليه بمائة جلده ويشق جلده فى خمس مواضع ثم تسترجع منه الجلود المسروقة.

٦- معاقبة كل من يأخذ من الفلاحين نبات "سم" لمعامل الجعة بحجة أنه ضرائب للعرش.

٧- منع استخدام القوة أو زيادة العمل ضد الأرقاء.

٨- منع الابتزاز والرشوة فى تحصيل ضرائب الدخل العام وإنزال العقاب بمفتشي الضرائب حين يتفقون مع المحصلين بغية الكسب والتلاعب، ثم تنظيم تحصيل الضرائب المفروضة على محاصيل الخضر المنزرعة فى أرض التاج.

٩- معاقبة كل من يأخذ من الفلاحين حبوباً أو خضروات بدون إذن من الفرعون.

١٠-اختيار القضاة من الرجال الأكفاء العدول العارفين بتوجيهات القصر ونظم الإدارة لنشر العدالة ومعاقبة المنحرفين، ثم اختار وزيرين واحداً فى طيبة والآخر فى منف للإشراف على الإدارة، وقد حذر القضاة قائلاً "لا تأخذوا رشوة من أحد وإلا فكيف تستطيعان أن تحكما بالعدل إذا كنتما جناة على القانون" وحرم على القضاة أى اتصال بالناس أو قبول هدايا منهم وأنه من يثبت بأنه حكم بغير العدل وتخطى حدود ما نص عليه القانون فجزاؤه الموت.

١١- ألغى رسوم الذهب والفضة وحرم على محاكم "قنب" فرض أية رسوم على أى شيء.

١٢- زيادة مرتبات الموظفين لمنع الرشوة مع إرسال مندوبين لتفقد أحوال البلاد كل شهر، وكان يستقبلهم فى قصره قبل سفرهم لكى يغدق عليهم العطايا منادياً كل واحداً منهم باسمه.

وقام "حورمحب" بجانب المفتشين الذين عينهم بالتفتيش بنفسه على هؤلاء الموظفين، وعمل على تطبيق هذه القوانين، وهكذا نجح فى إعادة السلطة إلى الحكومة المركزية ووضع الأمور فى نصابها(١٢٦).

بعد ذلك اتجه "حورمحب" إلى السياسة الخارجية فقام بقيادة الجيش من جديد إلى سوريا ونجح فى استعادة جزء صغير من الأراضي التى فقدتها الإمبراطورية المصرية، ثم قام بحملة أخرى على بلاد النوبة وتبين نقوشه فى جبل السلسلة أنه انتصر على النوبيين(١٢٧).

واتجه حور محب إلى المنشآت المعمارية فهو قد أرسل رجال المحاجر على جبال السلسلة ونقر معبداً فى هذه المنطقة فى الجبل الغربى، كما حفر معبداً فى منطقة أبو عودة فى بلاد النوبة للإلهين آمون وجحوتى، كما أنه ركز اهتمامه على مدينة منف فشيد بها معبداً داخل حرم معبد بتاح ومعبد هليوبوليس ولكنه ركز نشاطه الكبير فى معبد الكرنك فقد شيد الصرحين التاسع والعاشر، وربما أيضاً بدأ فى تشييد الصرح الثانى وقد حشا الصرحين التاسع والعاشر بأحجار معبد آتون الذى كان قد بنى فى شرق معبد الكرنك، وقد شيد لنفسه معبداً جنائزياً فى البر الغربي وكان هذا المعبد قد بدأه الملك آى.

ولما أن ودع هذا الملك دنياه دفن فى قبر أعد له فى صخور طيبة الغربية بين قبور فراعنة الوادى، لكن نهب القبر كبقية الملوك، ولم يبق منه إلا التابوت المصنوع من الجرانيت الوردى، ولا زال باقيًا فى مكانه، أما نقوش مقبرته، فتأتى أهميتها فى تسجيل فصول كتاب ما هو موجود فى العالم الآخر وخاصة "كتاب البوابات".

واستمر حكم هذا الفرعون حوالى سبعة وعشرين عاماً. وبموته انتهت عصر الأسرة الثامنة. بعظمتها وقوتها وضعفها وبعد ذلك بدأت الأسرة التاسعة عشرة.

هوامش الفصل الأول

1- Lacovara. P.The New Kingdom Royal city (studies in Egyptology) London, 1997, p. 160.

2- Posener, Princes et payes d'Asie et de Nubie Bruxelles 1940, p. 63.

٣- زكريا رجب عبد المجد "دراسة حضارية وأثرية لمملكة كرمة فى النوبة وعلاقتها بمصر الفرعونية فى الفترة من " ٢٥٠٠ – ١٥٠٠ ق.م" رسالة دكتوراه غير منشورة – كلية الآداب جامعة الإسكندرية ٢٠٠٦ ص ١٥٣.

4- Ver cutter.J L' Egypte Anciene, Paris, 1963, p.73.

5- Bitak, M., Avaris "The Copital of the Hyksos, Recent Excavation at "Tell ed-Daba", London, 1996, p. 250.

٦- رمضان السيد تاريخ مصر القديمة الجزء الثانى القاهرة ١٩٩٣ ص ٤٥.

٧- عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق، القاهرة، طبعة ١٩٨٢ ص ١٩٥.

8- Barguet (Paul) : Le Temple de'Amon. Re' à Karnak, Essai d exégèse, le caire IFAo 1962 tome XXI P. 20.

9- Posener. OP. Cit, p: 63 – 64.

١٠- رمضان السيد المرجع السابق ص ٤٩.

١١- أحمد فخرى مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٨١ ص ٢٤٤، عبد العزيز صالح المرجع السابق ص ١٩٤.

١٢- زكريا رجب عبد المجيد المرجع السابق ص ١٥٤.

١٣- المرجع السابق.

14- Redford, D. B., Historiography of Ancient Egypt in Egyptology and social Sciences, Cairo, 1976, P.15.

15- OP - Cit.

١٦- زكريا رجب عبد المجيد ، العمارة والفنون الكبرى فى مصر القديمة ج٢ الإسكندرية ٢٠٠٩.

١٧- المرجع السابق، أحمد فخرى، المرجع السابق.

18- Wente. E. F., The suppression of the High Priest Amenhotep, JNES, 25, 1996 P.P 73-87.

١٩- زكريا رجب عبد المجيد، دراسة حضارية وأثرية لمملكة كرمة فى النوبة وعلاقتها بمصر الفرعونية ص ١٥٤.

20- Edgerton, William. F., The Tuthmosid Succession, Chicago, 1933. P. 43.

21- O P- Cit.

22- Wilicinson. R.H. The Complet temples of Ancient Egypt London, 2000, P. 24.

23- Edgerton, William. F, Op Cit. P. 44.

24- Lacovara. P., OP Cit, P. 166.

25- Redford, D.B., OP-Cit, P.17.

٢٦- زكريا رجب عبد المجيد، المرجع السابق ص ١٥٤.

٢٧- رمضان السيد، المرجع السابق ص ٦٤.

٢٨- المرجع السابق ص ٦٥.

29- Deseroches. C, La Mystérieuse: Hatshepsout Paris, 2002, P.22.

30- Ibid.

31- Ibid P.62.

32- Lalouette,c. OP.Cit P. 251 -255.

33- Ibid P.259.

34- Naville, E, The temple of Deir el Bahri Vol3 London 1908, P.15.

35- Ibid.

٣٦- زكريا رجب عبد المجيد "العمارة الفنون الكبرى فى مصر القديمة ج٢ الإسكندرية ٢٠٠٩ ص ١٨١.

٣٧- المرجع السابق.

٣٨- رمضان السيد ص ٧١ – ٧٢.

39- Deseroches. C., OP-Cit, P. 259.

40- Ibid 293.

41- Lalouette,C, Thèbes ou La Naissance d'un Empire Fayard 1986, p. 268.

٤٢- عبد الحميد زايد، مصر الخالدة ج٢ القاهرة، ٢٠٠٢ ص ٣٨.

٤٣- المرجع السابق ص ٣٨.

٤٤- المرجع السابق ص ٤٠.

45- Lalouette. C., OP-Cit, P. 322.

46- Ibid.

47- Ibid P.230.

48- Edgerton, William. F, OP.Cit P.58.

49- Ibid.

50- Ibid P.59.

٥١- رمضان السيد المرجع السابق ص ٨٠.

٥٢- عبد الحميد زايد المرجع السابق ص ٤٩.

٥٣- المرجع السابق ص ٤٨ – ٤٩.

٥٤- المرجع السابق ص ٥٠ – ٥٢.

٥٥- رمضان السيد المرجع السابق ص ٨٢ – ٨٣.

56- Davies N.d.Garis, Tomb Of Rekh-mi-ré at thehes New york, 1943. Vol3.

57- OP.Cit. P. 166.

٥٨- رمضان السيد المرجع السابق ص ٨٧.

٥٩- محمد محمود بيومى مهران مصر ج٣ الاسكندرية ١٩٩٤.ص ٧٨ – ٧٩.

٦٠- المرجع السابق ص ٧٩.

٦١- عبد الحميد زايد المرجع السابق ص ٨٠-٨٢.

٦٢- المرجع السابق.

٦٣- رمضان السيد، المرجع السابق ص ٩١.

64- Chr. Zivi, Giza Au Deuxieme Millenaire, Bd E,10 P. 135 -145.

65- Edgerton, William. F, The Tuthmosid Succession, Chicago 1933, P. 43.

٦٦- رمضان السيد، المرجع السابق ص ٩٣ – ٩٤.

٦٧- زكريا رجب عبد المجيد، دراسة حضارية ثرية لمملكة كرمة فى النوبة ص ١٥٤.

68- Bryan. Betsy M.G., The Reign of Thutmose IV, Baltimore, 1991. P. 53.

69- P. Kozloff and Betsy. M Bryan, Egypts Amenhotep III Dazzling and his World sum Indiona university 1992. P. 35.

70- OP-Cit. P. 42.

71- Ibid

72- Ibid P.113.

73- Winlock. Herbert. E "Excavation of Palace of Amenhotep III, BMMA 7, 1912, P. 185 – 187.

74- Babbled Thibaud "les grands d'Amenophis III sur la rive occidentale de Thebes: du contexte orginal à la situation contemporaine" Memnonia 4-5, 1995 P. 131-145.

75- Bryan. Betsy M., "The statue program for The mortuary temple of Amenhotep III", s, xuirke (éditour), The temple in Ancient Egypt, 1997, P 57-81.

76- OP-Cit.

77- Cabrol. Agnés, Amenhotep III la Magnifique. Paris 2000 P.225.

78- OP-Cit P.

79- Cominos. R. A,Amenhotep IIIs, vizier at sislah East J.E.A 73, 1987, P 207 -210.

Murnane W.J., "servant, Seer, Saint, Son of hapu, Amenhotep III Called Huy "Kmt 2,2 1991 P. 9 -13.

80- Murnane. W.J, "pverseer of the northern foreign Contvies: reflections on the Administration of Egypt's Empirin.
Western Asia" EgyMem. 1, 1997, P. 251 -258.

81- OP-Cit P. 257.

٨٢- عبد الحليم نور الدين، تاريخ حضارة مصر القديمة، القاهرة ٢٠٠٥، ص ٢٠٥ — ٢٠٦.

83- Dominic Montserrat, Akhenaten : History, Fantasy and Ancient Egypt, London, 2000, p. 13.

84- Ibid.

85- Giles. F.J., The Amarna Age : Western Asiu, Warminster 1997, p. 21 – 45.

86- Ibid.

87- Redford. D.B., Akhenaten : The Hertic King, Princeton 1984, p. 19 – 20.

88- Dominic, Montserrat, op. cit., p. 27.

89- Redford, D. B., op. cit., p. 128.

90- Aldred. S., The Development of Ancient Egyptian Art, From 3200 to 1315 B.C., London, 1952, p., 73. F.

٩١- عبد المنعم عبد الحليم سيد، حضارة مصر القديمة، الإسكندرية ١٩٩٧، ص ١٩٨—١٩٩.

92- Arnold. D., The Royal women of Amarna, New York, 1996, p. 21-23.

93- Ibid.

٩٤- أحمد فخرى، مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٨٨.

95- Arnold, D., op- cit.

96- Taylor. J.H., "ed", The Theban Necoropolis : Past, Present and Future , London, 2003, p. 52. F.

٩٧- زكريا رجب عبد المجيد " الآتونية فى النوبة العليا" ، اتحاد الأثاريين العرب، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٢١٧.

98- Allen. P.J., Nefrtiti and Semenkh – Ka – re G.M, 141, 1994, p. 7 – 17.

99- Ibid.

100- Aleen, P.J., "Two Altered Inscription of late Amarna Period", JARCE 25. P. 117 – 26.

101- Ibid.

102- Shaw I., The Oxford History of Ancient Egypt, Oxford 2000, p. 217. F.

103- Redford. D.B., Op-Cit.

104- Aldred. S., The End of the ElAmarna Period, J.G.A. 43, 1957, p. 30 – 41.

105- Allen. P. J., Nefrtiti and Semenkh – Ka – Re, p. 16.

106- Ibid. ورمضان السيد، المرجع السابق، الجزء الثالث، ص ٣١٠

107- Davis. T, et al, The Tamb of Queen Tiyi, London, 1910, Aldred.S., Op – Cit, p. 36/

108- Daressy. G., Un scarbee d'Amenhotep IV, ASAE 16., 1916, p. 178.

109- Englbach. R. The so – calld coffin of Akhenaten ASAE 31, 1931, p. 98 – 114.

110- DDesroches. N.C., Tutankhamon. Vie et mort d'un pharaon, Paris, 1963, p. 51. F.

111- Ibid.

112- Aldred. S., Aknaten and Nefertiti, New York 1973, p. 53. F.

113- Arnold. D., The Royal Women of Amarna, New York 1996, p. 78 – 80.

114- Krauss. R., "Nefertite's End" MDAIk, 53, 1997, p. 209 – 219.

115- Allen. P.J., Op-Cit., p. 9.

116- Reevese. N. and Wilrinson. R., The complete tutankhamon, London, 1990, p. 73.

117- Wettengel W., Mythos Tutanchamun, Nordlingen 2000, p. 55 – 60.

118- Adre Wiese and Adreas Brodbeck, Tut- Ankhamun, The Golden Beyond, Basel, 2004, p. 56.

119-

١٢٠- لتفاصيل قصة اكتشاف مقبرة توت عنخ آموت ومحتويات المقبرة يراجع :

- Hawass. Z., "Tutankhamon" and The Golden of the Pharoaohs Philadelphia, 2007.

- Adre Wiese and Adreas Brodbeck, Op – Cit.

١٢١- رمضان السيد، المرجع السابق، ص ٢٣٦ – ٢٣٧.

122- Schulman. A.R., "Some officials of Tutankhamon and Ay" in J.A.R.C.E.4, 1956, p. 55 – 68.

123- Von Beckerath, Horemheb, in LÄ II, p. 962 – 964.

124- Hari. R., "la reine d'Horemab etait. Elle la Soeur de Nefertiti, C.D.E., 51, 1976, p. 39 – 46.

١٢٥- رمضان السيد، المرجع السابق، ص ٢٢٨ – ٢٣١.

126- Hari. R., Horemhen et larine Moutwedjem et ou la fin d'une dynastie, Geneva, 1965, p. 31 – 38.

127- Ibid.

١٢٨- رمضان السيد، المرجع السابق، ص ٢٣٣ – ٢٣٤.

الفصل الثانى

الأسرة التاسعة عشرة

(١٣٠٤ — ١١٩٥ ق.م)

الأسرة التاسعة عشرة
(١٣٠٤ – ١١٩٥ ق.م)

١- الملك رمسيس الأول:

بدأت الأسرة التاسعة عشره بالملك رمسيس الأول مؤسس الأسرة، وهو ثالث الملوك القواد، بعد آي، حور محب، واعتبره مانيتون مؤسس الأسرة التاسعة عشر وهو على حق، لأن عائلة جديدة تولت حكم البلاد، وهو لم يكن من طيبة بل كان من شرق الدلتا (١).

وكان قائدًا عاديًا فى الجيش، ولكن كانت له أهمية خاصة، فقد أضاف إليه حور محب لقب الوزير بجانب ألقابه الجديدة وكأنه يمهد له الاستيلاء على العرش، إذ لا يترك حور محب وريثًا له يتولى العرش، غير أنه كان من عائلة بسيطة واسعة "رع مس"، وكان أبوه ضابط بالجيش يدعى سيتى وأمه تدعى "تيو"، لكنه عندما جلس على العرش تزوج من أميرة ملكية تدعى "سات رع" (٢).

وقد ذكر مانيتون أنه كبير السن ولم يحكم إلا سنة واحدة ولكن يبدو أنه فى هذه السنة أهتم بمعبد أمون بالكرنك، وبدأ العمل فى صالة الأعمدة الكبيرة والتى استمر فى إتمام بنائها ابنه سيتى الأول وحفيده رمسيس الثانى لتصبح أكبر صالة للأعمدة عرفها التاريخ (٣). وقد عثر له على لوحة بجوار قلعة بوهن عند الجندل الثاني لتثبيت حدود مصر فى الجنوب، وترك لنا أثارًا فى أبيدوس عبارة عن مقصورة صغيرة أو قدس أقداس حيث مثل هو وزوجته فى هيئة تمثالين فى قارب مقدس. ودفن فى مقبرة بسيطة بوادى الملوك وعلى نفس السنة التى أتبعها ملوك الأسرة الثامنة عشره فى دفن موتاهم وحفر مقابرهم بوادى الملوك فى البر الغربى بطيبه (٤).

• الملك سيتى الأول (١٣٠٣ – ١٢٩٠):

كان سيتى الأول عند موت أبيه فى منتصف الحلقة الخامسة من عمره، وكان له من خبرته وتجاربه ومن ذكائه الفطرى ما أهله للقيام بالدور العظيم الذى كان مقدرًا له أن يقوم به (٥).

فقد قضى سنوات شبابه وهو يعمل ضابطًا فى الجيش وبخاصة على حدود مصر الشرقية فى حصن ثارو، كما تقلد وظائف عدة وكان قائدًا للفرسان، كما أوكل إليه حور محب بعض الوظائف الكبيرة فى الدولة، ولا شك أنه تتبع كل إصلاحات حور محب وكان من منفذيها، كما كان ساعد والده الأيمن خلال العامين الذين جلسهما على العرش [٦]، فلما آل إليه الملك وجد أن خير ما يفعله هو أن يسير على نمط أبيه ونمط حور محب، وكان له من نشاطه وخبرته ما جعله يبدأ عصرًا جديدًا فى تاريخ البلاد فسمى أولى سنوات جلوسه على العرش أنها بدء عصر البعث "وهم — مسوت: ترجمتها الحرفية تكرار الولادة" [٧].

ولم يكد يجلس على العرش وتنتهى حفلات التتويج حتى أصدر أوامره بإتمام ما لم يتمه أبوه من مبان، كما أصدر أمره أيضًا بإصلاح ما لم تتسع أيام حور محب لإصلاحه مما تسبب عن ثورة إخناتون الدينية من تخريب فى المعابد، ولكنه فوجئ بقيام ثورة وراء الحدود الشرقية فأسرع لإخمادها وترك لنا أخبار إنتصاراته على جدران معبد الكرنك، ورسم لنا فيها الحصون التى أعادها إلى حظيرة الطاعة بعد أن هزم بدو سينا وجنوبى فلسطين "الشاسو" وهى الحصون التى كانت تمتد من القنطرة حتى رفح [٨]، وأراد سيتى أن يعيد لمصر مجدها القديم فتقدم مع جيشه فى فلسطين، وعلم أن السكان الذين شقوا عصا الطاعة بمؤازرة وتعضيد مملكة "خيتا" تجمعوا فى بيسان وأن بعضًا منهم تجمعوا فى بلد يسمى "حماة" (وهى غير مدينة حماة السورية)، والبعض الآخر فى بلدة "ينعم" فلم يمكن سيتى الأول أعداءه من التجمع سويًا فى مكان واحد بل أرسل إلى كل من هؤلاء فرقة من فرق جيشه قضت عليهم بسهولة، وتم النصر ودانت له فلسطين وفينيقيا والجزء الجنوبى من سورية وبخاصة البقاع ومدينة قادش [٩].

وكان سيتى الأول يريد متابعة إنتصاراته ليؤدب الثائرين الآخرين ويقابل جيوش خيتا، ولكن أنباء ثورة أخرى على حدود مصر الغربية إضطرته للعودة مكتفيًا بما ناله من غنائم وإنتصارات [١٠].

وكانت الحالة فى شمال إفريقيا بدأت تدخل فى دور من عـــدم الإســتقرار على إثر الهجرات الهندو – أوروبية التى أخذت تجتاح كل بلاد الشرق القـــديم فى ذلك العهد، وكان أثر هجرات هذه الشعوب ونزول بعضها على شـــاطئ شمـــال إفريقيا أن بعض تلك القبائل نظر بعينه نحو مصر لمهاجمتها والأستقرار فيها، ولكن سيتى الأول هزمهم فى موقعتين سجل أخبارهما على معبد الكرنك أيضا إلى جانب أخبار معاركه الأخرى فى سينا وفلسطين وسورية (١١).

ولسنا نستطيع أن نحدد تاريخ حربه فى ليبيا بالضبط، ولكن من المؤكد أن تلك الحملة كانت بعد استيلائه على قادش وقبل أن يعود مـــرة ثانيـــة إلى آســـيا ليحارب "خيتا"، أى أن التاريخ المرجح لهاتين المعركتين أنهما كانتا فى السنة الثانية من حكمة (١٢).

كان سيتى الأول قد إتخذ حياة وحروب تحوتمس الثالث مثالاً يحتذى بـــه، وكان يعرف أنه طالما كانت "خيتا" بعيدة عن متناول يده فإنها لن تتوقـــف عـــن الاستمرار فى دسائسها لتأليب سورية وفلسطين على مصر خصوصًا بعد أن تغلبت على بلاد "ميتانى" فى أعالى الفرات، وأصبحت وجهًا لوجه أمام مصر، وتطلعـــت نحو سورية لتصبح تابعة لها (١٣).

ومصادرنا عن حرب سيتى مع خيتا هى ما دونه جدران معبد الكرنـــك. وكانت المعركة التى دارت بينه وبين الحيثيين فى شمال مدينة قادش، وعاد منها سيتى منتصراً ومعه الأسرى والغنائم. وحفظت المصادر الخيتية أخبار هذه الحرب وتعرف مما كتبوه أن ملك خيتا كان يريد أن يتفادى الحرب مع مصر، ويقول أنه لم يكـــن طالبًا لشهرة أو مجد لأنه يمقت الحروب، ولكنه يزيد على ذلك طبعًـــا أن جيوشـــه إنتصرت (١٤)، والرأى الأرجح هو أن تلك المعركة لم تكن حاسمة ولم يستفد منها أحد الطرفين ولم يؤثر بحال من الأحوال على مملكة "خيتا"، وإن كانت قد أثمـــرت فى جعل مملكة خيتا تعرف أن مصر فى عهد سيتى الأول غيرها فى عهد إخنـــاتون، وأن فرعون لم يسمح لقوة أجنبية أن تتدخل لإشاعة الفوضى على حـــدود مـــصر

الشرقية، وذهب سيتى أيضًا فى حملة على بلاد النوبة وهو يذكر ذلك على آثارها كما يذكر أيضًا بلاد "هاهارينا" (أعالى الفرات) و"خيتا" و "آلاسا" (قبرص)، وربما كان ذكر هذه الأسماء على آثار سيتى إستمرار للتقليد القديم الباقى من أيام تحوتمس الثالث أو ربما كانت هذه البلاد أخذت تنتهج سياسة المودة مع مصر وترسل هداياها لتؤكد صداقتها لها (١٥).

ومن المحتمل أن تكون حملات سيتى الأول فى آسيا وإفريقيا إقتصرت على السنوات الأولى من حكمه، ولم تكن هناك حاجة إلى ذهابه إلى تلك البلاد بعد أن استتب له الأمر فيها، ومن المحتمل أيضًا أن يكون قد عقد معاهدة مع خيتا ليحترم كل من مصر وخيتا حدود الآخر، وبذلك إطمأن على حدوده وإنصرف بكل ما أوتى من قوة لتوطيد الأمن فى البلاد وإنشاء المبانى العظيمة فيها (١٦).

ويطول بنا الحديث إذا أردنا تعداد المهم من آثار الملك سيتى، ويكفى أن نشير إلى أعماله فى الكرنك وبخاصة بهو الأعمدة العظيم وإلى معبده فى طيبه (معبد القرنة) وإلى مقبرته فى وادى الملوك التى تمتاز بأنها أهم المقابر جميعًا، وكذلك تلك الدرة بين معابد الفراعنة ألا وهى معبده العظيم أبيدوس (١٧).

وإذا درسنا آثار هذا الفرعون فإن أهم ما يستلفت نظرنا هو المستوى العظيم فى جمال النقوش، فإننا نرى من نقوش قبره فى طيبة ومعبده فى أبيدوس أن المدرسة الفنية التى وصلت إلى أوج إزدهارها فى عهد أمنحوتب الثالث ما وصل إلى أيدينا من عهد الفراعنة (١٨).

وقد استحدث الفنانون فى عهد سيتى الأول أمرًا جديدًا وهو رسم المعارك الحربية مفصلة وفى حجم كبير على جدران المعابد، إذ أن مصر لم تعرف ذلك من قبل، وكان أول من استحدث رسم المعارك هو تحوتمس الرابع عندما زين عربته الحربية بمناظر إنتصاراته فى المعارك كما قلنا قبل الآن، وقد حفظ لنا الزمن أيضًا صندوقًا من عهد توت عنخ آمون رسم على أحد جانبيه معركة حربية فى آسيا، وعلى الجانب الآخر معركة حربية فى الجنوب، ولكن فى عهد سيتى الأول رسمت هذه المعارك على جدران المعابد وهو التقليد الذى إتبعه خلفاؤه من بعده (١٩).

واهتم سيتى بالمناجم فأرسل الحملات المختلفة وبخاصة للحصول على الذهب، ويرجع إلى أيامه تاريخ بردية مناجم الذهب المحفوظة فى متحف تورين بإيطاليا وهى أقدم وثيقة جغرافية فى التاريخ عنى فيها الرسام بتوضيح الطرق المختلفة عليها مما يساعد المطلع عليها لمعرفة الطريق إلى تلك المناجم [٢٠]، كما حفر كثيرًا من الآبار فى الصحراء لمساعدة المسافرين إلى مناطق المناجم مثل بير وادى عبادى التى أقام إلى جانبها معبدًا صغيرًا وهو المعبد المعروف بإسم معبد "الرديسية".

ولم تقتصر آثار سيتى على مصر والصحراء بل وجدت له آثار كثيرة فى بلاد النوبة وشمال السودان وبخاصة فى "سيسيى" و "نورى" و"جبل برقل" كما عثر له على آثار غير قليلة فى مصر وفى لبنان [٢١].

وكان سيتى الأول متزوجًا من سيدة تسمى "توب" من المرجح أنها كانت أختا له وولدت له ولدين وبنتًا ومات أكبر الولدين فى حياة أبيه فآلت ولاية العهد إلى الأمير الثانى، وكان إسمه رمسيس الذى إشترك مع أبيه فى حكم البلاد لتدريبه، وتزوج من أخته الأميرة "سات – رع"، وقد خلف هذا الأمير أباه بعد أن حكم ثلاثة عشرة عامًا (١٣٠٣ – ١٢٩٠) ودفن فى قبره فى طيبة فقد أبقى الزمن على مومياته وهى من أحسن المومياوات المحفوظة فى المتحف المصرى [٢٢].

• رمسيس الثانى (١٢٩٠ – ١٢٢٣ ق.م):

لم يبلغ ملك من ملوك مصر ما بلغه رمسيس الثانى من شهرة فى التاريخ، فقد إستطاع هذا الملك الذى حكم سبعة وستين عامًا أن يفرض إسمه وشخصيته على عصره وعلى العصور التالية وملأ البلاد كلها بآثاره [٢٣].

ونحن نعرف معرفة اليقين أن رمسيس الثانى لم يكن مدعيًا أو موهمًا أهل عصره عندما ذكر على آثاره أن أباه إختاره ليكون وليًا للعهد، أو أنه أشركه معه فى أمور البلاد، فإن هذا أصبح الآن حقيقة من الحقائق، ولكننا لا نعرف عمره بالضبط عندما مات أبوه وإن كنا نُرجح أنه لم يكن يقل عن الخامسة والعشرين من

عمره [٣٤]، إذ كان آبا الطفلين ذهبا معه إلى الحرب أو لتلقى الجزية فى بلاد النوبة كما ترى ذلك منقوشًا على جدران معبد بيت الوالى [٣٥].

وإذا رجعنا بالذاكرة إلى عهد الملك سيتى الأول لوجدنا أنه بدأ حكمه بالحرب عندما ذهب لإخضاع بدو الشاسو، ثم تقدم حتى استولى على قادش والتحم بجيوش "خيتا" وانتهى الأمر بينه وبين "خيتا" بعقد معاهدة صداقة ظلت محترمة حتى مات الملك سيتى الأول، وكان حد المملكة المصرية الذى يفصلها عن حد مملكة "خيتا" عند نهر الكلب شمالى بيروت بقليل [٣٦].

وعندما تولى رمسيس الثانى الملك بعد أبيه لم يبدأ بنقض هذه المعاهدة بل وجه همه قبل كل شيء إلى توطيد حكمه فأمر بإتمام جميع ما كان قد بدأه أبوه من معابد ولم يطل أجله ليتمه مثل معبد أبيدوس أو معبد القرنة أو مبانيه المختلفة فى الكرنك [٣٧].

وكانت خطوته التالية هى التفكير فى إستغلال مناجم الصحراء متبعًا فى ذلك سياسة أبيه من قبل ، فلما إنتهى من ذلك فى حوالى السنة الرابعة من حكمه ذهب فى رحلة لزيارة أطراف ملكه فى آسيا، وليس فى إستطاعتنا أن نعرف الباعث على ذهابه إلى آسيا أو الذى حدث أثناء هذه الرحلة وجعله يصطدم بمملكة "خيتا"، ولكن من المحتمل أن مملكة "خيتا" هى التى بدأت بتحريض بعض الأمراء على الثورة أو العصيان، وأن حملة رمسيس الثانى إلى آسيا كانت لتوطيد النفوذ والاطمئنان على حاميات الموانئ وخطوط المواصلات [٢٨]، ثم عاد مرة ثانية فى السنة الخامسة من حكمه بعد أن عبأ جيوشه وتقدم بها لسحق جيوش "خيتا" التى كانت قد ألبت الكثير من سكان سورية ضد مصر، وتجمعت فى قادش لصد جيوش مصر التى كانت فى طريقها إلى هناك [٢٩].

• معركة قادش:

كان ملك خيتا فى ذلك الوقت يسمى "موتلى" ولم يترك وسيلة من الوسائل إلا التجأ إليها ليجعل من مقابلته لجيش مصر ضربة قاضية تمحق نفوذ مصر

وسادته فى آسيا. ولهذا لم يكتف بأن يضم إليه، سواء بالوعد أو الوعيد، الساخطين على مصر أو الطامعين فى إرضاء خيتا، بل إستعان بشعوب أخرى كثيرة وأخذ منها جنودًا مرتزقة، وكان من بين هذه الشعوب سكان جزر بحر أيجه، وإمارات آسيا الصغرى وبلاد الفرات إلى جانب جيش بلاده (٣٠)، وتقدم بكل هذه الجموع إلى قادش وهى المدينة المحصنة ذات الموقع الإستراتيجى الهام، والتى نعرفها منذ أيام تحوتمس الثالث بأنها باب سورية الشمالية وما يليها. وتقدم رمسيس الثانى ومعه أربعة جيوش أحدها "جيش آمون" والثانى "جيش رع" والثالث " جيش بتاح" والرابع "جيش ست" وذلك إلى جانب جنود مرتزقة بعضهم من الشردان الذين سبق أن أسرهم، والبعض الآخر من الأموريين الذين ربما كان تجنيدهم فى فلسطين (٣١)، إتخذ رمسيس الطريق الحربى القديم ومعه جيش أمون تتبعه الجيوش الأخرى، ووصل إلى بلاد كنعان وإتجه شمالاً متتبعًا الشاطئ حتى شمال بيروت، إذ ترك لوحة عند مدخل نهر الكلب مؤرخة فى السنة الخامسة أى فى هذه الرحلة، ومن هناك توغل إلى الداخل حتى وصل إلى وادى نهر العاصى (٣٢).

وحدث آن ذاك أن قبض الجنود المصريون على جاسوسين مَن بدو فلسطين (الشاسو) كان أرسلهما "موتلى" ليعرفا تحركات الجيوش المصرية، وإذا وقعا فى الأسر يقصان قصة متفقا عليها ليضللا المصريين (٣٣)، وإعترف الجاسوسان بعد ضربهما ضربًا موجعًا بمواقع جيوش خيتا ولكنه كان إعترافًا متفقًا عليه من قبل إذ أنهما قالا بأن "موتلى" تقهقر بجيوشه إلى حلب عندما علم بتقدم الجيوش المصرية، ولكن الحقيقة أن الجيوش كلها كانت مختبئة وراء مدينة قادش منتظرة حضور جيوش مصر لملاقاتها (٣٤).

وأراد رمسيس أن يسرع خلف عدوه و لم ينتظر حتى تلحق باقى جيوشه به فعبر نهر العاصى ومعه جيش آمون، وكان أقرب جيوشه إليه بعد ذلك هو جيش رع الذى كان على مسيرة بعيدة، أما جيشا بتاح وست فكانا بعيدين جدًا، وكان سير رمسيس خطأ من الناحية الحربية لأن تجمع القوات احد الأسس الحربية الهامة

وكانت هذه القاعدة متبعة دائمًا فى حروب أجداده، ولكن تسرعه فى التقدم ومعه جيش واحد فقط وتصديقه لما قاله الجاسوسان وعدم تنظيمه لإدارة مخابراته كما كان يفعل تحوتمس الثالث كلفه ثمنًا كبيرًا كما سنرى (٣٥).

عبر رمسيس الثانى نهر العاصى (الأورونت) وعسكر بجيشه فى الشمال الغربى من المدينة ولم يكن يعلم أن ملك خيتا وحلفاءه كانوا خلف التلال وأنهم قاموا فى الوقت نفسه بحركة إلتفاف وانسحبوا إلى ما وراء قادش على الشاطئ الآخر من النهر (٣٦)، فلما وصل جيش رع وبدأ فى عبور النهر إنتظر المتحالفون حتى وصل بعض الجنود إلى الشاطئ الآخر، وعند ذلك هجموا على جيش رع هجومًا مفاجئًا فلم يستطع أن يلم شمله ويصمد للحرب، بل ولى الجنود طالبين المعسكر أن يحاول جمع شتات جنوده ليدافعوا عن أنفسهم (٣٧)، ولكن هذا الهجوم المفاجئ كان قد خلع قلب جيش رع وجيش آمون الذى كان للملك بمثابة الحرس الخاص، وتخلى عن رمسيس أكثر رجاله فلم يرى بدا من الاعتماد على نفسه فاندفع بين المهاجمين (٣٨).

يقص علينا رمسيس الثانى قصة هذه المعركة فى قصيدة شعرية نقشها على جدران عدة معابد، فى الأقصر وفى الرمسيوم وفى الكرنك وفى أبيدوس وفى إحدى البرديات، كما صور لنا أهم مناظر المعركة على واجهات بعض المعابد، وكان عمله هذا مثلا فى الشجاعة لجنوده من جيش آمون وجيش رع فلم يمض غير قليل حتى ثبتت قلوبهم وإلتحموا مع العدو، وبدا تفادى رمسيس الثانى ورجاله كارثة محققة، والفضل فى هذه الحركة الخيرة يرجع دون شك إلى وصول نجدة لم يكن احد يتوقع وصولها فى ذلك الوقت (٣٩)، وهى نجدة من شباب الفلسطينيين المجندين (ثيارونا - بلغة الكنعانيين معناها الشباب أو الفتيان) وصلت إلى ميدان المعركة تحت إمرة الضباط المصريين ووجدت حرج مركز رمسيس فمالت على العدو ميلة واحدة فسببت تغيرًا فى سير المعركة وأنقذت رمسيس مما كان فيه، وربما كان نجاح هذه الفرقة راجعًا إلى إنشغال الجيوش المتحالفة فى نهب معسكر المصريين (٤٠).

وإنتهى اليوم الأول دون أن يكون النصر الحاسم فى جانب رمسيس أو فى جانب أعدائه، وكانت باقى الجيوش قد وصلت على الأرجح، كما كان شعور جيشى آمون ورع بالندم حافزًا على إستئناف القتال فى اليوم التالى، فمالوا جميعًا على العدو حتى كادوا يعنون، كما تقول النصوص المصرية، فطلب المتحالفون من رمسيس العفو، وقبل رسلهم الأرض بين قدميه وسلموه كتابًا من ملكهم (٤١)، ويذكر لنا رمسيس أن ملك خيتا قال له «ليس من المستحسن أن تقتل رعاياك فقد قتلت منهم بالأمس مئات الألوف وها أنت قد يتمت أولادهم ورملت نساءهم ولم تترك لهم وارثًا، فلا تكن قاسيًا معنا فالعفو خير من العقاب فامنحنا نسيم الحياة» ونصح ضباط رمسيس سيدهم بأن يقبل خضوع العدو فقبل رمسيس أن يكف عن القتال، وإتفق الطرفان المتحاربان على أن يحترم كل منهما حدود الآخر وألا يتدخل فى شئون رعايه (٤٢)، وعاد رمسيس وجيوشه إلى مصر دون أن يضم مدينة قادش إلى أملاكه، واقتصرت إمبراطورية مصر فى آسيا على فلسطين ولبنان وجزء صغير من سورية وعلى الأخص الموانئ التى كانت على الشاطئ (٤٣).

ونحن إذ ننظر فى تاريخ هذه المعركة الآن، ونقرأ ما كتبه عنها المصريون وما سطروه على واجهات المعابد فآننا نجد أنفسنا عاجزين عن فهم السبب الذى جعل رمسيس الثانى لا يجنى ثمرة إنتصاره، إن كان حقيقة قد سحق أعداءه فى اليوم الثانى!! ولكن ربما كان الحق هو أن الحرب لم تكن فاصلة وأن رمسيس كان يحارب فى يومه الثانى ونفسه مملوءة بالألم والحسرة لهرب جنوده من حوله عند إشتداد الخطر عليه (٤٤)، إذ نراه يكرر هذا الألم فى نصوصه التى يصف فيها المعركة ويتحدث عن فجيعته فى جنوده إذ تركوه وهو إلههم وسيدهم معرضًا للموت، وجروا طلبا للنجاة. وربما كانت حالته النفسية هى السبب فى قبوله الصلح وهو فى إنتصاره، مادام رجاله لا يستحقون الإعتماد عليهم (٤٥)، يقول رمسيس أن مركبات العدو التى كانت عددها ٢٥٠٠ مركبة، وفى كل عربة منها ثلاث رجال، قد أحاطت به وكانوا مقسمين إلى وحدات، بينما «لم يكن معى قائد أو ضابط

مركبة أو ضابط من المشاة ولا حامل درع فقد تركني مشاتي وفرساني فريسة أمام العدو و لم يثبت واحد منهم لمحاربته» (٤٦).

وعاد رمسيس إلى مصر فملأ البلاد كلها بأنه إنتصر وسحق أعـداءه وأن أبيه آمون وقف إلى جانبه وأنه أباد عشرات الألوف بسيفه. ولكـن مثـل هـذه الإدعاءات والتشبيهات الشعرية لا تغير من حقيقة الأمر شيئًا وهي أنه إذا كانـت هناك نتيجة هامة واحدة من وراء هذه المعركة فهي بقاء رمسيس على قيد الحيـاة، وإحتفاظ مصر ببعض ممتلكاتها في فلسطين والشاطئ الفينيقي (٤٧).

وإذا رجعنا إلى المصادر الحيثية وخاصة ما كشفت عنه الحفائر في الأعـوام الأخيرة، فإننا نقرأ قصة أخرى تختلف عن قصة المصادر المصرية، فقد كان النـزاع بين مصر وخيتا يتركز في السيادة على بلاد الأموريين (مملكة أمورو Amurru التي كانت مدينة قطنا "تل المشرفة الآن" عاصمة لها) وقد إنـضم ملكهـا "بنتـشينا" (Bentesina) إلى مصر ووقف إلى جانبها و لم يخضع لتهديدات ملك خيتـا ومـن آزروه. فلما كانت معركة السنة الخامسة من حكم رمسيس الثاني جمع كل مـن ملكي مصر وخيتا كل قواهما وألقاها في المعركة (٤٨)، ولكـن بينمـا تتحـدث النصوص المصرية عن النصر، وأن ملك خيتا تقدم بطلب الصلح نـرى النـصوص الخيتية تصف هزيمة المصريين، وتقول إن جيوش خيتا لاحقتهم حتى دمشق (٤٩).

ويقف المؤرخون بين هذين القولين، ولكن الرأي الأرجح هو تفضيل قصة ملك خيتا لأن مملكة أمورو أصبحت منذ تلك الحرب موالية لخيتا وإختفى إسـم ملكها "بنتشيا" ليحل محله إسم أحد الزعماء وإسمه "سابيلي" (Sapili) كملـك في قطنا ومعترفًا بسيادة ملك خيتا (٥٠).

بعد معركة قادش:

وإذا تتبعنا الأحداث كما روتها المصادر المصرية فإننا نجد أنفسنا مضطرين مرة أخرى لتصديق المصادر الحيثية، إذ لم يمض عامان على معركة قـادش حـتى كانت فلسطين نفسها قد ثارت بأسرها وإمتدت الثورة حتى وصلت إلى حـدود

مصر، إذ كانت عسقلان من بين المدن التي وجد رمسيس الثاني نفسه مضطرًا للإستيلاء عليها، ولم يهمل رمسيس، بل سارع إلى إخماد الفتنة وأعاد كل فلسطين إلى حظيرته، وكذلك بعض بلاد الأموريين وبخاصة حصن "دبور" التي دارت عنده إحدى المعارك الهامة (٥١)، وربما كانت هناك حاميات خيتية تغلب عليها رمسيس عند إستيلائه على مدينة "تونيب" فأعادت هذه الحملة إلى مصر سيادتها على تلك البلاد كلها، وعلى الشاطئ الفينيقي وربما بعض جزر البحر الأبيض. ونقرأ على جدران معبد الرمسيوم إشارات قليلة إلى هذه البلاد التي وردت فيها أسماء خيتا ونهارينا ورتنو وقطنا وكريت وقبرص وبابل وأشور مع ذكر هذه البلاد آثر السلامة فأرسل وفوده إلى ملك مصر ومعهم الهدايا طالبين مودته والإطمئنان إلى التحالف معه (٥٢).

ومهما يكن من أمر فإن حملة العام الثامن — وليست حملة قادش في العام الخامس — هي التي كانت سببًا في ذيوع إسمه كأحد الفراعنة المحاربين الذين حافظوا على الإمبراطورية التي ورثها عن تحوتمس الثالث، وكانت هذه الحملة أيضًا درسًا قاسيًا لمملكة خيتا أجبرها على إحترام مصر وعدم التدخل في أمر ولاياتها (٥٣).

ومضت على هذه الحرب أعوام طويلة مات فيها الملك موتللي فنشب نزاع عائلي بين إبن الملك وكان يسمى "أورخي — تيشوب" (Urehi-Tesup) من إحدى المحظيات، وبين عمه المسمى "خاتوسيلي" (Khattu-Siti) وقد انتهى النزاع بتغلب خاتوسيلي على ابن أخيه واستيلائه على العرش،وكان لهذا النزاع الشديد أثره في آسيا وبخاصة في بلاد الفرات وشمالي سورية إذ أن مملكة أشور كانت قد بدأت تدخل في فترة من فترات قوتها ومد سلطانها على غيرها (٥٤).

ولم يقف رمسيس الثاني مكتوف اليدين أمام هذا النزاع، وأخذ يناصر "أورخي — تيشوب"، وأراد "خاتوسيلي" أن يشترى صداقة مصر حتى يتفرغ لملاقاة أشور ولهذا أراد عقد معاهدة صداقة معه، ورحب الملك رمسيس الثاني بها

ووقعها الطرفان فى العام الحادى والعشرين من حكم رمسيس أى عام ١٢٨٠ قبل الميلاد، وكان أصلها مكتوبًا بالخط المسمارى على لوح من الفضة وقد ترجم الأصل إلى اللغة المصرية وبقى على أثرين أحدهما على جدران الكرنك والآخر على الرمسيوم، كما عثر أيضًا لحسن الحظ على الأصل الخيتى فى خرائب بوغازكوى، وليس فى هذه المعاهدة غير تأكيد الصداقة وأن كلاً من مصر وخيتا لا يعتدى على الآخر، ويسلمه المجرمين الفارين إلى بلاده ويشهد كل منهما آلهة بلاده على ما يقول (٥٥).

وبرُ كل من خاتوسيلى ورمسيس بوعده، وأراد ملك خيتا أن يوثق هذه الصلة فجاء زائرًا إلى مصر ومعه إبنته، وكثير من رجاله، ليزفها زوجة إلى رمسيس، وأمر بتسجيل هذا الحادث العظيم على لوحات كبيرة وضعت فى المعابد المهمة، كما نقشت أيضًا على جدران عدة معابد أخرى، وكان حضور ملك خيتا إلى مصر فى العام الرابع والثلاثين من حكمه وكان فى مصاهرة هذين البيتين ما كفل الأمن والطمأنينة فى غربى آسيا، ولو إلى حين (٥٦).

ولكن هذا السلام لم يدم طويلاً لأن المتاعب بدأت تتوالى على خيتا بعد موت "خاتوسيلى"، وربما كان جزء من هذه المتاعب راجعاً إلى تنازع عائلى فى البيت المالك، ولكن السبب الأكبر المباشر كان ناشئًا عن هجرات هندو — أوروبية تدفقت على هذا الجزء من الشرق، ونزلت إليه من أواسط آسيا أقوام كالجراد ومعها نساؤها وأطفالها، وكانت كل هجرة منها تتبعها أخرى لتستقر فى آسيا الصغرى وجزر بحر إيجة وفى بلاد اليونان وفى شمال إفريقيا، كان بعضهم يصل عن طريق البر والبعض الآخر عن طريق البحر،وما لبثت مملكة خيتا أن هوت وزالت من آثر هذه الهجرات فكانت أولى ممالك آسيا التى قضى عليها خطر تلك الشعوب(٥٧).

من المرجح جداً أن يكون خطر هذه الشعوب بدأ يدق على أبواب مصر من الشرق (أى من ناحية سورية وفلسطين) ومن الغرب من ناحية ليبيا، وربما كان هذا الخطر هو السبب المباشر الذى جعل رمسيس الثانى يبنى سلسلة من الحصون فى

الجهة الغربية من مصر مثل حصن الغربانيات (على مقربة مـن بـرج العـرب) وحصنا آخر عند العلمين [٥٨]، وكان آخر هذه الحصون يقـع داخـل الحـدود الحالية لمصر، وهو الحصن المكتشف حديثًا عند زاوية أم الرخم إلى الغـرب مـن مرسى مطروح[٥٩].

ولكن دفع هذا الخطر لم يقع على كاهل رمسيس الذى كان قد أربى على الثمانين بل وقع على كاهل إبنه "مر نبتاح" (منفتاح) كما سنرى [٦٠].

عائلة رمسيس الثانى وآثارة:

حكم رمسيس الثانى ٦٧ عامًا وتزوج من كثيرات، كمـا أنجـب أولادًا كثيرين من محظيات وزوجات ثانويات، ولهذا لا نعجب إذ كان عدد أولاد وبنات هذا الملك زاد عن ذرية أى ملك مصرى آخر، فنحن نعرف أنه كان متزوجاً مـن بعض أميرات البيت المالك مثل الملكة "نفرتارى" الشهيرة، والملكة "إست نفرت"، كما تزوج أيضاً من إبنة ملك خيتا وهى التى أطلق عليها الإسم المصرى "ماعـت نفرو رع" وكان لها حق الزوجات الأوليات، كما نعرف أيضاً أنه تزوج ثلاثة من بناته أما عدد أبنائه وبناته فقد كان وفيراً [٦١]. وكان أولاده الذكور يتقلدون جميعاً وظائفاً مهمة فى الدولة، وأهم هؤلاء الأولاد إبنه "خع إم واست" (خمواس) الـذى فكر والده فى السنة الثلاثين من حكمه فى جعله وليًا للعهد، وكان هـذا الأمـير مهتماً بالآثار القديمة فكان يرمم كل ما يجده فى حاجة إلى ترميم، ولهذا نرى اسمـه على المعابد فى طول البلاد وعرضها كما كان على خبرة عظيمة بالأمور الدينيـة وتقاليد الدين، واشتهر بعد وفاته بأنه كان ساحراً عظيماً، ولكن هذا الأمير تـوفى فى العام الخامس والخمسين من حكم والده ودفن على مقربة من قرية نزلة البطران التى لا تبعد كثيراً عن أهرام الجيزة [٦٢].

ومات أكثر أبنائه الأوائل فى حياته ولهذا خلفه إبنه الثالث عشر "مر نبتاح" من زوجته "إست نفرت" على العرش وكان أبوه قد أختـاره فى العـام الخـامس والخمسين من حكمه ليكون ولياً للعهد بعد موت أخيه "خع إم واست" [٦٣].

وإذا أردنا الحديث عن آثار الملك رمسيس الثانى فإننا لا نقول أكثر من أنه لا تكاد توجد منطقة أثرية فى مصر لم يرد فيها إسمه، ويكفى أن نشير إلى معابده العديدة فى الكرنك أو فى الجزء الأمامى من معبد الأقصر، أو الرمسيوم أو أبيدوس، أو معابده المتعددة فى النوبة وبخاصة معبد أبو سمبل لنغرف مدى نشاطه المعمارى المنقطع النظير، وكثيراً ما نقرأ أن رمسيس الثانى كان يجرؤ على أخذ ما يجده من آثار من سبقه من الملوك — حتى والده — وينسبها إلى نفسه، وهذا صحيح ولكنه لا يغير من الحقيقة وهى أن رمسيس الثانى كان أكثر الفراعنة آثاراً فى جميع نواحى المملكة وأكثرهم حباً للعظمة والفخامة (٦٤).

ولم يكن رمسيس الثانى يقيم دائماً فى طيبة إذ أن أباه بنى قصراً ومقراً ملكياً فى شرقى الدلتا، وقد أحب رمسيس الإقامة فى الشمال فنشأت هناك مدينة كبيرة وهى "بر — رعمسيس"، وقد ظن بعض الأثريين أنها هى مدينة صان الحجر كما يؤكد البعض الآخر أنها كانت فى المكان الذى تشغله الآن بلدة قنتير فى مركز فاقوس حيث عثر الأستاذ محمود حمزة على جزء من قصر له (٦٥)، ومات رمسيس بعد أن شبع من دنياه، وملأ سمع الدنيا وبصرها فى حياته وترك اسمه يرن فى آذانها حتى الآن، ودفن فى قبره فى وادى الملوك على جوار آبائه وأجداده.

الملك مرنبتاح (منفتاح) ١٢٢٢ – ١٢١١ ق.م:

شهدت الأعوام الأخيرة من حكم رمسيس الثانى تدهوراً فى الإمبراطورية المصرية بسبب هجرات الشعوب الهندو — أوروبية التى كانت تعبث فساداً فى جميع البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط. ولم يكن مرنبتاح شاباً صغيراً عندما آل إليه الملك بل كان يقرب من الستين، وقد بذل كل ما يستطيع لصد هذا التيار، وربما ذهب مرنبتاح إلى آسيا فى السنة الثالثة من حكمة أو يكون قد أرسل جيشاً لإخماد بعض الثورات التى قامت فيها كما ذكر لنا فى لوحته الشهيرة باسم "لوحة إسرائيل" (٦٦)، ولسنا نستبعد أن يكون ذلك من أثر المتاعب التى سببتها الهجرات، وسواء صحت واقعة حربة فى آسيا أو أنها كانت فقط للفخر والمباهاة أو أن هذه

الحرب لم تكن فى السنة الثالثة بل كانت بعد إنتهائه من حربه الليبية فى السنة الخامسة، فإن الحرب التى إقترن إسمها باسم مرنبتاح وخلدت الآثار المصرية ذكرها هى إنقاذه للبلاد من الهجوم الذى شنه عليها الليبيون وحلفائهم، وكانوا يرمون من ورائه على الإستيطان فى مصر، فلقد تمكن أحد رؤساء القبائل التى كانت قد إستقرت على ساحل ليبيا أن يجمع إليه عدة قبائل كانت قد إستقرت على ساحل ليبيا من الشعوب الهندو — أوروبية وان يهجموا تحت إمرة زعيم يسمى "مربى" على مصر ومعهم نساؤهم وأطفالهم، فدارت بينهم وبين مرنبتاح معركة عند مكان يسمى "بربر" فى غربى الدلتا، وقد إستمرت هذه المعركة ست ساعات انتهت بهزيمة ساحقة للمهاجمين ففر منهم من فر، وقتل من قتل، ووقع تسعة آلاف من الأسرى فى أيدى المصريين (٦٧).

ولم يطل حكم مرنبتاح بل مات بعد أحد عشر عاماً ودفن فى قبره فى طيبه. وقبل أن نترك أيام حكم هذا الملك يحسن بنا أن نشير إشارة عابرة إلى موضوع كثيراً ما نصادفه مقروناً باسم هذا الفرعون وهو موضوع خروج بنى إسرائيل من مصر، فمنذ العثور على إسم إسرائيل على لوحة انتصاراته إعتقد الكثيرون أن الخروج حدث فى عهده، ولكن هذا الرأى لم يوجد سنداً من التاريخ وظلت الآثار المصرية على صمتها تجاه هذا الأمر (٦٨).

ولكن تحقيق هذا الموضوع من تاريخ العبرانيين واحتساب الزمن، ثم ما جاء من نتائج التنقيبات الأثرية فى فلسطين جعل خروج بنى إسرائيل فى عهد مرنبتاح أمراً يكاد يكون مستحيلاً، ويجب أن يكون فى عهد الأسرة الثامنة عشرة، ولهذا نرى كثيراً من أسماء الفراعنة تتردد فى الأبحاث المختلفة فبعض الباحثين يرى أن فرعون الخروج كان تحوتمس الثالث، وبعضهم يرى أنه كان إبنه أمنحوتب الثانى، كما أن هناك من يقول أنه كان أمنحوتب الثالث ووصل الأمر ببعضهم إلى القول بأن خروجهم من مصر كان على أثر موت إخناتون، وأراد أن يربط بين خروجهم من مصر وثورة إخناتون الدينية (٦٩).

بل ظهر أخيراً رأى آخر وهو أن خروج بنى إسرائيل من مصر لم يكن فى عهد مرنبتاح وإنما كان قبله بنحو ٤٠٠ سنة إذ كان فى عهد الهكسوس، وكل ما نستطيع أن نؤكده أنه لم يظهر فى الآثار المصرية أو الآثار الفلسطينية ما يحدد وقت الخروج تحديداً تاماً وسيظل هذا الموضوع مفتوحاً للمناقشة حتى ظهور أدلة جديدة[٧٠].

نهاية الأسرة التاسعة عشرة
ومشكلة تتابع الملوك

سبقت الإشارة إلى أن مصر قد تعرضت فى نهاية الأسرة التاسعة عشرة إلى موجة من الاضطرابات والقلاقل الداخلية والمتاعب الخارجية وذلك فى أعقاب مرنبتاح حيث خلفه على العرش ثلاثة ملوك وملكة واحدة، وكانوا ملوكاً ضعافاً حكموا مصر مدداً قصيرة ثم ضمرت بعدهم شجرة الأسرة وانتقل الحكم إلى أسرة جديدة أسسها ست نخت وهى الأسرة العشرون (٧١).

وتناول العلماء أمر تتابع هؤلاء الملوك وعلاقاتهم ببعضهم البعض وثار بينهم جدل طويل، حتى نادى بعضهم بوجود مشكلة لوراثة العرش مثل مشكلة حتشبسوت والتحامسة، وتقوم مرة أخرى على إثبات الخراطيش الملكية ومحوها لذلك أصبح تعاقب الملوك الذين خلفوا مرنبتاح على العرش موضع جدل طويل بين العلماء وعلى أية حال فإن نتيجة الدراسات التى قام بها كل من جاردنر، والدريد، وبيكارات قد انتهت إلى ترتيب الملوك بعد مرنبتاح كالتالى (٧٢):

أمنمس، وسيتى الثانى وسبتاح (رمسيس، وسبتاح ثم مرنبتاح، وسبتاح)، وتاوسرت وصية على سبيتاح أولاً ثم منفردة بالحكم بعد ذلك، وأخيراً فترة قدرها جاردنر بعشر سنوات استولى فيها على السلطة باى السورى (ارسو فى بردية هاريس) (٧٣).

وهناك إشارات من هذه الفترة عن اضطراب داخلى شمل منطقة طيبة أراد أصحابه من أنصار آمون أن يعبروا به عن سخطهم على فراعين الرعامسة واستغل آمنمس هذا السخط ونادى بحقه فى العرش مكونا حكومة فى مصر العليا، اعترف بها الطيبيون وأن كان هذا غير مقبول إلا بانقسام مصر إلى دولتين فى هذه الفترة وهذا ما لم يقل به أحد من المؤرخين ومع ذلك فهو يشير إلى الفوضى التى سادت البلاد وقت ذلك ويبدو أن ضعف الملوك وقصر مدة حكم كل منهم قد أدى إلى اضطراب الأمور وتعقيدها وزادت الحالة سوءاً بالتدريج حتى آلت آخر الأمر إلى فوضى شاملة وصفتها بردية هاريس (٧٤).

على كل الأحوال فإن كل هذه الأمور لم تعد ذات موضوع خاصة بعد أن قام أحد الباحثين بإصدار رسالته عن نهاية الأسرة التاسعة عشرة فى مصر واستطاع بعد أن عرض للأراء وحلل المصادر والنصوص أن يصل إلى ترتيب أقوم وأوضح لترتيب الملوك الأواخر لهذه الأسرة (٧٥).

فبعد وفاة مرنبتاح اعتلى عرش مصر ولده وولى عهده سيتى مربتاح (سيتى الثانى) الذى كان متزوجاً من الملكة طاخعت ابنة رمسيس الثانى وانجب منها أمونموس ثم تزوج سيتى أيضاً من تاوسرت التى ربما كانت سليلة البيت المالك، وأما أن يكون قد أنجب منها سبتاح، أو أن سيتى قد تزوج من زوجة أجنبية هى أم سبتاح (٧٦).

وما أن توفى سيتى الثانى حتى بدأت بوادر النزاع حول العرش حيث ساندت الملكة تاوسرت الملك الصغير السن سبتاح، وساعدته فى الوصول للعرش خاصة بعد وفاة الابن الأكبر لسيتى الثانى المدعو سيتى مرنبتاح فى حياة أبيه، ولكن اعتلاء سبتاح للعرش ووجوب سيدة وصية عليه قد أغضب أمونمس الذى رأى أنه صاحب الحق الشرعى فى حكم مصر، ولذا قام بثورته التى اسلفنا ذكرها، والتى بدأها من الجنوب بمساعدة كهنة آمون كما يغلب على الظن، ثم زحف إلى الشمال وخلع سبتاح من على العرش ثم حكم مصر، ولكن ثورته باءت بالفشل إذ تكاتف كل من سبتاح وتاوسرت ومعهما حامل الختم (ارسو) وبعض كبار رجال الدولة واستردوا العرش وأكمل سبتاح ستى حكمه حتى وفاته، وهنا سنحت الفرصة لتاوسرت كى تتوج نفسها ملكة على مصر شمالاً وجنوباً قرابة العامين.

وما أن اختفت تاوسرت من على مسرح الأحداث حتى حاول باى (ارسو) أن يمسك زمام الأمور فى يده ويتولى السلطة فى البلاد. إلا أنه دخل فى نزاع مع ست نخت استمر حوالى العام وانتهى لصالح ست نخت الذى أعلن تأسيس أسرة جديدة هى الأسرة العشرون (٧٧).

وعلى هذا يكون الترتيب الأكثر ترجيحاً لدى الباحث والذى نرى أنه من الأجدى أن نأخذ به ونسير على هديه معتمدين على ما حلله من نصوص ووثائق فى ترتيب الملوك الأربعة الأواخر من الأسرة التاسعة عشره هو كالتالى:

سيتى الثانى، وسبتاح: (أمونمس) وسبتاح، وتاوسرت.

وأهم ما فى هذا الترتيب هو وضع أمونمس الذى اعتبر نفسه صاحب الحق الشرعى فى حكم مصر بعد وفاة أبيه الملك سيتى الثانى، وليس أخاه غير الشقيق سبتاح الذى كان أبنا لزوجة ثانوية لذا فقد قام بثورته التى باءت بالفشل واسترد سبتاح العرش وأكمل حكمه، وبذلك حسم الأمر فى وضع أمونمس فى قائمة ملوك هذه الأسرة على أنه مجىء محاولة اغتصاب للعرش واقصاء شقيقه من عليه، على أن شقيقه نجح فى استعادة عرشه مرة أخرى كما سلف الذكر [٧٨].

وهكذا وقبل أن نفصل الحديث عن كل من الملوك الأربعة فلعل من الخير أن نوجز الأسباب التى أدت إلى انتهاء الأسرة التاسعة عشرة، فكان بعض منها إقتصادياً نظراً لانخفاض موارد الدولة مما أثر على خزائنها وبالتالى يتضح لنا ذلك من قلة ما خلفه لنا ملوك هذه الفترة من منشأت، وكان بعض من هذه الأسباب سياسياً تمثل فى ازدياد تحركات شعوب البحر نحو الحدود المصرية وكذلك تسلل القبائل الليبية إلى غرب الدلتا «وهو أمر قد فصلناه عند الحديث عن أخريات عهد رمسيس الثانى وولده مرنبتاح»[٧٩]، هذا فضلاً عن ازدياد نفوذ الكهنة الذين ربما ساعدوا أمونمس فى الوصول للحكم، وأخيراً فلعل من أهم هذه الأسباب التى أودت بالأسرة قد كان اجتماعياً يتمثل فى انتشار الرشوة والفساد وسوء الإدارة وازدياد السرقات، التى لم تسلم منها حتى مقابر الملوك، وكذا ضياع هيبة الحكم والملك وعدم احترام الشعب لملكه، فضلاً عن تولى العديد من الأجانب المتمصرين لبعض المناصب الإدارية العليا وكان بعضهم من غير الموالين الولاء الكامل لمصر أو فرعونهم، ولعل أصدق دليل على ذلك هو نشوب الصراع بين البيت المالك وحامل الختم باى ذى الأصل الأجنبى [٨٠].

الملك سيتى الثانى:

كان سيتى الثانى (سيتى مرنبتاح) هو الوريث الشرعى للملك مرنبتاح وخليفته المباشر الذى أنجبه من الملكة أيست نفرت إحدى بنات الملك رمسيس

الثانى، وقد صور سيتى كأمير على عدة تماثيل للملك مرنبتاح عثر عليها فى مناطق عديدة من مصر حيث كان ولياً للعهد خلال عهد أبيه، كما حمل من الألقاب ما يشير إلى تدرجه فى بعض المناصب العليا كالأمير الوراثى، وحاكم الأقليم ورئيس الأرضين والقائد الأعلى للجيش، فضلاً عن ابن الملك الأكبر، وابن الملك من جسده وحامل المروحة على يمين الملك. وولى العهد فى مكان جب على عرش جب وأخيراً مسئول الأرضين نيابة عن أبيه، وتجدر الإشارة إلى أن معظم هذه الألقاب السالفة الذكر كانت تمنح للأمراء وأولياء العهد خلال الدولة الحديثة ولا سيما خلال عصر الأسرة التاسعة عشرة [٨١].

أما عن تاريخ توليه العرش فلغنا لا نكاد نعرف عمره حين ذلك، ففى حين يرى البعض أنه كان فى السادسة بعد الخمسين فإن البعض الآخر من خلال دراسة المومياوات الملكية يرى أنه كان فى السابعة عشرة من العمر عند بداية حكمه، كما يقدرون لعمره حدا أقصى هو خمس وستون عاماً، ويرى آخرون أن عمره لم يتجاوز الواحدة بعد الستين على أنه بدراسة مومياء هذا الملك قد ثبت أنه كان رجلاً فى منتصف العمر، وعلى أى الأحوال فإن الرأى الغالب أنه قد اعتلى عرش مصر كبيراً فى السن خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار زواجه من الأميرة طاخعت فى العام الثالث والخمسين من عهد رمسيس الثانى [٨٢].

ونعرف لسيتى الثانى زوجتين على أقل تقدير هنا طاخعت، وتاوسرت، هذا بالإضافة إلى زوجة ملكية تتبعه على إحدى اللوحات الحجرية المحفوظة بمتحف اللوفر تدعى سوترر، وتبدو من أسمها أجنبية الأصل.

أما عن أبناء سيتى الثانى فلا نكاد نعرف منهم بصورة مؤكدة سوى ابنه المدعو سيتى مرنبتاح.

حكم سيتى الثانى ما يقرب من ستة أعوام، ولعله لم يخلف وراءه من المنشآت الكاملة مثل ما تركه أسلافه وذلك شأنه شأن سائر ملوك هذه الفترة كما أسلفنا الذكر، إلا مجموعة من النقوش واللوحات المتناثرة هنا وهناك، ودفن سيتى الثانى بالمقبرة الملكية التى أعدت له بوادى الملوك والتى تحمل رقم ١٥ [٨٣].

سبتاح :

تولى عرش مصر بعد سيتى الثانى الملك رمسيس سبتاح (مرنبتاح سبتاح فيما بعد)، ويبدو أن انتقال العرش قد تم إليه فى هدوء ودون أى منازعات تذكر، ويستدل على ذلك من أحد النصوص التى وردت على إحدى الشقافات المحفوظة بمتحف القاهرة والتى تذكر أن الصقر قد طار إلى السماء أى سيتى واعتلى آخر مكانه.

وقد تعددت الآراء واختلفت فى نسب هذا الملك، وفيما إذا كان هو الأمير رمسيس سبتاح أم الأمير سبتاح؟!.

حيث عثر لهما على آثار سابقة على عهد هذا الملك، ومما لا شك فيه أن سبتاح كان ابناً لملك مما جعل حامل الختم ياى يحمل لقب مثبت الملك على عرض أبيه، وربما ذلك إشارة إلى أنه قد ساعد سبتاح فى استعادة عرشه عقب إخماد ثورة أمونمس، واعتقد البعض أن سبتاح كان أبنا لسيتى الثانى من زوجة أجنبية اعتقد البعض أنها سوتور، واعتقد البعض الآخر أن والده هو مرنبتاح وأنه قد أنجبه فى أواخر عهد رمسيس الثانى، افترض آخرون أنه ابن لسيتى الثانى من تاوسرت، إلا أن الباحث يرجح أن "سبتاح" كان ابنا لسيتى الثانى وأنه هو نفسه الأمير رمسيس سبتاح وأن أمه هى الملكة سوتر صاحبة نقش اللوفر التى كانت أغلب الظن زوجة ثانوية لسيتى الثانى [٨٤].

وأغلب الظن أن تاوسرت — التى ربما لم يكن لها اولاد من سيتى الثانى — قد ساندت سيتاح فى اعتلائه العرش ضد آمون مصر صاحب الحق الشرعى فى العرش باعتباره أبنا لزوجة رئيسية سليلة بيت ملكى هى الملكة "طاخعت" ابنة رمسيس الثانى، لعل ذلك كان من أهم الأسباب التى دفعت آمون مصر للقيام بثورته إبان حكم الملك "سبتاح" الذى كان صغيراً فى السن وأبنا لزوجة ثانوية.

أما عن ألقاب "سبتاح" حينما كان أميراً فلا تكاد نجد له غير لقب ابن الملك، وابن الملك من جسده، لعل ذلك يدلنا على أنه لم يتقلد أى وظائف عليا

مثل التى تقلدها أبوه عندما كان أميراً أو كأخيه من أبيه سيتى مرنبتاح الذى كان ولياً للعهد الذى توفى أغلب الظن فى حياة أبيه، بل أن كل ذلك مما يعضد حداثة سن هذا الأمير رمسيس سبتاح التى منعته من أن يكلفه بأى مهام وظيفية (٨٥).

وافترض البعض أن سبتاح عندما تولى الحكم كان عمره يتراوح بين سبع وتسع سنوات فى حين افترض البعض الآخر أنه كان يتراوح بين عشرة وتسعة عشر عاماً ولعل ذلك الأقرب إلى الصحة.

واتخذ سبتاح الألقاب الفرعونية المعتادة إلا أنه اضطر إلى تغيير أسس الولادة والعرش فى السنة الثالثة وذلك بعد إخماد ثورة أمونمس، فبالنسبة للاسم الشخصى كان اسمه رمسيس سبتاح (أى رع أنجبه ابن بتاح) فى الفترة الأولى من حكمه أما فى الفترة الثانية فقد أصبح اسمه (مرتبتاح سيتاح-محبوب بتاح ابن بتاح).

أما بالنسبة لاسم العرش فى فترة حكمه الأولى فكان "سخع بن رع ستب ابن رع" سخع بن رع مرى آمون" (أى المتوج بواسطة رع محبوب آمون أو مصطفى رع)، وفى فترة حكمه الثانية أصبح اسمه "آخ بن رع ستب بن رع" (أى مجد رع) (٨٦).

ولعله لم يعثر حتى الآن على ما يشير صراحة إلى وجود زوجة ملكية أو أبناء لهذا الملك، ما عدا العثور على صندوق من الألبستر لأوانى الأحشاء ذكرت عليه زوجة الملك "تى-عا" إلا أن البعض فسرها على أنها أم الملك وليست زوجته.

ومع الأخذ فى الاعتبار الفترة التى قام فيها أمونمس بثورته خلال حكم سبتاح فقد ظل سبتاح على عرش مصر تحت وصاية تاوسرت ثم مساندة باى حتى السنة السادسة من بداية حكمه، وودع سيتاح حياته تاركاً عرش مصر، ودفن بمقبرته الملكية بوادى الملوك رقم ٤٧ دون أن يترك لنا من المنشآت المعمارية أو المخلفات الأثرية ما يمكن ذكره وذلك لنفس الأسباب التى ذكرت بالنسبة لسيتى الثانى المتمثلة فى قلة موارد البلاد وضعف خزانتها (٨٧).

أمنموس:

لم تمط الآثار اللثام صراحة حتى الآن عن ترتيب هذا الملك بين ملوك نهاية الأسرة التاسعة عشرة، إلا من ذلك الترتيب الذى انتهى إليه الباحث أحمد سعيد فى رسالته وأسلفنا ذكره من أن أمنموس قد ارتقى العرش لفترة محدودة خلال حكم سبتاح، ومن المحتمل ظهور اسم هذا ضمن قائمة مانيتون باعتبار اسمه الاسم قبل الأخير فى ملوك نهاية هذه الأسرة.

وفى حين يرى البعض أن هذا الملك ابن لسيتى الثانى والملكة تاخعت ابنة رمسيس الثانى وأنه قد اعتلى العرش بعد أبيه، فإن البعض الآخر يرى أنه كان ابناً لرمسيس الثانى واعتلى العرش بعد مرتبتاح، وأعتقد آخرون بأن أمنموس كان حفيداً لرمسيس الثانى من ابنته "تاحعت" التى دعمت أحقيته فى العرش، وربما كان أمنموس أحد نواب الملك فى كوش ولم يكن أبناً لأى ملك ولا تسرى فى عروقه أية دماء ملكية.

ولعل أقرب هذه الآراء للصواب هو كون أمنموس أبناً لسيتى الثانى من زوجته "تاخعت" باعتبارها "الزوجة الملكية العظمى تاخعت" التى صورت على تماثيل سيتى الثانى، وأيضاً هى نفسها "أم الاله وأم الملك تاخعت" التى ظهرت ضمن نقوش مقبرة أمنموس (رقم ١٠) بوادى الملوك، إذ يحتمل أن أمنموس قد وجد أحقيته فى العرش قد أغتصبها ابن صغير لأبيه وربما كانت أمه أجنبية، ألا وهو سبتاح، وربما ذلك قد تم بمساعدة الملكة تاوسرت بعد وفاة أمه تاخعت، وبعد أن اطمأن لمعاضدة كهنة آمون قام بثورته حيث استقل بحكم الجنوب بل لعاه زحف نحو الدلتا وتمكن من خلع سبتاح، وهو ما لم تؤكده الآثار، وإنما يستدل عليه من اتخاذه لجميع الألقاب الفرعونية كملك للوجهين، كما تفاخر فيما بعد حامل الختم باى بأنه "ثبت الملك سيتاح على عرش أبيه وذلك بعد أن تم إخماد ثورة أمنموس[٨٨].

ومن المحتمل أن عمر أمنموس خلال عهد سبتاح أكثر من عشرين عاماً، فى حين يرى البعض أنه كان يناهز التاسعة والثلاثين عندما تولى العرش إبان عهد سيتاح.

أما عن فترة حكمه فاقترض البعض أنه حكم أربع سنوات على الأكثر على اعتبار أنه حكم فترة مستقلة عقب مرنبتاح، بينما افترض البعض أنه حكم سنة واحدة كسلف لسيتى الثانى، كما احتسب له البعض ثلاث سنوات تقريباً خلال عهد سيتى الثانى، ويرجع اختلاف الآراء هنا إلى أن الملك أمنموس لم يعثر له حتى الآن على آثار عليها نقوش مؤرخة بأى من السنين التى صاحبتها أسماؤه وألقابه صراحة، وانتهى أحمد سعيد بعد عرض كل هذه الفروض وغيرها إلى أن فترة حكم أمنموس الفعلية قد بلغت حوالى سنة وثلاثة أشهر واثنى عشر يوماً.

أما عن أسرة الملك فضلاً عن معرفتنا بأمه ناخعت التى أسلفنا الحديث عنها، فإننا نعرف زوجته الملكة باكت ورنرو التى ظهرت لها نقوش عدة على جدران صالة الأعمدة بمقبرته الملكية بوادى الملوك.

ولا نعرف حتى الآن ما إذا كان أمنموس قد مات ميتة طبيعية أم أنه قد قتل، وهل دفن فى مقبرته بوادى الملوك، أم أن عدم العثور على مومياته يدل على أنه لم يدفن فيها؟ لا سيما أن نقوش هذه المقبرة قد محى معظمها عن عمد، وربما تم ذلك بواسطة اتباع الملك سبتاح خلال فترة حكمه الثانية، هذا فضلاً عن أنه لم يعثر على أثاث جنائزى فى هذه المقبرة حتى الآن، بل أكثر من ذلك أن هناك أجزاء معمارية منها لم يتم نحتها كاملاً (٨٩).

تاوسرت:

كان لتاوسرت مكانتها ودورها البارز فى نهاية الأسرة التاسعة عشرة على الرغم من أنها لم تكن تحمل لقب ابنة ملك على أى من آثارها المكتشفة حتى الآن، ولعلها كانت ابنة لأحد الملكين رمسيس الثانى أو مرنبتاح، ولعل هذا ما دفعها إلى اعتبار نفسها وريثة شرعية للعرش حيث اتخذت لقب الأميرة الوراثية، ولعل جهلنا بأم تاوسرت يرجع على عدم التأكد من والدها.

على كل الأحوال فقد بدأ نجمها يسطع فى الأفق منذ عهد زوجها سيتى الثانى حيث حملت لقب زوجة الملك العظمى، ويعتقد البعض أنها قد بدأت فى بناء

مقبرتها الملكية فى نهاية حكم زوجها، وازداد نفوذ تاوسرت وقويت شوكتها فى عهد ابن زوجها سبتاح حيث رفعته للعرش وأصبحت وصية عليه، واتخذت فى عهده ألقاب زوجة الإله، سيدة الأرضين، سيدة مصر العليا والسفلى، وكان الدور الذى لعبته تاوسرت فى فترة حكم سبتاح الثانية أهم من الدور الذى قامت به فى الفترة الأولى، ولعل ذلك كان أحد العوامل التى ساعدتها على تبؤ العرش بعد وفاة سبتاح [٩٠].

وكل ذلك إنما يدل على ما كانت تتمتع به هذه السيدة من حنكة سياسية اكتسبتها على الأرجح بحكم سنها، ولعلها قد ارتقت عرش مصر فى الثامنة والخمسين من عمرها أو فى الحادية والسبعين تبعاً لاختلاف الآراء فى سن وفاتها الذى يراه البعض الآخر فى الثالثة والسبعين.

وكان جلوس تاوسرت على العرش مجرد إقرار للواقع حيث كانت هى المسيرة لأمور البلاد بمساعدة باى ابان حكم سبتاح، فلما توفى انفردت بالسلطة واتخذت ألقابها الملكية كفرعون لمصر وشرعت فى بناء معبدها الجنائزى واستبدلت بخراطيش سبتاح فى مقبرتها خراطيش زوجها سيتى الثانى لتؤكد على امتداد حكمها منذ وفاته [٩١].

ويرجع تاريخ انفرادها بالعرش فى السنة السادسة من حكم سبتاح، وعلى الرغم من أن مدة حكمها لم تتجاوز العامين فأنها ضمت فى تاريخها فترة حكم سبتاح واعتبرت عهدها يبدأ منذ وفاة زوجها سيتى الثانى ولا تكاد تعرف كيف ماتت تاوسرت، وربما كانت ميتتها طبيعية، وربما ازيحت من على العرش أثر تدبير سياسى محكم ربما من قبل باى الذى أمسك بزمام الأمور لمدة تقارب السنة حتى أقصاه ست نخت مؤسس الأسرة العشرين.

سبق أن ذكرنا أن تاوسرت قد شرعت فى نحت مقبرتها بوادى الملوك (رقم ١٤) خلال حكم سبتاح، وقد اغتصبها ست نخت ووسع بها وغير الألقاب الملكية بما يناسبه، كما عثر داخل تابوته على مومياء اعتقد أنها لتاوسرت بناء على أن ملكات هذا العصر الآخريات دفن فى وادى الملكات [٩٢].

هوامش الفصل الثانى

١- رمضان السيد، تاريخ مصر القديمة، الجزء الرابع، القاهرة ٢٠٠٨، ص ٩.

2- Zivie. C., Ramses I in LÄ, V, p. 100 – 109.

٣- عبد الحميد زايد، مصر الخالدة، الجزء الثانى، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٢٣٥.

4- Winlock, The Temple of Ramesses I at Abydos, p. 10.

5- Osing. J., Der temple Sethos I, in Gurna, Die Reliefs und inschriften, I, Mainz, 1977, p. 42.

٦- رمضان السيد، المرجع السابق، ص ١٣.

٧- المرجع السابق، ص ١٣.

8- Stadelman, Sethos I, in, LÄ, V, p. 911. F.

9- Ibid.

10- Ibid.

11- Grdseloff, un stele seythoplitaine de Roi Sethos I, Le Caire 1949, p. 13 – 20.

12- Op – cit., p. 17.

13- Ziegler, C., (ed), the Pharahs, Milan, 2002, p. 178.

14- Ibid, p. 180.

15- Ibid.

16- Reevesé. N., Ancient Egypt : The discoveries A year – by – year, Chronicle – London 2000, p. 210.

17- Ibid, p. 205.

18- Osing. J. Op – Cit., p. 63 – 70.

19- Ibid.

20- Mahfouz, E., La politique des souverains du Nouvel Empire au desert oriental, Lille (These inedited 2002 Soutenue à Paris), p. 123 – 126.

٢١- يراجع الفصل الرابع من هذا الكتاب.

22- Ziegler, C., (ed), Op – Cit., p. 189.

23- Kitchen. K.A., Pharoah triumphant, the life and times of famesses II King of Egypt, Warmister, 1982, p. 20 – 24.

24- Ibid.

٢٥- زكريا رجب عبد المجيد، النفوذ الديني لمصر فى بلاد النوبة عصر الدولة الحديثة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ٢٠٠٢، ص ٣٠٦.

26- Grdseloff, Op – Cit., p. 18.

27- Lalouette. C., Mémories de Ramses le Grand, Paris, 1993, p.21.

28- Mahfouz, E., Op – Cit., p. 72.

٢٩- رمضان السيد، المرجع السابق، ص ٢٧.

٣٠- المرجع السابق، ص ٢٧.

31- Kuentz, La Bataille de Radech, Le Caire, 1928, p. 237.

32- Ibid.

٣٣- أحمد فخرى، مصر الفرعونية، ص ٣٤٧.

34- Breasted, The Battle of Kadesh, Chicago, 1903, p. 81 – 84.

٣٥- رمضان السيد، المرجع السابق، ص ٣٠.

36- Kuentz, Op – Cit., p. 319.

37- Ibid.

38- Ibid.

٣٩- رمضان السيد، المرجع السابق، ص ٣٠.

40- Kuentz, Op – Cit., p. 320.

41- Ibid.

42- Ibid, p. 326.

43- Breasted, Op – Cit., p. 83.

44- Ibid.

٤٥- عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم "مصر والعراق"، القاهرة ١٩٧٩، ص ٢٣٠ – ٣٢١ .

٤٦- المرجع السابق.

47- Sturm. J., La guerre de Ramses II Contre les Hittutes, Bruxelles, 1996, p. 31.

48- Ibid.

49- Edel. E., "Der Brief des agyptischen Wesirs Pasijara an den Hethiterköing. Hattusili und verwandte Keilschrift briefe" NAWG, 4, 1978, p. 118 – 158.

50- Ibid.

٥١- بارى كمب، تشريح الحضارة، ترجمة أحمد محمود، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٤٤٦.

٥٢- المرجع السابق.

٥٣- رمضان السيد، المرجع السابق، ص ٤١.

54- Sturm. J., Op – Cit., p. 38.

٥٥- عن معاهدة السلام يراجع رمضان السيد، المرجع السابق، ص ٣٧ – ٣٩.

٥٦- عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ٢٦٨ – ٢٧٠.

57- Kitchen. K. A., Op – Cit., p. 121.

58- Ibid.

٥٩- تقارير حفائر المجلس الأعلى للآثار بمنطقة زاوية أم الرخم عن مواسم ٢٠٠٢ وحتى ٢٠٠٥.

60- Kuentz, Op – Cit., p. 332.

٦١- كريستيان ليبلان – زوجات رمسيس الثانى وبناته وأبناؤه، ترجمة ماهر جويجاتى، القاهرة ٢٠٠٧.

٦٢- المرجع السابق.

٦٣- المرجع السابق.

٦٤- عن معابد رمسيس الثانى فى النوبة يراجع زكريا رجب عبد المجيد، المرجع السابق.

65- Bietak. M., LÄ, V., P. 128.

٦٦- محمد بيومى مهران، المرجع السابق، ص ٢٩٢.

٦٧- رمضان السيد، المرجع السابق، ص ٨٣ – ٨٤.

٦٨- عن لوحة إسرائيل وخروج بنى إسرائيل فى عصر مرنبتاح يمكن الاعتماد على تحليلات وتفنيدات أستاذنا الدكتور/ رمضان السيد، حيث قام بنشر كامل لهذه اللوحة الموجودة بالمتحف المصرى، ويمكن مراجعة الآتى :

- رمضان السيد "اللوحة ذات النصين ليست لوحة إسرائيل"، مجلة كلية الآداب، جامعة المنيا "العدد الثامن عشر" الجزء الأول، أكتوبر ١٩٩٥، ص ٢٣٣ – ٣٦٦.

- رمضان السيد، تاريخ مصر القديمة، القاهرة ٢٠٠٨، ص ٩٣ – ١١٤.

69- Yoyott. V., Les pharaons, Paris, 1988, p. 82.

يرى عبد الحميد زايد أن الخروج لبنى إسرائيل قد تم فى عهد امنحتب الثانى أو ربما والده تحتمس الثالث. يراجع عبد الحميد زايد، مصر الخالدة، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٢٨٨-٢٩٢. ويؤكد عبد المنعم عبد الحليم سيد أن فرعون الخروج هو رمسيس الثانى، وهو رأى غير مؤكد. يراجع عبد المنعم عبد الحليم سيد، البحر الأحمر وظهيره، الإسكندرية ١٩٨٨، ص ٥٢٢ – ٥٢٥.

٧٠- عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٦٦، هامش رقم "٨٨"، أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٣٦٠، هامش رقم "١".

71- Yoyotte. V., Op – Cit., p. 87.

72- Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1961, p. 445. Aldred. C., New Kingdom Art in Ancient Egypt, London, 1961, p. 325.

73- Gauthier. H., Le Livre des Rois d'Egypte III, p. 130 – 141.

74- Drioton. E., Vandier. J., L'Egypte, Paris, 1962, p. 631.

٧٥- أحمد سعيد، "نهاية الأسرة التاسعة عشرة من (١٢٠٤ – ١١٨٤ ق.م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة ١٩٨٩.

٧٦- المرجع السابق، ص ١٥٦.

77- Kitchen, K., The tuentieth Dyaasty Revisited, JEA 68, 1982, p. 116 – 117.

٧٨- أحمد سعيد، المرجع السابق.

٧٩- أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٣٧٠ – ٣٧١، عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٢٧.

٨٠- المرجع السابق.

81- Kitchen. K., in, L Ä V., p. 917 – 918.

82- Drioten – Vandier, Op – Cit., p. 361. F.

٨٣- رمضان السيد، المرجع السابق، ص ١٤٦ – ١٤٧.

84- Hawass, Z., Images Silencieuses : Les Femmes dans L' Egypte Pharaonique, Paris, 2005, p. 25 – 30.

85- Silverman. D.P., Ancient Egypt, London, 1997, p. 83.

86- عن الملك سبتاح يراجع Kitchen, in L Ä V., p. 955 – 956.

87- Ibid.

88- عن أموغس يراجع Von Beckerath, in L Ä I, P. 201.

89- Week. K., Atlas of the Valley of the Kings, ed Theban Mapping project, Cairo, 2000, p. 35.

90- عن الملكة تادسرت يراجع Kitchen. K., in L Ä V I, p. 244 – 245.

91- Hawass. Z., Op – Cit.

92- Ibid.

الفصل الثالث

الأسرة العشرون

الأسرة العشرون

سبقت الإشارة إلى تغير مقاليد الأمور فى منطقة الشرق الأدنى القديم بزوال بعض القوى وظهور قوى أخرى غيرها أكثر فتوة وشباباً وكان على مصر أن تراقب عالم البحر المتوسط وأن تحمى نفسها منه، لذا لجأت إلى إقامة عاصمتها من قبل فى مصر السفلى، ولما أصبح المركز الإدارى يقع فى أقصى الشمال، فقد أصبحت مصر العليا مستقلة إلى حد ما، ونتيجة لذلك نجد أنها نزعت عن نفسها كل مقومات القوة فى انفصال قطريها ومملكتها، وإلى جانب هذا العامل الذى لا يمكن تفاديه أو علاجه، فقد ظهر عدم توازن آخر سوف يزيد الأمر سوءاً أيضاً فى أمرين ثانويين ولكن لا يمكن إغفال أثرهما بأى حال من الأحوال، وهما:

١-أن طيبة وكهنة آمون أصبحوا يمتلكون الكثير من الهيبة فى نظر المصرين وظلت بالنسبة لأهل الشمال تمثل مركزاً يجذب الجميع ويسبب المضايقات نظراً لإقامة العاصمة الإدارية القوية فى الدلتا.

٢-عدم وجود رؤساء أو ملوك كبار يستطيعون هيبتهم الشخصية و بواسطة حسن تصرفهم أن يحتفظوا للبلاد بنوع من الوحدة أو شبه الوحدة فى ذلك الجسد الكبير المحطم.

وكان لهذين العاملين أكبر الأثر فى تفكك مصر وسقوطها السريع، وأصبحت بلاد الملوك الكبار أمثال أمنمحات الأول، وسنوسرت الثالث، وتحتمس الثالث، فريسة لمن يطمع فيها ويريد الاستيلاء عليها، فموقعها الجغرافى المتميز جعلها باستمرار عرضه للأطماع، ولكن خطر هذا الموقع لم يتضح إلا عندما أصبح البحر المتوسط آهلاً بالسكن ومتقدماً فى الحضارة مركزاً للاشعاع الثقافى. وانتقال مركز التقاء حضارات العالم القديم فى الشمال. جلب الكثير من النكبات على مصر، إذ تطلع الجميع إليها، وكل هذه المظاهر التاريخية التى تؤثر فى التوازن القديم للحضارات تجلب معها الانهيار لبعض أصحاب هذه الحضارات فى حين أنها تدفع بالبعض الآخر إلى مكان الصدارة.

الملك ست نحت

انتهى أمر الأسرة التاسعة عشرة كما أسلفنا الذكر بإزاحة تاوسرت من على العرش بتدبير سياسى محكم، أو بوفاتها وفاة طبيعية، وإمساك باى - أرو بزمام الأمور والحكم فى البلاد لمدة تقارب العام، حتى تمكن أحد الأمراء المسنين المسمى "ست نخت" من عزل باى وتأسيس الأسرة العشرين، ولعله قد اعتمد فى ذلك على رد فعل شعبى أو أنه قد نال تأييد كهنة آمون، وعلى الرغم من طول فترة الفوضى التى تعرضت لها البلاد من قبل، فإن أسرته قد نجحت أيضاً فى الحصول على بعض الهيبة لمصر فى الخارج.

وإن كنا نجهل طبيعة العلاقة التى كانت تربطه بالبيت المالك السابق فإن البعض يعتقد أنه أحد أبناء رمسيس الثانى الكثيرين، واستمر حكم ست نحت عامين فقط، ونجح فى إعادة النظام والهدوء بوجه عام فى البلاد دون أن يقترن ذلك بعنف يذكر.

وكان من الطبيعى أن يعتبر مؤسسو الأسرة الجديدة أنفسهم ساخطين منقذين موهوبين تخيرهم الأقدار، شأنهم فى ذلك شأن كل جماعة حاكمة جديدة، وعندما صور دعاة هذه الأسرة رأيهم فيما مرت به مصر بين عهد مرنبتاح وعهد ست نخت قالوا: "وقعت مصر فريسة للاضطرابات وأصبح كل إنسان فيها يقنن لنفسه، ولم يكن لأهلها زعيم لسنوات عدة، وكانت بجرد بلد، موظفين وعمد، يفتك الإنسان فيها برفيقه كبيراً كان أم صغيراً، وتلت ذلك سنوات فارغة، ظهر بينهم فيها أرسو الخورى الذى اعتبر نفسه أميراً، وحاول أن يخضع لبلاد كلها لرأيه وألزمها بدفع الضرائب، وأصبح كل إنسان يلتمس رفيقاً يسايره فى طريقه خوفاً من أن يعتدى، وعوملت الأرباب معاملة البشر، وامتنع هو عن تقديم القرابين فى المعابد، وعندما شاء الأرباب أن يظهروا رحمتهم ويصححوا الأوضاع فى مصر ويعيدوها إلى سيرتها الأولى، نصبوا ولدهم الذى خرج من صلبهم "ست نخت" حاكماً على البلاد كلها وجعلوه على عرشهم الكبير. فتجلى على هيئة خبرى

ست الغضوب وأعاد السلام إلى الأرض القلقة وفتك بالغادرين فيها وطهر عرش مصر العظيم".

ولعل ما جاء به هؤلاء الدعاة عن الفترة القلقة التى سبقت عصرهم الجديد صحيح، وكذلك تمسحهم فى الدين وغضب الأرباب على الأمس وأملهم فى الغد مما أوحت به التقاليد، أما تضخيمهم لشأن "ست نخت" فقد كان مسرفاً بعض الشيء فالرجل الكهل الذى زكته للناس سنه وخبرته لم يعمر فى الحكم بالشكل أو الهيئة التى صوروه عليها، ولعل ذلك هو الذى دفعه للقيام بما قام به رمسيس الأول فى ضمان الحكم لأسرته وتقديم ولده أمامه ليتم ما أراده هو ولم تسمح له به سنه[1].

وعلى الرغم من أن ست نخت كان ينتسب إلى أسرة تعيش فى العاصمة برمسيس فى شرق الدلتا – ودليلنا على ذلك احتواء المقطع الأول من اسمه على اسم الإله ست – فأنه منذ أن ارتقى عرش الحكم فى البلاد فكر فى التو فى إقامة مقبرة له بوادى الملوك بطيبة الغربية شأنه فى ذلك من سبقوه أو لحقوا به من ملوك الدولة الحديثة، إلا أن العمال بعد أن أتموا حفر الممر على بعد قليل فى الصخر، عثروا فجأة على المقبرة السرية لأمنموس التى لم يكن معروفاً مكانها أو لأنها كانت بعيدة عن النظار خلال سنوات الاضطرابات الاثنتى عشرة بعد رحيله، لذلك توقفت كل الأعمال فى نحت مقبرة ست نخت، وعند وفاته دفن بمقبرة الملكة تاوسرت بوادى الملوك بعد أن غيرت من أجل ذلك بعض النقوش والمناظر على الجدران[2].

إلا أن هذه المقبرة فتحت فيما تلا ذلك بعدة أجيال وقام الكهنة بإعادة النظام فى المقبرة التى لم يعثر فيها إلا على مومياء الملكة، فوضعوها فى التابوت الفارغ لست نخت الذى لم يعثر على مومياته حتى اليوم[3].

رمسيس الثالث

كان ست نخت كما أشرنا من قبل ملكا هماما، لكنه لم يكد يتولى حتى مات، ولحسن الحظ فإن ابنه وخلفه فى الحكم رمسيس الثالث قد ورث همة أبيه الغريزية، وكان حكمه الذى طال بما فيه الكفاية لإتمام عمل مفيد، هو آخر حكم طويل فى الدولة الحديثة.

وأغلب الظن أن رمسيس الثالث قد اشترك مع أبيه فى الحكم بصفته وريثاً للعرش، ولعله يقترب من سن الأربعين عند توليه العرش، لذلك لم يجد صعوبة فى ذلك، ونظراً لأنه يحمل اسم رمسيس فلعله بذلك يكون قد ولد وسمى بهذا الاسم فى حياة رمسيس الثانى بالفعل، ولعله يدل أيضاً على أن والده ست نخت كان من العائلة المالكة، وربما كان بالفعل أحد أبناء رمسيس الثانى، لذا لم يكم من الضرورة عمل فاصل حقيقى بين الأسرة التاسعة عشرة والعشرين، وليس هناك ما يعطى مانتيون الحق فى أن يبدأ هنا أسرة جديدة، ولكن يبدو أنه لجأ إلى ذلك بعد سنوات الفوضى التى أعقبت حكم سيتى الثانى (٤).

على أية حال فقد سارت الأمور فى مجراها الطبيعى وتولى رمسيس الثالث مقاليد الحكم فى البلاد واعتبر بحق المؤسس الحقيقى للأسرة وسياستها وجعل من سميه وسلفه القديم رمسيس الثانى مثله الأعلى ، فتلقب بأغلب ألقابه وكنياته، واستطاع مثله أن يدفع بجيشه عن مصر أخطاراً جسيمة، كما خلف لنا من المنشآت المعمارية ما يحاكى سلفه، ولكنه رغم ذلك قد اختلف عنه فى أنه كان الشخصية العظيمة الوحيدة فى أسرته الكبيرة، وبدأ عهده ببداية مشرقة ثم انتهى إلى خاتمة غير معهودة نؤجلها لحينها (٥).

نشاطه الحربى:

كان هم رمسيس الثالث الأول هو إصلاح الإدارة وإعادة تنظيم الجيش وهذا التقويم الداخلى كان فى الواقع الشرط الضرورى للمحاولات التى يعتزم الملك القيام بها كى يعيد لمصر الدور الراجح الذى لعبته من قبل فى سياسة العالم الشرقى

الخارجية حتى عادت مصر فى عهده للمرة الأخيرة تفرض نفوذها الأكيد على المنطقة.

وتحرج الموقف فى الخارج على غرار الموقف الذى واجهه "رمسيس الثاني" فالليبيون الذين تصدى لهم مرنبتاح من قبل وطردهم قد عاودوا الكرة وهاجموا غرب الدلتا، وحاول "رمسيس الثالث" أن يحل مشكلاتهم بأن ولى عليهم شاباً ليبياً من جنسهم تربى فى مصر فرفضوه، ولعل ذلك أمر طبيعي أن يرفضوا مثل هذا الحاكم المصرى أو الموالى لمصر اذا سلمنا بكونه ليبيا فى الأصل (٦).

ويغلب على الظن أن ذلك كان السبب الحقيقى وراء ثورتهم وزحفهم، خاصة وقد اشتدت عزائمهم بنزول هجرات جديدة عليهم من بنى عمومتهم الهندو آريين، أو لعلهم على العكس من ذلك قد تخوفوا من نزولهم فرحلوا أمامهم إلى حدود الدلتا، ولاقتهم الجيوش المصرية فى العام الخامس من حكم رمسيس الثالث، واكتفت بأن أضعفت شوكتهم وردتهم على أعقابهم، وأبقت على مجموعات منهم كانت تستخدم فى جيشها، وتذكر نصوص معبد هابو أن الملك قد انتصر عليهم انتصاراً بالغاً وذبح الكثيرين منهم حتى ترك جثثهم أكداساً كالأهرام وقبض على العديد منهم كأسرى، وتتباهى النصوص بأن ملكهم قد أباد شعوب البحر إلى الأبد، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث بطبيعة الحال كما سنرى فيما بعد (٧).

ونجد ضمن نصوص الحرب الليبية التى حدثت فى العام الخامس بعض تلميحات إلى حرب آسيوية لابد أنها قد تمت بحكم المنطق قبل السنة الخامسة، فتذكر النصوص: "أن رئيس آمور لم يعد إلا رفاتا و لم يبق له بذر وكل قومه أخذوا أسرى، وأحضر الأعداء الآسيويون والليبيون أسرى، هؤلاء الذين خربوا مصر فيما مضى بحيث تركت البلاد فى حالة خراب تام".. وكلها عبارات عامة ولعلها تشير لحرب السنة الثامنة ولا عجب فى أن نجد شيئاً من عدم الدقة مع كثرة المعارك والنصوص التى سجلت وصورت على جدران معبد هابو (٨).

وفى العام الثامن من حكم رمسيس الثالث خاضت مصر معركتين كبيرتين مع شعوب البحر أحداهما كانت برية والأخرى بحرية، أما الأولى فكانت مع هؤلاء

المهاجرين الذين وصلوا الشام عبر آسيا الصغرى وانتشروا فى أرض آمور ثم نزحوا على أرض كنعان عن طريق البر، وأما الثانية فكانت مع من اندفعوا بمراكبهم إلى شواطئ جنوب سوريا ووصلوا حتى مصبات النيل عن طريق البحر، ووصفت النصوص المصرية تحركات هؤلاء المهاجرين وخيبة مسعاهم وصفا شائقاً على لسان الملك نفسه: "تآمرت شعوب أجنبية فى جزرها، وسريعاً ما أزالت بلاداً وشردت الحرب أهلها و لم يستطع بلد أن يثبت أمام أسلحتهم، وابتداء من خاتى وقدى وقرقميش، وأزاورا فى آن واحد، واجتمع عسكرهم فى بقعة واحدة بأرض آمور، فشردوا أهلها وأصبحت الأرض كأنها لم تكن، ثم تقدموا نحو مصر، ولكن النار كانت على استعداد للقائهم، وتألف حلفهم من البلستى والفكر والشكلش والدانيين، والوشاوش، واتحدوا جميعاً ووضعوا أيديهم على البلاد فى مدار الأرض كلها فاستبشروا وملأتهم الثقة بأنفسهم وقالوا: "سوف تنجح مشاريعنا، ولكن قلب الاله كان واعياً وعلى استعداد لأن يقتنصهم كالطيور، وهكذا نظمت حدودى فى جاهى وأعدت أمامهم الأمراء وقادة الحاميات وأمرت بتحصين مصبات الأنهار لتكون كالسد الكبير وزودتها بسفن وزوارق وناقلات للجنود، وامتلأت جميعها بمحاربين مهرة مسلحين، وتألفت قوات المشاة من خيرة شباب مصر، وكانوا أشبه بالأسود، وتألفت فرق الفرسان من عداءين مهرة وقادة قادرين، ومن كل فارس عربة متينن وهزت الخيول أعطافها وسحقت الشعوب الأجنبية تحت حوافرها، وكنت منتو المقتدر، أقف على رأسهم، ليشهدوا بأنفسهم ما تفعله يداى، أما من بلغوا حدودى فلم يبق منهم باقية وانمحت قلوبهم وأرواحهم إلى الأبد .. وأما من أتوا بجموعهم معاً عن طريق البحر، فقد واجهتهم نار حامية على مصبات الأنهار، وأحاط بهم على البر سد من الحراب، واستدرجوا إلى الداخل وحوصروا وألقوا على وجوههم على الشاطئ، ثم قتلوا ومزقوا أرباً من القدم إلى الرأس، وغرقت سفنهم وأمتعتهم فى البحر" (٩).

وعلى نحو أمتع الكاتب فى وصف حال شعوب البحر ومصيرهم، أبدع الفنانون فى تصوير هزيمتهم على جدران معابد طيبة ولا سيما هابو، فصوروهم

يفرون على البر بعربات تشبه الصناديق تجر كل عربة منها أربعة ثيران، وصوروا ساحة الحرب بعد الحرب خراباً أجتث أهلها من فوق الأرض كما أجتث شجرها سواء بسواء وعندما صور الفنانون قتال البحر صوروا سفن الفريقين وقد طوت أشرعتها، ورمى المصريون أعداءهم بالنبال ثم صادموهم بالمراكب وقاتلوهم وجها لوجه بالسيوف والخناجر حتى انتهت المعركة بانتصار المصريين.

واستحق رمسيس الثالث لقب قاهر جميع البلاد الأجنبية دون مغالاة، وذلك لأنه أنقذ البلاد من خطر أبشع بكثير من خطر الهكسوس، واستطاعت مصر أن تنقذ نفسها وجيرانها من غزو كثيف حطم ممالك عدة قبلها ولكنه تحطم عند أرضها وعلى شواطئ بحرها.

وتجددت مشكلات المهاجرين على حدود مصر الغربية فى العام الحادى عشر من حكم رمسيس الثالث ولم يكن قد مضى على هزيمتهم الأولى فى العام الخامس غير ست سنوات، حتى عاودوا شغبهم على الحدود من جديد، ولعلهم لم يحمدوا لملك مصر أنه سمح لهم بالمعيشة قربها ما داموا أعلنوا السلم والطاعة، وظهرت بينهم هذه المرة جماعات جديدة واستجاب لهم عدد من بنى جلدتهم الذين عاشوا فى غرب الدلتا وعاونوهم وتزعمهم هذه المرة زعماء قبائل الليبو والمشاوش، ولكن القوات المصرية اشتدت عليهم وأحبطت مشاريعهم وكسرت شوكتهم، وبذلك انتهت محاولاتهم لدخول مصر عن طريق العنف، وبدأوا يتسللون إليها تسللاً إليها تسللاً سليماً بطيئاً وتسامح رمسيس الثالث معهم باسم مصر كما تسامح مع أسراهم من قبل، وهذا التساهل النسبى يعتبر مكرمة للخلق المصرى فى جملته، إلا أنه جر على مصر بعد ذلك شروراً كثيرة كانت فى غنى عنها لو أنها استأصلت شأفة أعدائها من جذورها [١٠].

وبعد إنزال الهزيمة بالقبائل الليبية وحلفائها حاول رمسيس الثالث استعادة السياسة التقليدية لمصر فى أسيا، فأضطر للقيام بحملة إلى سوريا فى نفس العام للقضاء على ثورة هناك، واستطاع أن يقضى بذلك على جماعة من البدو كانوا

ينتقلون فى الصحراء جنوب فلسطين، و لم تكن هذه الحملة سوى مجرد غارة لم تتكرر ثانية، إذ أنه لم يتعرض بعد ذلك لأية مضايقات وعاشت مصر فى سلام تام من قبل ما تبقي من مستعمراتها الآسيوية [١١].

وأصبح لرمسيس الثالث شهرة كبيرة، وفى كل مكان حيث كان يخشى اسمه، وكان جيشه وأسطوله الدعامة الأساسية لتأكيد تلك السيطرة المصرية لعدة سنوات، وأصبحت حدوده وشواطئه آمنه وغدت سفنه التجارية تستطيع التجوال بين شواطئ مصر وفينيقيا دون التعرض لأى خطر.

نشاطه الداخلي :

حاولت مصر أن تنعم بفترة من الرخاء والسلام بعد انتصاراتها المتعددة، وبعد أن أكدت ثقتها بنفسها وتدفقت الثروات عليها من غنائم الحروب والجزية وكذا من عودة الأمن إلى مسالك التجارة الخارجية، وكالعادة كان أكثر المصريين استفادة من هذه الحال الجديد هو فرعونهم وبطانته من حاشية القصر وكبار رجال الجيش فضلاً عن رجال الدين، فتميز عهد رمسيس الثالث بنهضة معمارية جدد بها الملك عهد العمائر التى شهدناها على أيام رمسيس الثانى من كثرة وضخامة واتساع لا حد لها. ولعل من أروع ما شيد مهندسوه من عمائر معبدين وبقايا قصرين، أما المعبدان فأحدهما ضخم شاهق خصص لإقامة شعائره وشعائر الإله آمون وبقية الأرباب فى غرب طيبة وقد أقامه على غرار معبد سلفه العظيم رمسيس الثانى والمعروف بالرامسيوم فى تخطيطه العام واعتمدته الأوزيرية، وكذلك فى احتواء كل منهما على قناءين، كما تتشابه كذلك ملحقات المعبدين كالقصر الملاصق للجدار الجنوبى للفناء الأول، وكذلك مبانى الموظفين والكهنة والمخازن المحيطة بالقصر، هذا فضلاً عن أن كثيراً من نقوش المعبدين حربية، وأن تميزت نقوش رمسيس الثالث بأنها أقل مغالاة من نقوش سلفه، وكذلك تسجيل مراحل (عيد خروج الإله مين) وخاصة إطلاق طيور إلى أركان العالم الأربعة لإعلان نبأ الاحتفال بالعيد.

ومع ذلك فإن من مميزات معبد رمسيس الثالث أنه المعبد الوحيد المحصن فى مصر، وكذلك نقوشه الغائرة وخاصة اسم الفرعون حتى لا تتعرض للمحو أو كتابة أسماء أخرى بدله، كما تتميز نقوشه بالحركة وخاصة مناظر صيد الثيران البرية، حيث صور الفنان حركة الثيران العنيفة وهى تندفع بين الأشجار بطريقة تثير الإعجاب، وتنفى عن الفنان المصرى القديم صفة الجمود إلى حد كبير، وأخيراً فإن نقوش هذا المعبد قد صورت أقدم وأجمل تصوير لمعركة بحرية بين مصر وشعوب البحر بلا نزاع، حيث جاء التصوير حياً جديراً بكل إعجاب [١٢].

وأما المعبد الآخر فهو معبد صغير ولكنه ممتع خصص لاحتفالات يوبيله وأعياد ربة آمون فى رحاب الكرنك، ويقع إلى اليمين خلف الصرح الأول، ولا يزال كلا المعبدين يعتبرا من أكمل المعابد المصرية الباقية فى عناصره المعمارية وفى لوحاته المنقوشة.

ولم يقف نشاط رمسيس الثالث المعمارى — ولا سيما فى بناء المعابد — على مصر فحسب بل تعداها إلى آسيا، حيث احتفظت الأيام بذكرى معبد لآمون فى كنعان أجرى عليه رمسيس خراج تسع مدن (أو قرى) فى منطقة، وكذلك معبد آخر فى عسقلان شيد باسم الإله بتاح.

ونعود إلى مصر لنرى مقصورته بتل اليهودية على جانب هياكله وآثاره القليلة الأخرى على امتداد الوادى من منف إلى الكاب.

وتشير النصوص إلى حى جميل شاده لآمون فى بر رمسيس، فضلاً عن مدينة جديدة أنشئت فى عهده فى شمال غرب الدلتا، تشير أغلب الآراء إلى أنها نا آمون رع بمنطقة نا آمون التى كانت فى عهد رمسيس الثانى منطقة كروم [١٣].

وكان من حق رمسيس الثالث وحق زمانه أن يفخرا معاً بنشاطه الواسع أيام السلام، فجهز حملة بعث بها عن طريق البر والبحر إلى مناجم النحاس فى شبه جزيرة سيناء، فعاد رجالها بما وجدوا من نحاس حملوه يومئذ إلى طيبة، ولما عرض تحت نوافذ القصر وشرفاته أخذ يتلألأ فينبعث منه بريق يشبه بريق الذهب فيثير إعجاب الناظرين [١٤].

كما بعث الملك بأسطول إلى بونت لإحضار البخور والعطور إلى معابد الوادى كما فعلت حتشبسوت من قبل، وتلك حملات تجارية لا صلة لها بأعمال الحروب على كل حال.

وطال عهد رمسيس الثالث نحو واحد وثلاثين عاماً. استمتع فى أغلبها بما دلت عليه ضخامة منشآته من ثراء ومجد ونعيم، ثم تحولت أموره وأمور بلده من حال إلى حال، وكانت عوامل هذا التحول أربعة وهى:

- تزايد أعداد الأجانب المتمصرين فى البلاط والجيش.
- تزايد أعداد الأرقاء الأجانب فى القصور والمعابد.
- مؤامرات النساء فى القصر الفرعونى.
- ضيق الطبقات العاملة بحرمانها من مجهود يمينها، ومما نعم به الكهان وأهل البلاط.

وقد سبقت الإشارة إلى أن مصر قد فتحت حدودها وتقبلت أعداداً من الوافدين، وكيف تقبلت الجيوش المصرية أعداداً من الأجانب باعتبارهم مرتزقة أو من الأسرى أو نسلهم، ورفع رمسيس الثالث بعض هؤلاء الأجانب إلى مناصب القيادة فى البلاط، وزاد نصيب القصر الفرعونى من الزيجات الأجنبية، كما تقبل أعداداً أكثر من الجوارى، وقلدت قصور الأثرياء قصور الفراعنة فى هذا السبيل لظروف الحرب وكثرة سباياها، أو حباً فى ملاحة الشماليات ودفء الجنوبيات(١٥).

أما المعابد فكان نصيبها من الأرقاء والأسرى الأجانب والتمصرين أضخم، وذكرت النصوص أن رمسيس الثالث قد خصص ٢٦٠٧ من أسراء لأملاك آمون، و ٢٠٩٣ لأملاك رع، لكى يعملوا بأسماء هذه المعابد فى المزارع والمحاجر والمناجم، بل شئون العبادة نفسها (١٦).

ولم يكن هناك بأس فيما جرت عليه مصر فى استقبال أبناء جيرانها وأسرها والمرتزقة المسالمين ما دامت قوية يقظة وما دامت يدها اليد العليا، ولكن الخطر كل الخطر فى أن يتمصر هؤلاء النزلاء بمظهرهم فقط وليس فى مخبرهم، وأن يظل

بعضهم على استعداد للتنكر لها متى سنحت لهم فرصة أو ألمت بها نكبة وما أكثر فرص النكبات فى ذلك العهد!.. وكشف عن حال حريم رمسيس الثالث وأوضاع الجانب فى بلاطه، مؤامرة من إحدى ملكات الملك – من الطبقة المتوسط غالباً وهى تى – بعد أن أحست برغبة الملك فى إقصاء ولدها بنتاور عن ولاية العهد باختياره لأحد أولاده المسمى رمسيس (الرابع فيما بعد) لهذه الولاية فتآمرت مع بعض سقاة البلاط ونسائه وحرسه وخدمه من المصريين والنزلاء المتمصرين، واستعان المتآمرون بأعمال السحر، وكان الهدف من المؤامرة أحداث انقلاب داخل القصر فى نفس الوقت الذى تشتعل فيه ثورة فى المدينة، ولكن المؤامرة انكشف أمرها، وتولى التحقيق فيها بأمر الملك أربعة عشر قاضياً كان بينهم أربعة من الأجانب، وقبل انتهاء التحقيق تمكن بعض أقارب المتهمين أن يرشوا ثلاثة من القضاة وضابطين، انكشف أمرهم وتحولوا إلى متهمين، وحكمت المحكمة على بنتاور وثلاثة من شركائه بالإعدام، وتركت لهم مهمة إزهاقهم لأرواحهم بأنفسهم، وحكمت على متهمين آخرين بالجلد والسجن، وعلى البعض الآخر بجدع الأنف وصم الأذنين، وكان من بين هؤلاء القاضيان والضابطان الذين ثبتت إدانتهم من قبل، أما القاضى الثالث فعزت عليه نفسه أو صحا ضميره فانتحر، أما ما أصاب رمسيس الثالث من هذه المؤامرة، واسم الملك الذى تمت المحاكمة فى عهده، أن كان هو نفسه أو ولده رمسيس الرابع، فكلاهما موضع جدل حتى الآن(١٧).

وإلى جانب هذه المؤامرة فقد وقعت فى إقليم أتريب ثورة أو أزمة عزل على أثرها الوزير من منصبه.

وساءت الحالة الاقتصادية فى البلاد حتى اضطر عمال الجبانة فى طيبة إلى الإضراب عن العمل لأن مقرراتهم لم تصرف لهم لمدة شهرين فى العام التاسع والعشرين من حكم الملك، فتوقف العمال عن عملهم وحاولوا أن يلفتوا نظر رؤسائهم لحالتهم دون جدوى، وفى اليوم التالى تجمعوا وهاجموا مخازن الرامسيوم

وهم يصيحون بأنهم جائعون وعندئذ اضطر كبار الموظفين لمحاولة تهدئتهم، وتكرر الإضراب بعد ذلك مرات عديدة حتى اضطر الوزير للتدخل لإعطائهم ما يستحقونه، وتعطينا هذه البردية فكرة عما آلت إليه حالة البلاد من فوضى، كما تعطينا فكرة عن كهنة المعابد الذين كانوا أول من يسمع صياح العمال من الجوع دون أن تتحرك فيهم ذرة من عطف، وفى الوقت الذى كانت فيه مخازن المعابد مكدسة بكل أنواع الحبوب كانوا سوط عذاب على الفقراء، ففى أحد الأيام تجمع المتظاهرون خلف معبد مرنبتاح وأخذوا يصيحون "نحن جائعون" وتصادف مرور عمدة المدينة فوعدهم بالمساعدة وأرسل إليهم كمية من الحبوب ليسعفوا بها أنفسهم حتى يأمر بصرف استحقاقاتهم لهم، ولكن بعد أيام قليلة وصلت شكوى ضد هذا العمدة من كبير كهنة آمون قد أخذ بدون وجه حق من ممتلكات معبد رمسيس الثانى ليطعم المضربين ووصف كبير الكهنة عمله "أن ما فعله جريمة كبرى" (١٨).

وهكذا كانت تسير الأمور، فالكهنة يكدسون الأموال ويظلمون الشعب، والموظفون يستغلون كل موارد الدولة لمصلحتهم، والملك لا يحرك ساكناً والأجانب يتحكمون فى شأن الدولة.

والواقع أن هذه البردية التى أسلفنا ذكرها تبرز لنا وجهين وجهاً يعيب الفراعنة بصفة عامة وسياستهم، ووجها أخراً يرحب به التاريخ لأنه يكشف عن حقيقة روح شعبية مصرية لم تكن تهضم الضيم ولا تأبى أن تعارض رغم أنف التقاليد وأذناب الحكام، على عكس ما ألصقه بها كثير من المؤرخين من صفات الاستكانة واللامبالاة والتسليم المطلق بما يقضى به الرؤساء وأن اقتصرت هذه الصورة فى حالتنا هذه على العاملين فى الجبانات الملكية بطيبة الغربية، فأنه ليس هناك ما يمنع إطلاقاً من اعتبارها نموذجاً لما كان يجرى فى مناطق كثيرة مما لم يبق من أخبارها شىء مدون (١٩).

وهكذا يبدو أن القدر لم يكافئ رمسيس الثالث على بطولاته وأمجاده، أو نشاطه وأعماله بما يجب، فجاءت أخريات أيامه على النحو الذى ذكرناه آنفاً،

ولا ندرى هل أتم رمسيس الثالث محاكمة من كشفتهم مؤامرة الحريم فى حياته، أو أكملها خلفه رمسيس الرابع؟ على أى الأحوال فقد ودع رمسيس الثالث حياته بعد أن بلغ السبعين من عمره، وقبل أن يكمل عامه الثانى بعد الثلاثين على عرش مصر، ودفن بمقبرته بوادى الملوك، تلك المقبرة التى كانت فى بادئ الأمر للملك "ست نخت" الذى هجرها حين رأى أنها تداخلت فى مقبرة أمنموس، ومن ثم كان على رمسيس الثالث أن يغير فى بنائها حتى يتجنب العيوب التى دفعت أباه إلى هجرها [٢٠]، ونجح فى إضافة بعض الممرات والقاعات حتى عمق ١٣٠ متراً، وتمتاز رسوم هذه المقبرة بالمنظر الشهير الخاص بطهى الطعام، وكذلك منظر عازف القيثارة المشهور، أما التابوت الحجرى الجرانيتى الخاص بالملك فاحتفظ به متحف اللوفر، واحتفظ بغطاء التابوت فى كمبردج، أما مومياء الملك فكانت من نصيب المتحف المصرى بالقاهرة [٢١].

نهاية الأسرة العشرين

بعد وفاة رمسيس الثالث بدأت سطوة الملك وقوته تنهار بسرعة فائقة، وتولى عرش مصر من بعده ثمانية ملوك تسموا جميعاً باسم رمسيس (من الرابع إلى الحادى عشر)، وحكموا فترة خمسة وسبعون عاماً، وبقيت عاصمة البلاد فى شرق الدلتا (بررعمسيس) التى سميت فيما بعد تانيس، واستمر التقليد القديم فى دفن الملوك فى مقابر وادى الملوك بطيبة وأعدت لكل من هؤلاء الملوك مقبرة متسعة مزينة بالنقوش والمناظر هناك، وكما مضى عصر هؤلاء الملوك دون حدوث ما يسترعى النظر تاريخياً فأنهم لم يخلفوا وراءهم آثاراً تستحق الذكر، وتضاءلت أملاك مصر خارج حدودها بحيث فقدت كل مناطق فلسطين [٢٢].

وتشابه كل هؤلاء الملوك الرعامسة فى ضعفهم وفى خضوعهم لسلطان الكهنة، وفى عجزهم عن التغلب على الأزمة الاقتصادية التى بدأت تطحن البلاد، كما تشابهوا أيضاً فى عدم استطاعتهم وقف الفوضى والانحلال فى جميع مرافق الدولة وظلم الموظفين للطبقات الفقيرة.

وعاش هؤلاء الملوك فى قصورهم فى شرقى الدلتا تاركين إدارة شمال البلاد للوزير فى منف، وكان هناك وزير آخر فى طيبة ورغم ذلك فقد كانت السلطة الحقيقية فى يد كهنة آمون، كما بقيت مدينة العمال فى دير المدينة على عمرانها وأمدتنا وثائقها من البردى أو الأوستراكا بالقبس الذى يثير لنا جزءاً من الطريق فى هذا العصر المظلم تاريخياً وحضارياً.

ولم يكن الرعامسة الثمانية من رجال الحرب أو الإصلاح، لذا فلم نسمع عن أحد منهم خبراً اللهم اشارات عابرة مثل التى تحدثت بها بردية هاريس عن أعمال رمسيس الرابع وما به من إصلاحات وانشاءات فى المعابد، أو تلك التى صورت تصميم مقبرته والمحفوظة بمتحف تورين، إلا أن أهم ما جاء من عهده هو تلك البرديات التى تفيض بأنباء الفوضى والانحلال فى البلاد، والسرقات والرشاوى فى إيرادات الدولة على السواء، وتلاه رمسيس الخامس فلم يكن خيراً من سلفه،

وأهم ما وصل إلينا من عهده بردية ولبور الشهيرة التى نعتبرها مصدراً مهماً لدراسة الضرائب وتقسيم الأراضى فى ذلك العهد بوجه خاص وفى عصر الدولة الحديثة بوجه عام، وتلاه رمسيس السادس الذى حكم أربع سنوات فقط ورغم ذلك فقد ترك اسمه فى أنحاء البلاد من الشمال إلى شمالى السودان، وتلاه كل من رمسيس السابع فالثامن فالتاسع وكانت أيامهم جميعاً أياماً سوداء فى تاريخ مصر، وإن كان رمسيس التاسع أشهرهم جميعاً فإن ذلك بسبب برديات سرقات المقابر الملكية فى عهده، وكان ذلك نهاية ما يمكن الوصول إليه من اضطراب الأمور [٢٣].

وخلف رمسيس التاسع بعد حكم طال ثمانية عشر عاماً رمسيس آخر، وهو العاشر فى قائمة الرعامسة، ثم تلاه رمسيس الحادى عشر الذى طالت أيامه على غير العادة فى نهاية هذه الأسرة حتى وصلت إلى ثلاثين عاماً على عرش البلاد، وحاول الرجل أن يقوم بنهضة ما فى البلاد، وربما كان من أوحى إليه بما هم كهنة آمون، وبدأت هذه النهضة فى السنة التاسعة عشرة من حكمه لكنها لم تدم أكثر من تسع سنوات إذ أننا نجد فى نهايتها أن حريحور كبير الكهنة قد أصبح ملكاً على مصر [٢٤].

وبوفاة رمسيس الحادى عشر انقسمت البلاد إلى دولتين إحداهما تجمعت حول العاصمة الشمالية تانيس حيث سمندس، والثانية فى العاصمة الجنوبية طيبة حيث حكم حريحور وكان إيذاناً ببداية عصر جديد وأسرة جديدة هى الأسرة الحادية والعشرين.

هوامش الفصل الثالث

1- Kitchen, K. A., in L Ä V., p. 119.

2- Gauthier. H., Livre des Rois III, p. 155 (Fot Not) No I.

٣- عثر على غطاء تابوت الملك ستانخت فى مقبرة أمنحتب الثانى وهو الآن بالمتحف المصرى كما عثر فى المقبرة نفسها على بقايا غلاف لمومياء الملك. للمزيد راجع :

Gauthier. H., Ibid.

٤- رمضان السيد، تاريخ مصر القديمة، القاهرة ٢٠٠٨، ص ١٥٥.

٥- المرجع السابق.

6- Edgerton – Wilson, History Records of Ramses III, Chicago, 1936, p. 19 – 22.

7- Ibid.

80 Lalouette. C., L'Empire des Ramses, Fayard, 1985, p. 352.

9- Friedrich. A., Ramses III. In den Gräbern seiner shone, OBO, 72, 1986, p. 57.

10- Medint. Habu, Pub I, of Oriental Instituet of Chicago, 1934, p. 34; Helck. H., Habu, In LÄ, V, p. 7.

11- Lolauette.c., Op – Cit.

١٢- زكريا رجب عبد المجيد، العمارة والفنون الكبرى فى مصر القديمة، الجزء الثانى "عصر الدولة الحديثة"، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٩، ص ١٧٨ – ١٨٨.

13- Lalouette. C, Op – Cit., p. 320.

14- Grandet. P, Ramesses III, in Oxford Encyclopedia of Ancient Egypt, Cairo, 2001, p. 118. F.

15- Ibid.

16- Kitchen, K. A., The Teuntieth Dynasty, J E A., 68, 1982, p. 117.

17- Bedell, C., Criminal Law in Egyptian Ramesside Priod, London, 1973, p. 10.

18- Grondet. P., Rmsses III : Histoire d'anregne, Paris, 1993, p. 173.

١٩- هذه الأحداث تذكرنا بما حدث فى العصر المتوسط الأول، حيث راح الناس يعبرون عن سخطهم من خلال الروايات والقصص الشعبى، للمزيد يراجع :

زكريا رجب عبد المجيد، فى التاريخ المصرى القديم، الجزء الأول.

20- Reeves. N., The Complete Valley of the Kings, London, 1996, p.67

٢١- الوصف التفصيلى لمقبرة رمسيس الثالث، راجع زكريا رجب عبد المجيد، العمارة والفنون الكبرى فى مصر القديمة، الجزء الثانى، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٩.

22- Kitchen. K. A., Op – Cit., p. 121.

23- James, An introduction to Ancient Egypt, London, 1986, p. 262.

٢٤- للمزيد عن تفاصيل نهاية الأسرة العشرين يراجع :

رمضان السيد، المرجع السابق، ص ١٧٩ – ١٩٢.

الفصل الرابع

السودان تحت الحكم المصرى
فى زمن الدولة المصرية الحديثة
(١٥٥٢ — ١٠٦٩ ق.م)

السودان تحت الحكم المصرى
فى زمن الدولة المصرية الحديثة
(١٥٥٢ — ١٠٦٩ ق.م)

تقديم:

كانت ولا تزال وستظل العلاقة التى تربط مصر بالسودان علاقة ذات طبيعة خاصة جداً، علاقة من النوع الذى يحس، علاقة لا تحتاج إلى التعبير عنها تنسج خيوطها روابط قوية، وأواصر لا تنفك.

ولا يستطيع أى ما كان أن يغير من ماهية تلك العلاقة أو يقلل من شأنها فالمصرى أو السودانى دائماً ما يغمره شعور يهز وجدانه عندما يسمع أو يتحدث عن الإقليم الشقيق، فالمصرى دائماً يرى فى السودانى أخ شقيق كذلك السودانى يرى ذات الرؤية.

فلا غرو أن كانت العلاقات التى سادت منذ أن خطا الإنسان على سطح الأرض بين البلدين قد أتسمت بذلك الطابع، بيد أن الحديث من خلال المنظور التاريخى عن العلاقات بين البلدين سواء كانت على المستوى الرسمى أو المستوى المجتمعى غالباً ما تتسم ببعض الحساسية التى يخشى كل طرف أن يخدش أحساس الطرف الآخر.

لذلك فإنه من الأحرى بنا أن نلزم جانب الحيدة العلمية، وأن نحرص على انتقاء العبارات المعبرة وبصدق عن الأحداث التاريخية وعن سيرها مع الاعتماد دائماً على التوثيق العلمى الصحيح، وأن لا ندع مجالا لأى عناصر دخيلة تحاول زرع أسباب الشقاق بين البلدين الشقيقين.

وفى واقع الأمر أن الطبيعة التى حبا الله بها البلدين، قد أضفت على العلاقة بينهما صفة الدوام والالتصاق، كما وأن لنهر النيل فضل عظيم فى استمرار ودوام الصلة حتى أصبح من المستحيل أن تشوب تلك العلاقة شائبة.

والحديث عن الأوضاع الطبيعية والأحوال المعيشية وطريقة ونوع العلاقات السائدة فى السودان تحت الحكم المصرى وأثر النشاط المصرى العسكرى والنشاط السياسى والدينى وكل الأنشطة التابعة من أنشطة اجتماعية أخرى وتجارية وإدارية يحتاج إلى الولوج برفق وأناة للوصول إلى المبتغى العلمى المرجو من هذه الاطروحة.

التوسع المصرى فى السودان عسكرياً:

فى بداية الأمر يرى بعض العلماء أن أول بدايات التوسع المصرى جنوباً بدأت مع نهاية الأسرة السابعة عشر وبدايات الأسرة ١٨ وهى الأسرة التى بدأ بها زمن الدولة الحديثة فى مصر (١٥٥٢ – ١٠٦٩ ق.م).

فبعد أن قام الملك أحمس أخر ملوك الأسرة السابعة عشر بحربه الشهيرة لطرد الهكسوس من مصر فى السنة الثالثة من حكمه، وكان قد بدأ حملته من جنوب مصر مكتسحاً كل تحصيناقم فى وادى النيل حتى استولى على عاصمتهم أفاريس محققاً انتصارات مبينه عليهم، إلا أن المنية عاجلته، قبل أن يتم مهمته المقدسة بطرد الغزاة من مصر .. ومن ثم فإن ولى عهده وخليفته أخوه الملك أحمس (أول ملوك الأسرة الثامنة عشر) [١٥٥٢ – ١٥٢٧ ق.م] قد تسلم الراية من بعده وأتم المهمة، ونال شرف استكمال حملة أخيه لطرد الهكسوس نهائياً من مصر، وقد تمكن بعد هذا الانتصار العظيم أن يوحد أقاليم مصر تحت حكمه، وأسس مملكته القومية، والتى تعد من الممالك القوية الثلاث إبان عصر الدول المصرية الحديثة (١٥٥٢ – ١٠٦٩ ق.م).

ويرى الكثيرون أن (كامس أخر ملوك الأسرة السابعة عشر هو الذى بدأ التوسع فيما وراء الحدود المصرية جنوباً، حيث جهز حملة عسكرية فاستولى على مدينة بوهين فى السنة الثانية من حكمه – وأنشأ فى تلك المدينة قلعة عسكرية مصرية، وأقام نصباً تذكارياً لتخليد أعماله التى قام بها فى حملته تلك حتى استولى على بوهين كعادة ملوك الفراعنة، وكان ذلك قبل حملته على الهكسوس لطردهم من مصر – وكذلك عثر فى أرمينا شرق على نقش يحتوى على اسم هذا الملك واسم عامله أو الحاكم من قبله على النوبة السفلى ويدعى (تيتى) [١].

كان التوسع المصرى فى السودان على مدى امتداد الأسرة الـ الثامنة عشر توسعاً تدريجياً فقد بدأ أول ملوكها بالاستيلاء على بوهين .. وأشارت المصادر التاريخية بأنواعها المختلفة من آثار وكتابات ونقوش إلى أن ذلك التوسع كان تدريجياً تولاه ملوك الأسرة الـ الثامنة عشر وحاز ذلك الرأى إجماع علماء المصريات والكتاب والمؤرخين.

ويرى كثير منهم أن الملك تحوتمس الأول (١٥٠٦ – ١٤٩٤ ق.م) قد غزا السودان وأسقط دولة كرمة واستولى عليها – كذلك خلال فترة الحكم المشترك للملكة حتشبسوت والملك تحوتمس الثالث (١٤٩٠ – ١٤٦٨ ق.م).

تم إرسال حملات عسكرية لإخضاع المناطق حول الشلال الثالث، كما اتفق العلماء على أن المصريين تمكنوا خلال فترة حكم الملك تحتمس الثالث المنفردة (١٤٦٨ – ١٤٣٦ ق.م) من فرض كامل السيطرة على امتداد منطقة وادى النيل من الشلال الثالث حتى الشلال الرابع وقاموا بتأسيس أهم المراكز التابعة لهم فى النوبة العليا فى موقع (نبته) (٢).

ذلك ما أجمع عليه العلماء، بل وهو ما ساد وغلب على كل الكتابات والتقارير وفى كل الأبحاث، إلا أنه قد أظهرت الحفريات الأخيرة فى موقع كرمة دلائل جديدة تفرض إعادة النظر فى هذا الإجماع شيئاً ما. ففى الدفوفة السفلى أخضعت بقايا وآثار الدفوفة السفلى وكذا الجبانات للاختبارات التاريخية بالكربون ١٤ وأدت النتائج إلى ازدهار حضارة مملكة كرمة حتى ١٤٥٠ ق.م تقريباً .. مما يدعوا إلى إعادة النظر فى تاريخ سقوط كرمة على يد الملك تحوتمس الثالث والملكة حتشبسوت (١٤٩٠ – ١٤٦٨ ق.م) بحيث يؤرخ له بعهد الملك تحتمس الثالث المنفرد (١٤٦٨ – ١٤٣٦)..

ولتحديد الموضوع تحديداً دقيقاً، ووضع البحث فى إطاره الملائم وعلى المادة التاريخية والنصية المكتوبة أو المنقوشة و الآثارية الكاملة أو الجزئية أو ما توفر من تواريخ باستخدام الكربون ١٤. فإن الموضوع يحتاج إلى توضيح وتفصيل على

مستوى أوسع خير من اختصاره فى عدة سطور لذا سيتم التناول بشىء من تفصيل الأعمال التى تمت خلال تلك الفترة (زمن الدولة المصرية الحديثة) ودور كل ملك من ملوكها فى التوسع أو الاستيلاء على مناطق سودانية وفرض النفوذ عليها وكذلك عن دور الأمراء وقواد الحملات، وعن نشاط القوات العسكرية فى السودان، وكذلك عن طبيعة المواجهة وكيفية مقاومة التوسع أو التسليم له من واقع ردود الفعل السودانية وكيفية تعامل السودانيين مع القادمين من الشمال.

١- الملك أحمس (١١٥٢ - ١٥٢٧ ق.م)

بعد أن قام الملك أحمس بطرد الهكسوس ومن ثم أرس قواعد الحكم، وبدأ فى تأسيس أركان الدولة، وتوطيد سلطته وبسط نفوذه داخل مصر، وحتى لا تقع مصر لقمة سائغة لغزاة آخرين فقد أحكم تأمين حدود مملكته مع جيرانها وتقوية حامياتها كملك قوى مثلما يفعل كل الملوك المصريين الأقوياء، ولكنه لم يكتف بذلك بل راودته أمور أخرى تجاه الجنوب، ولم يكتف بتقوية حاميات الجنوب بل زحف بقواته إلى الجنوب إلى داخل السودان — وبوصوله إلى جزيرة صاى قام ببناء قلعة فيها، وقد وجد له تمثال فى هذه الجزيرة (صاى) [٣] كذلك فإنه أقام قلعة فى بوهين، ولتوطيد حكمه على تلك البلاد فإنه قام بتعيين النواب والإداريين فيها ووضع سياسة إدارية لإدارة مناطق التوسع وأوكل إلى كل من (دحجوتى، وساتابيت) أعمال الحكم وإدارة البلاد نيابة عنه وقد تم العثور على آثار ونقوش تخص كليهما فى بوهين فى زمن حكم أحمس[٤] وكتب بريستد [٥] عن النشاط العسكرى للملك أحمس وعن نفوذه فى السودان فأورد مقاطع من حديث القائد (أحمس ابن إبانا) قائد جيوش أحمس فى هذه الفتوحات والذى تحدث فيه عن شجاعته وقوة جيشه وعن مسيرته والطرق التى تتبعها حتى تحقيق ما أراده ملكيه حتى أنه أدعى "أنه أخذ مليكه من مصر إلى (خنت حن نفر) وعاد به إلى مصر فى يومين فقط، كما أننا لا نغفل بعض المصادر التى أشارت إلى قيام عديد من الثورات ضد الاحتلال المصرى، قيام بعض المناوشات خاصة فى السنوات الأخيرة من حكم أحمس [٦].

٢- الملك امنحتب الأول :

قام الملك امنحتب الأول بتعزيز التوسع الذى سبقه به الملك أحمس وقد ورد فى رواية القائد (أحمس ابن أبانا) حيث أشار إلى أبحار الملك امنحتب الأول جنوباً إلى كوش على رأس حملة عسكرية لبسط النفوذ والتوسع لضم أراضى جديدة إلى حكمه، وفى سرده لأخبار وتحركات تلك الحملة أضاف أنه قد صرع قائد الجيش الكوشى(٧). ومن الآثار التى بقيت وتم اكتشافها عن عهد هذا الملك هى نقوش تركها الحاكم العام أو النائب تورى فى مدينة سمنة وفى أورنارتى يؤرخ لها بالسنتين السابعة والثامنة من حكم امنحتب الأول(٨).

٣- تحوتمس الأول :

لم يختلف الملك تحوتمس الأول عن سابقيه من الملوك، بل تمسك بسياسة التوسع وبسط النفوذ على الجنوب فأرسل الحملات حيث وصلت قواته إلى أن بلغت منطقة دنقلة العجوز عند (تميس) فأقام قلعة فيها وعزز قواته وأعمل عليها نوابة وموظفيه، وقد اختار منطقة (كرقس) ليجعلها نقطة الحدود إذ الفاصلة بين مصر والجنوب، وجعلها الحد الجنوبى للأراضى المصرية، ويبدو أنه قد أحسن اختيار الموقع ليجعله نقطة الحدود إذ أن ذلك المكان يتميز بطبيعة صخرية قاسية وبصعوبة الملاحة عنده فى النيل لكثرة الصخور والنتوءات وعدم صلاحية ذلك الجزء من النيل فى كرقس للملاحة والإبحار، كذلك قلة سكان هذا المكان لصعوبة العيشة فيه لقلة الموارد وعدم ملائمته للسكن، ويظهر قراره باتخاذ ذلك الموقع من الأثر الذى وجد وهو اللوح الشهير المسمى (لوح الحدود) أو لوح (كرقس) وهو لوح حجرى نقش عليه قرار الملك تحوتمس الثالث بين فيه انه وضع فى هذا المكان حدود مصر الجنوبية(٩). وهناك أثار أخرى فقد تم العثور على نقوش داخل قلعة (تمبس)، وكذلك نقوش على صخرة مواجهة للنيل يتحدث فيها عن أعمال فى عهد الملك تحوتمس الأول.

واختيار الملك تحوتمس للموقع المناسب للحدود، والاحتياطيات التى اتخذها القوات المصرية واستحداث الأساليب الإدارية لإدارة البلاد طبقاً للنظام الإدارى

المصرى ومحاولة بسط السيطرة والنفوذ كل ذلك لم يكن كافياً بل و لم يكن ليفرض الاستسلام على السكان المحليين الذين استمروا فى مقاومة التقدم المصرى داخل السودان فى عهد الملك تحوتمس كما كان فى عهد سلفه. ويرى بعض العلماء أن من الأسباب الرئيسية لقيام وتنظيم حركات المقاومة تلك له علاقة بحاكم كرمة وأنه كان وراء المواجهات التى قوبل بها المصريون، فقد كان حاكم كرمة يسيطر على النوبة العليا وعلى واوات خلال فترة الاضمحلال الثانية، كما وأنه عقد تحالفات مع حكام آخرين وقوى أخرى فى جنوب النوبة العليا [١٠].

٤- الملك تحوتمس الثانى:

وفى بداية عهد الملك تحوتمس الثانى تناولت المصادر المصرية[١١] الحديث عن حدوث قلاقل فى كوش، واندلاع حركات التمرد المقاومة فيها حتى وصلت إلى حد الثورة العارمة ضد الاستيطان المصرى، لدرجة أن المصريين ومن والاهم تحصنوا بالقلعة، وأدخلوا معهم حيواناتهم داخلها حماية لها من الثائرين، وبذكر القلعة فإنه يمكن الاستفادة منه فى تحديد مكان الثورة فربما كانت (فى تمبس لوجود قلعة تحوتمس الأول بها)، ولما وصلت أنباء تلك الثورة إلى مصر ... أعد الملك تحوتمس الثانى حملة قوية وجهزها لتقوم بإخماد تلك الثورة، وتأديب الثائرين والقضاء على حركات المقاومة وحماية المصريين المتواجدين ومن والاهم. وقد تمكنت تلك الحملة من هزيمة الثوار وإخضاع السكان وأسر عدد كبير أخذوا كأسرى وسباياً إلى مصر وكان من بينهم بعض من أقارب ملك كوش بل وبعض أبنائه، كما قتل عد كبير من الثوار واستتب الأمر وبسط المصريون نفوذهم بعد تلك الحملة [١٢].

٥- الملكة حتشبسوت والملك تحوتمس الثالث:

اشترك كل من الملكة حتشبسوت والملك تحوتمس الثالث فى حكم مصر واستمر الحكم المشترك من (١٤٩٠ – ١٤٦٨ق.م)، وانفرد الملك تحوتمس الثالث الحكم خلال الفترة من (١٤٦٨ – ١٤٣٦ ق.م).

وفى العهد الذى اشترك فيه الحاكمان، تم وضع خطة استراتيجية مصرية والتخطيط لوضع حد لما يحدث فى مملكة كوش، فقد تبين جلياً أن حكام كوش وراء كل الثورات والمناوشات فى تلك المناطق (تمبس — صاى)، وقد أوردت المصادر المصرية استمرار نهج المقاومة واشتعال الثورات فى منطقة الشلال الثالث، وفى السنة العشرين من حكم الملكة حتشبسوت تم رصد ثورة نشبت ضد معسكرات الجنود فى موقع (ميو) (١٣) — وقد قامت الملكة بإرسال حملة على رأسها شريكها تحوتمس الثالث لتأديب الثوار وإخماد ثورتهم وقد قام بإخضاع الثوار والقضاء على المقاومة.

ومن واقع الحوليات الخاصة بالملك تحوتمس الثالث، فقد تبين منها أن المكوث والضرائب التى فرضت على مملكة كوش قد تم جمعها وأرسلت إلى مصر فى العام الحادى والثلاثين لحكم الملك تحوتمس الثالث (١٤٦٠٠ ق.م)، وفى هذا العام تم أول تسجيل لهذه الواقعة ومن واقع التاريخ الذى اقترح لسقوط مملكة كوش بواسطة الكربون ١٤ وأعطى نتائجه بحدوث استيلاء المصريين واحتلال مملكة كوش وعاصمتها كرمة عام (١٤٥٠ ق.م) تقريباً .. ذلك كله يجعل من الممكن القول بأن كوش قد سقطت ووقعت تحت حكم الملك تحوتمس الثالث بعد مضى واحد وثلاثون عام من بداية حكمه، وكان الملك تحوتمس الثالث قد عاد إلى مواصلة زحفه على الجنوب وزيادة فتوحاته فى السودان بعد انتهائه من حملاته فى الشام وسوريا حيث سارت جيوشه حتى إقليم نبته جنوباً فاستولت عليها، وأسس بها حامية، ووضع نظاماً إدارياً لحكمها وإدارتها فتوجه بعدها إلى كرقس حيث أقام بها نصباً تذكارياً بنقش لوح صخرى بها مماثل لذلك الذى أقامه الملك تحوتمس الأول فى نفس الموقع.

وعلى هذا فإن ملوك الأسرة الـ الثامنة عشر قد حققوا أهدافهم من غزو السودان واستولوا على ما يريدون من ممالك بها وبلدان وأقاموا القلاع والحاميات وأسسوا نظماً إدارية ووضعوا أجهزة عمل بيروقراطية متوافقة مع النظم الإدارى فى

مصر وبذلك أمنوا الحدود الجنوبية، كما أقاموا مراكز تجارية وموانئ بحرية وبريــة لتسهيل انتقال البضائع والخامات بل والأفراد آمنين من الأخطار، ومن هجمـــات القبائل البدوية، وربما يكون عهد الملك تحتمس الثالث هو نهاية مرحلـــة التوســع المصرى فى السودان كما أرادها المصريون.

يبدو أن ذلك لم يمنع قيام المصريين باستمرار إرسال البعثات للاستكشاف أو للبحث عن المناجم والخامات التى يحتاجون إليها، وكذا تسيير الحملات التأديبية لتأمين خطوط الملاحة والطرق البرية ضد هجمات البدو أو القبائل الـــصحراوية أو غيرهم ممن لا يقبلون بالتواجد المصرى وكان ذلك مستمراً على مدى بقاء المصرين فى السودان.

وقد اختلف الباحثون وعلماء المصريات حول تحديـــد مواقـــع الممالـــك والبلدان والقبائل التى سارت إليها الحملات المصرية، وقـــد وردت مـــسمياتها فى كتابات متأخرة فى عصر الملك ستيى الأول والملك رمسيس الثانى فعلى سبيل المثال يرى بريسة (١٤) أن مملكة إرم تقع فى منطقة الشلال الثالث،بينما يرى (كتشن) أنها تقع فى وادى القعب فى الصحراء المتاخمة لثنية النيل عنـــد غـــرب دنقلـــة، (أمـــا فيركونية) فيرى أنها تقع جنوب أو جنوب غرب وادى النيـــل الـــسودانى ولكـــن (أكونور) له رأى مخالف لهذه الآراء جميعاً حيث يعتقد أنها تقع جنـــوب الـــشلال الخامس وأنها تضم جزء من منطقة البطانة (١٥).

نظام الإدارة وتقسيم الأقاليم إدارياً بعد الفتوحات المصرية:

منذ بداية التوسع المصرى فى السودان، عمل الملوك المصريون جاهـــدون على توطيد حكمهم بها، وتأمين تواجد محمياتهم وقواتهم، واتبعوا أســـلوباً إداريـــاً ونظاماً سياسياً يتوافق مع ما يطبق فى مصر، فوادى النيل السودانى أصـــبح تحـــت سيطرة ونفوذ مصر بداية من أسوان فى الشمال وحتى الشلال الرابع أو الخـــامس جنوباً، وبالتالى فهو يتبع المملكة المصرية إداريـــاً وسياســـياً كـــأى إقلـــيم مـــن أقاليم مصر.

لذلك فقد تم تعيين حاكم عام على رأس الإدارة للأقاليم السودانية المفتوحة أعطى لقب (ابن الملك ومفتش البلاد الجنوبية) وتغير مسمى اللقب فى عهد الملك تحوتمس الرابع (١٤١٢ – ١٤٠٦) ليصبح (ابن الملك فى كوش) وقد تحدث رايزنر بإستفاضة عن هذا الأمر فى مقالة (The vieroys of ethopia JEA vol. 6. 1902. PP 28-25) (١٦) وقد ذكر رايزنر أن عدد الحكام الذين تعاقبوا على ولاية السودان خلال فترة الدول الحديثة ٢٥ حاكماً إلا أن هذا العدد زاد إلى ٣٠ حاكماً بعد ظهور اكتشافات جديدة لاحقة (١٧).

وكان الملك أحمس هو أول من نصب أول حاكم على السودان (دجحوتى) وكان آخر الحكام (بنحاس) والذى تم تعينه فى عهد رمسيس الحادى عشر. ونظراً لقيمة الأقاليم المفتوحة عند الملوك المصريين، وأهمية المواقع التى استولوا عليها ولعظم شأنها واتساع مساحاتها فإنه لابد أن تتوافر شروط خاصة فى الحاكم الذى يتم تنصيبه على رأس الإدارة فى تلك الأقاليم – لذلك كان الاختيار يتم فى منتهى الدقة لهذا (الحاكم العام) فيفضل أن يكون من كادر إدارى رفيع المستوى، عالى الكفاءة، واسع الخبرة، وأن يستحق إنعام الملك عليه بلقب (ابن الملك) حتى تكون صلته بالملك وحاشيته ونوابه وقواده علاقة شخصية متينة مبنية على الثقة والاحترام. فإبن الملك لابد وأن يكون مخلصا للملك محباً له وخادم مطيع ينفذ سياسته وأوامره ويلبى رغباته وطلباته وأن يؤدى مسئولياته وواجباته بإتقان وإخلاص وأن يكون مسئولاً مسئولية كاملة أمام سيده الفرعون.

ومن المهام المسندة إلى الحاكم العام:

- جمع المكوث والضرائب وتجميعها ومن ثم يقوم بنفسه بتوصيلها إلى مقر جبايتها فى مصر.
- استغلال مناجم الذهب الاستغلال الأمثل والبحث والكشف عن مناجم أخرى للذهب وغيره من المعادن.

- الإشراف العام على إدارة أمور الحكم المدنية فى الإقليم بما فى ذلك الأمن الداخلى وتأمين السكان.
- متابعة وكلاءه ونوابه ومناديبه فى الإشراف على أعمالهم فى ديوان العمل بمحل إقامته.
- فيما يتعلق بالمهام العسكرية فإنها غالباً ما يتم إسنادها إلى مسئول آخر غير (ابن الملك) وهذا المسئول يحمل لقب (قائد الكتائب فى كوش)(١٨).

أما بالنسبة للأقاليم السودانية الواقعة تحت حكم (ابن الملك) فيقوم ابن الملك بتفويض اثنين من موظفيه يحمل كل منهما لقب "ادنو" وتعني النائب ولتسهيل تقسيم العمل بين النائبين تم تقسيم البلاد إلى إقليمين.

- الإقليم الشمالى وهو إقليم واوات ومركز هذا الإقليم عنيبة (إلا فى فترة حكم إخناتون كان مركز واوات فى فرص) ويتولى أحد النائبين مقاليد الإدارة فيه نيابة عن (ابن الملك)، كما أن اقامته تكون فى مركز الاقليم.
- الإقليم الثانى (كوش) ومركزه عمارة غرب أو عمارة الغربية وأحياناً صولب ويتولى إدارته النائب الثانى ويقيم فى مركزه.

وبالرغم من أهمية مركزى عمارة غرب أو عنيبة فى السودان أو لدى الحكومة المصرية إلا أنهما لم تكونا أكبر المراكز أو المدن ففيما بينها أقيم العديد من المراكز والإدارات الصغيرة سواء فى المدن أو القرى الكبرى، ويقوم بالإشراف على الإدارة فيها إداريون يحمل كل بينهم لقب (-حاتى عا) وهو ما يقابل (العمدة)، ولا يقتصر القيام بهذه المهمة أو هذه الوظيفة على المدنين بل فى بعض الأحيان يتولى المسئولية الإدارية أحد العسكرين، ويتضح ذلك من الألقاب التى يحملها المسئول، وكانت تلحق إدارة دينية فى أكبر المراكز لنشر ديانة الملك وعقيدته فى الإقليم أو المركز، وللمساعدة أيضاً على إقامة الشعائر التعبدية للآلهة المصرية (١٩).

وقد كشفت نتائج الحفائر التى تمت فى النوبة السفلى عن اكتشاف العديد من المقابر تحوى نقوشاً باللغة المصرية ورسومات لأصحاب تلك المقابر تبين

هوياتهم وقد تبين أن بعضاً منهم سودانيو الهوية وغالبيتهم من زعماء العشائر والقبائل المحلية كانوا قد تولوا مسئوليات إدارة الحكم فى الأقاليم السودانية لصالح المصريين، ومنهم (دجحوتى حوتب) حاكم دبيرة، وكذلك أخيه أمنمحات الذى تولى الحم بعده فى نفس المنصب [٢٠]، كذلك حاكم عنيبة (حكانفر) وكشف عن مقبرته فى توشكى [٢١] وكان هؤلاء الحكام والأمراء المحليون قد تولوا مناصبهم أيان فترة حكم الملكة حتشبسوت والملك تحوتمس الثالث المشترك، كما حدث فى عهد أخناتون أيضاً، ففى عهد أخناتون كان الأمير (حكانفر) ضمن الوفد السودانى الذى كان على رأسه النبيل (حوى) الحاكم العام على السودان آنذاك، ذلك الوفد الذى اصطحب الضرائب والمكوث والهدايا لتوصيلها إلى مقر الحكم المصرى فى طيبه، وقد وجدت صورة فى قبر النبيل (حوى) تبين هذا الحدث واضح فيها تواجد (حكانفر) مع الوفد، ومما يدل على قوة البناء الوظيفى والإدارى أن كان يأخذ شكلاً تنظيمياً مناسباً لنظام الإدارة المصرى فإن الكتابات والنقوش بين أن كل نواب (ابن الملك) كانوا يتخذون العمال والموظفين لشغل العديد من الوظائف والقيام بالأعمال الإدارية والفنية وكانت مسميات وظائفهم تدل على ما هية تلك الوظائف، مثل أمين المخازن أو أمين الخزينة، ومراقب الثروة الحيوانية، مفتشى صوامع الغلال ... بالإضافة إلى المحاسبين والكتبة، والمسجلين، إلى جانب الحرفيين والفنيين، وجدير بالذكر أن الإدارة الدينية أيضاً كان لها هيكلها الكهنوتى والوظيفى المستقل.

وبالنسبة للجيوش النظامية المصرية والتى كانت مكلفة بمهامها فى السودان فقد كانت توضع تحت قيادة وإشراف أحد المسئولين والذى يعطى لقب (قائد الكتائب الجنوبية) إذن فالمصريون عندما توسعوا جنوباً وأضافوا الكثير من الأقاليم السودانية إلى النفوذ المصرى، أضفوا صبغة إدارية متطابقة لنظم الإدارة فى أى إقليم مصرى.. فقد أعادوا تنظيم وتقسيم السودان إدارياً ومدنياً طبقاً للنظم المتبعة فى مصر وبطريقتهم وأساليبهم، وألغوا ما كان سائداً من نظم فى السودان عندما

دخلوها، حتى العناصر السودانية المحلية التى انخرطت فى سلك الإدارة المصرية إذعنوا بل واخلصوا العمل على نفس النهج المصرى.

وإذا أردنا المقارنة بما اتبعه المصريون فى البلاد التى سادوا عليها.. نجد الاختلاف الشديد فى أسلوب التعامل، إذا أن الوجود المصرى فى سوريا على سبيل المثال.. لم يتدخل فى الشئون الداخلية السورية، ولم يغيروا من نظام الإدارة السورى بل ابقوا عليه حتى حكام المدن لم يتم تغييرهم واكتفى المصريون باعتراف السوريون بالسيادة المصرية والتبعية لمصر ودفع الضرائب والإتاوات المفروضة، كذلك من الجانب الدينى لم يتدخل المصريون فى الشئون الدينية السورية أو الثقافات السائدة.

وعلى غير ذلك ففى السودان كان الأمر مختلف .. إذ سعى المصريون إلى تغيير كل الأحوال السائدة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً بل ودينياً أيضاً، وحاولوا جاهدين نشر عبادة الآلهة المصرية وتغليب الثقافة المصرية وذلك ببناء وتشييد المعابد للآلهة المصرية، وتشجيع النبلاء المحلين والأغنياء منهم على سلوك وتبنى العادات والتقاليد المصرية[٢٢]، لذلك فإن التوسع المصرى فى السودان لابد وأن يكون له أهداف يرجو المصريون تحقيقها من ورائه فهل هى أهداف سياسة أو عسكرية أو دينية وثقافية أو هى اقتصادية. أم أن المصريون بعد أن طردوا الهكسوس من مصر أخذت ملوكهم نشوة النصر والحالة المعنوية العالية التى تولدت لدى الجيوش، فأرادوا بناء امبراطورية كبرى تمتد من الفرات إلى أعالى وادى النيل فقاموا بتوجه الحملات إلى سوريا والسودان فى توقيت واحد، وشجعهم على الاستمرار نجاح أولى الحملات فى كل من الجبهتين، فالأسرة الثامنة عشرة فى بداية الدولة المصرية الحديثة طمع ملوكها فى فرض نفوذهم على أكبر رقعة من الأراضى خارج حدود مصر والتوسع والسيطرة فى تلك البلاد، وهم يختلفون عن سابقيهم من ملوك الدولة المصرية الوسطى الذين كان يهمهم بالدرجة الأولى الأوضاع العسكرية.

أما والأمر كذلك فإنه من السهل القول بأن ملوك الأسرة الثامنة عشر إنما سافروا إلى السودان بهدف الاستيلاء الكلى على السودان واستيطانه واستغلال ثرواته الطبيعة والبشرية، ففي السودان أراضي خصبة تجود بالمحاصيل، وفي السودان مناجم للذهب والمعادن وأحجار جرانيتية، وفي السودان ثروة حيوانية كبيرة في السودان الحيوانات البرية الغنية بالجلود والفراء والعاج وريش النعام بالإضافة إلى الثروة المائية، وفي السودان ثروة بشرية وإنسانية كل ذلك دعا ملوك الأسرة الثامنة عشر التفكير بجدية وبإصرار على التوسع جنوباً والاستيلاء على السودان وفرض النفوذ العسكرى والاقتصادى والسياسى والديني كلما أمكن ذلك ويمكن الإشارة إلى الأسباب الرئيسية للتوسع المصرى في السودان بشيء من التفصيل كما يلي:

١- الذهب ومناجم الخامات الأخرى:

شكل الذهب أهمية كبرى لدى ملوك مصر وأغنيائها، وكان من أهم الأسباب على إطلاقها لدخول المصريين إلى السودان، بل وقد يكون هو السبب الوحيد، وكل من ما الأسباب الأخرى جاءت بالتبعية للتواجد المصرى في السودان، وكان الذهب يحظى باهتمام وحب قدماء المصريين فقد عرفوا ميزاته وخصائصه وقيمته الجمالية، وتفرده بين المعادن الأخرى، فهو يبهر الناظر، ويجذب بلمعانه وبريقه الانتباه ويخطف الأبصار، وهو معدن لا يعلوه صدأ ولا يعتريه تغيير ولا يعيبه تحلل، والقدماء استغلوا هذا المعدن لأقصى درجات الاستغلال، صنعوا منه أجمل الحلى وأبهاها، وصنعوا التماثيل الصغيرة، وزينوا به أثاثاتهم وأسلحتهم وصولجاناتهم، وكان للذهب قيمة (سياسية) أيضاً فهو كان يهدى إلى حكام سوريا وملوك الحيثيين كوسيلة لإغرائهم بالتعاون مع المصريين، ولتقوية أواصر الصداقة، واكتساب الحلفاء وضمان ولاء هؤلاء الملوك والحكام للمصريين والخضوع لرغباتهم، واستخدامه أيضاً لجذب واستماله أصدقاء جدد كلما احتاج الأمر من ذوى النفوذ في تلك البلدان. كما أننا لا نغفل أهمية الذهب للمصريين أنفسهم فهو يستخدم في أدوات الزينة لدى الأغنياء والنبلاء، كذلك يهدى في صورة ميداليات

لذوى الحظوة والمقربين والمتميزين من الأمراء وقواد الجيوش وحكام الأقـاليم ممـا كان مدعاة إلى الرفع من شأن الملوك وتقوية مكانتهم ودعم حكمهـم وضـمان فرض سيطرتهم ونفوذهم على الموظفين والعاملين، وكذلك يهدى إلى المعابد والآلهة المصرية لضمان تأييد ومساندة كهنة المعابد، بل ولإرضاء الآلهـة لدرجـة أنهـم يشبهون أجسام الآلهة بالذهب كمقولة (حورس الذهبى) [٢٣] ولما كانت تلك أهمية الذهب بالنسبة لملوك مصر فإنهم سيروا الحملات إلى مناطق تواجدة لاستغلال مـا هو مكتشف من مناجم أو اكتشاف مناجم جديدة، ومواقع تواجـد الـذهب فى السودان تتركز فى نقطتين فى صحراء النوبة الـشرقية (وادى العلاقـى)، (وادى قبقبة)[٢٤]، وللوصول لهذين الموقعين لابد من المرور والخروج إليهـا مـن إقلـيم (واوات) ولذلك تعزى أهمية هذا الإقليم لأنه الباب المؤدى إلى الحصول على هـذا المعدن الثمين بل وصل الأمر إلى حد تسمية الذهب المستخرج من تلـك المنـاطق بـ(ذهب ووات) واستخراج الذهب أمر فى غاية الصعوبة، فهو عبارة عن عروق تتخلل نوع من الصخور. يلزم معه بعد الحصول على تلـك الـصخور قـصتيتها وسحقها وتحويلها إلى تراب، ومن ثم يعالج الخام ويستخلص الذهب، ومـا يزيـد الأمر صعوبة بعد مناجم الذهب عن النيل وعن مناطق توافر الميـاه، بالإضـافة إلى وجود القبائل المتحفزة دائماً للهجوم على الدخلاء (المدجاى)، لذا كانت البعثات تخرج فى حماية عسكرية كافية بالإضافة إلى قوافل الماء والغذاء، وبذل المصريون كل الجهد وسخروا كل الإمكانيات لاستخراج الذهب، ووصل معدل إنتاج الـذهب من مناجم واوات وكوش حوالى ٢٦٠ كجم سنوياً [٢٥]، ومن النصوص التى عثر عليها من عهد الملك امنحتب الثالث (١٤٠٢ – ١٣٦٤ ق.م)، يظهر تـصميمه القوى على استغلال المناجم والحصول على ذهبها بل وصول بعثات كشفية جديدة وظهرت مناطق جديدة تسمى (اكوتيا) التى استمر اسـتغلال ذهبـها فى عهـد امنحتب الثالث حتى عهد الملك رمسيس التاسع (١١٢٧ – ١٠٩٩) فى أواخـر الأسرة (٢٠).

٢- الأراضى الزراعية والثروة الحيوانية:

لم يكن السودان متميزاً فى الزراعة، ولم تكن الأرض الصالحة للزراعة متوفرة بكثرة إلا أن المصريين مما عرف عنهم قاموا باستغلال الأراضى الزراعية (وزيادة رقعتها) أحسن استغلال فهم من أمهر الفلاحين على وجه الأرض، حيث قاموا بعمل التقسيمات المساحية للأراضى حسب طبيعة الأرض ومستوياتها وأدخلوا آله الشادوف وغيرها واستخدموا أدواتهم الزراعية مما أدى معه إلى نجاح أعمالهم وزيادة الإنتاج الزراعى بالإضافة إلى تحقيق استيطانهم، والأرض بعد الإستيلاء على السودان أصبحت ملكاً للفرعون المصرى يهب الملك منها ما يشاء لمن يشاء سواء النبلاء أو الموظفين أو المقربين أو أمراء الأقاليم وحكام العشائر المحليين لضمان ولائهم وكسب انتمائهم، بل وكانت توقف الوقفات الكبيرة من الأراضى للمعابد التى يقيمها المصريون لعبادة آلهتهم ونشر دياناتهم، وأما أهل البلاد فقد أصبحوا عمالاً يستخدمونهم فى زراعة الأرض أو أعمال أخرى بالأجر أو بغير أجر، كذلك لا نغفل توافر الحيوانات المستأنسة من الأبقار والأغنام والحمير بالسودان فكانت تجمع كل عام وترسل إلى مصر مع وفود الحكام لدفع الضرائب وتقديم الهدايا، وبالرغم من تلك الفوائد التى تجنى من الأرض ومن الثروة الحيوانية إلا أنه لم تكن دوافع ملوك الأسرة الثامنة عشر ومن بعدهم التوسع فى السودان لأجل هذا الغرض.

٣- الحيوانات البرية والمائية:

قد يبدو الأمر غريباً أن يهتم قوم بالسباع والقرود والفهود والحيوانات المفترسة إلا أن المصريين كان لديهم ولع وشغف شديدين بالحيوانات المتوحشة والغير أليفة خاصة ذات الجلود السميكة والمنقط منها أو المخطط أو ذات الفراء، فهم إلى جانب ولعهم بالقرود والغزلان فإنهم استغلوا باقى الحيوانات فى الحصول على جلودها، وعلى أنياب الفيل العاجية، وعلى جلود التماسيح للاستفادة من كل تلك الخامات فى صنع الحلى والملابس الثمينة، بالإضافة إلى الاستفادة من أشجار

الخشب خاصة الأبنوس المستخدم فى عمل بعض التماثيل والأثاثات، وكذلك استغلال (الصمغ العربى)، ونباتات العطور والبخور كما لا نغفل أيضاً حصولهم على ريش النعام وبيضه بل والنعام ذاته.

٤- السكان المحليون:

لم ينج السكان المحليون من الاستغلال، فقد كانوا يسخرون أحياناً فى الزراعة أو يستخدمون فى القيام بالأعمال المتدنية وفى خدمة المنازل والأوقاف والمعابد بل كانوا يساقون إلى مصر خاصة الزنوج منهم للعمل كخدم، أو لخدمة الأمراء والأغنياء بل وإلحاقهم أيضاً بالجيوش للعمل فى تقديم الخدمات والمعاونة فى الأعمال العادية، فلا غرو أن الإنسان السودانى على اختلاف عناصره تعرض للاستغلال من قبل المصرين.

أوردنا فيما سبق أسباب التوسع المصرى فى السودان، وعائد ذلك على المصريين، وأثره على الدولة المصرية، وتعرضنا لأسلوب وطريقة إدارة البلاد المفتوحة واستغلال مواردها وإمكاناتها المختلفة وثرواتها المتعددة، وقد استمر التواجد المصرى فى السودان قرابة (٥٠٠) خمسمائة عام على امتداد بقاء الدولة المصرية الحدية (١٥٥٢ – ١٠٦٩)، وامتد ذلك التواجد من حدود مصر الجنوبية عند الشلال الأول وحتى الشلال الخامس أو الرابع جنوباً، ومما لا شك فيه أن استمرار ذلك الوضع طوال تلك الحقبة من الزمن قد ترك كثير من الآثار على سكان السودان وعلى (أهل المجموعة (ج) فى النوبة السفلى) فى الشمال بين الشلالين الأول والثانى، وعلى (أهل كرمة) حول الشلال الثالث وجنوبه حتى الرابع فى الجنوب، و لم تقتصر الآثار على السكان فقط بل كانت أيضاً على البيئة ونظم الإدارة والتقسيمات الإدارية التى إستلزمتها أحكام السيطرة وفرض النفوذ ونورد فيما يلى بعض أهم تلك الآثار:

١- القضاء على مملكة كرمة:

كان من أول الآثار المترتبة على التوسع المصرى المباشرة، هو انتهاء وانقضاء مملكة كرمة التى كانت قائمة إبان حكم الأسرة الثامنة عشر المصرية وقد

صحب عملية التوسع صراع شديد ومقاومة عنيفة من أهل (كرمة المدينة) حتى أسقطها المصريون، وكان ذلك حوالى عام ١٤٥٠ ق.م طبقاً (للكربون ١٤) وبسقوطها دانت مملكة كرمة للمصريين، أما أهالى الشمال (مجموعة الحضارة ج) فقد اعتادوا على توغل المصريين وفرض السيطرة عليهم إذ أن ملوك الدولة المصرية الوسطى سبق وأن احتلوا أراضى أهل تلك الحضارة (مجموعة ج)، وشيدوا فيها القلاع والحاميات العسكرية مع بداية الأسرة الثالثة عشر وحتى فى فترة الاضمحلال الثانية التى عاشتها مصر فى ضعف وتفكك داخلى حل ملوك كرمة محل المصريين فكان من السهل أن يعاود المصريون فرض نفوذهم وسيطرهم على النوبة السفلى.

٢- تغير نظم الحكم وأساليب الإدارة:

ويبرز هنا الأثر الاجتماعى فى أجلى صوره حيث أن ذلك التغيير الذى تم فى تطبيق نظم مغايرة للحكم وتقسيم المناطق إلى أقاليم ومدن وقرى (ومشيخات) صغيرة مما ترتب عليه فرض النظام البيروقراطى المصرى، وإتباع أساليب جديدة فى الإدارة لم تكن قائمة فى السودان حيث استبدلت وتغيرت نظم الإدارة وطرق المعاملات، وتنظيم العلاقات بين طبقة الحكام وبين طبقة المحكومين بواسطة طبقة من الموظفين يخضعون فى تبعيتهم لحاكم عام (ابن الملك فى كوش) يتبع مباشرة الملك المصرى ينفذ السياسة التى فوضت على السودان مثلها فى ذلك مثل الأقاليم المصرية من حيث إلزامهم بجبى الضرائب والمكوث وخدمة المملكة المصرية وتسخير الأهالى لدرجة السخرة فى الأعمال والخدمة واعتبار السودانيون طبقة عاملة كعمال زراعة أو خدم باستثناء بعض الموالين للمملكة المصرية والتابعين لها فى تطبيع العلاقات وتثبيت دعائم الحكم المصرى (٢٦).

٣- الأثر الدينى والثقافى:

كان هم ملوك الدولة الوسطى الحفاظ على حدود مصر الجنوبية آمنة ومستقرة لذا وجهوا اهتمامهم للتوسع جنوباً لهذا السبب لذلك كانت أهم آثارهم فى الجنوب القلاع الحربية والمحميات التى تركوها، بينما اختلف الأمر أبان عصر

الدولة المصرية الحديثة إذا ظهر فى بداية عهدها انشغالهم أولاً بالتوسع، وفتح البلاد والاستيلاء عليها ثم إرساء قواعد الحكم المصرى، وتدعيم السيطرة ومن ثم بسط النفوذ بعد استقرار الأوضاع.

وقد أخذ ملوك الدولة الحديثة على عاتقهم العمل على نشر الثقافة المصرية والديانات السائدة وظهر ذلك جلياً الإصرار على بناء المعابد فى كثير من المواقع بإقليمى واوات وكوش، ووقف الإقطاعيات لها ودعمها بالكهنة والموظفين وتكوين إدارات دينية مشابهة لتلك القائمة فى مصر، ويظهر النفوذ الديني المصرى فى السودان فى الاستمرار الدءوب على بناء هذه المعابد وتجديدها وتطويرها كلما لزم الأمر فى مراكز التجمعات السكانية، وفى المدن والقرى الهامة، وقد أخذ تنفيذ سياسة إنشاء وإقامة المعابد مراحل متعددة.

أ- المرحلة التحوتمسية:

فى عهد الملك تحوتمس الثانى والملك تحوتمس الثالث تركز نشاطهما فى منطقة الشلال الثانى، والتى تتميز بكثرة القلاع التى أقامها ملوك الدولة المصرية الوسطى، فعملا على بناء وتشييد المعابد فى تلك المنطقة ومن خصائص تلك المعابد أنها كانت صغيرة من حيث الحجم والاتساع إلا أنها بنيت بعناية فائقة فاتسمت بمتانة البناء وجمال الشكل ومن أمثلتها معابد سمنه، كمة وبوهين، وفرس.

ب- المرحلة الثانية:

وكانت تلك المرحلة من نصيب الملك امنحتب الثالث والملك أخناتون فأما امنحتب الثالث فقد اختلف عن سابقة إذا شيد معابده فى مناطق جديدة لم يسبقه إليها أحد من قبله، حيث وقع اختياره على منطقتى صولب وصادنقا، ففى صولب أقام لنفسه معبداً جميلاً ويعتبر من أجمل المعابد المصرية فى السودان وخصصه لنفسه وفى صادنقا بنى معبد زوجته المحبوبة تى.

وأما إخناتون فكان الأمر مختلف من حيث الديانة الجديدة التى أتى بها وهى عبادة أتون وقد شيد معبداً لعبادة أتون فى منطقة الكوة وبنى معبداً آخر فى

سيسبـــى، وفى هذه المرحلة لا نغفل المعبدين الصغيرين المنسوبين إلى توت عـــنخ آمون احدهما فى الكوة والآخر فى سبسيى أيضاً.

ج- المرحلة الثالثة:

والتى تأتى فى بداية الأسرة التاسعة عشر مع نهاية الأسرة الثامنة عشر وتمثل تلك المرحلة المعابد التى شيدها أوائل ملوك الأسرة الـــ١٩ فى جبل البركل، وقـــد تبين من الاكتشافات التى قام بها رايزنر فى جبل البركل حيث اكتـــشف نقوشـــاً تنسب إقامة معبد آمون الرئيس فى جبل البركل (B 50C)، يرجع إلى حورمحـــب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشر أو سيتى الأول ثانى ملوك الأسرة التاسعة عشر[٢٧]، ومن الجدير بالذكر أن هذا المعبد لم يكن الأول فى جبل البركل، فقـــد كـــشفت الآثار عن وجود معابد أقدم منه فى هذا الموقع يرجع تاريخ إقامتها إلى عهد الملوك تحوتمس الثالث، وتحوتمس الرابع[٢٨]، إلا أن من أشهر الملوك الذين اهتموا اهتمامـــاً شديداً بتشييد المعابد هو الملك رمسيس الثانى، فقد أعطى الأمر أهمية بالغة حيـــث شهد عهده إقامة حوالى تسعة معابد على أقل تقدير انتـــشرت مـــن الـــشمال إلى الجنوب فى بيت الوالى، جرف حسين، وادى السبوع، الدر، أبو سمبـــل، فـــرس، عكشة، عمارة، جبل البركل ومن أشهر تلك المعابد وأعظمها وأجملها معبدى أبو سمبل اللذين شيدهما واحداً لشخصه وكرس الآخر لزوجته الجميلة نفرتارى.

إذن فقد أهتم ملوك مصر بنشر النفوذ الدينى إلى جانـــب نـــشر الثقافـــة المصرية فى السودان، وأخذ بسط النفوذ الدينى المصرى اهتماماً بالغاً واســـتمرارية لم تهدأ على امتداد فترة الوجود المصرى فى السودان، لذا فإنه من الأهميـــة بمكـــان التحدث عن طبيعة وتكوين المعبد المصرى لإظهار الآثار المترتبة علـــى الاهتمـــام الزائد به.

فالمعبد المصرى من حيث البناء والشكل يتميز بكثرة الأعمـــدة وتعـــدد القاعات والمقاصير وانتشار التماثيل والنقوش والتصاوير ... إلخ، فقبل الدخول إلى المعبد توجد الساحة الخارجية المؤدية إلى بوابة المعبد حيث تنتشر تماثيل الملـــك أو الآلهة فى ترتيب معين قائمة على قواعد من الحجر.

وتزين الواجهات بالمناظر التقليدية التى تسرد المواقع الحربية التى قـام بهـا الملك وتوضح انتصاراته على اعدائه وتبين مدى قوته وسلطانه.

ومن ثم نجد بوابة المعبد (Pylon) والتى ترتفع قوائمها وجدرانها ارتفـاع شاهق، وترتفع علوًا عن جدران سور المعبد بكثير، وتزين جدرانها المناظر والصور. وتؤدى البوابة إلى القاعة الكبرى تنتظم فيها الأعمدة بسمترية دقيقة وقد تنصب فى كثير من الأحيان فيها تماثيل للملك، أو الآلهه قائمة على قواعد حجرية، والأعمدة أيضاً مزينة بنقوش ومناظر منحوتة تحكى أعمال الملك إلى جانب الصور الدينية، أما سقف القاعة فإنه مرسوم وأحياناً تكون ملونة تلك الرسوم حاوية لمناظر وخراطيش تحوى اسم الملك أو مناظر للنجوم، والطيور خاصة طائر العقاب ناشرا جناحيـه، وفى الجانب الغربى للقاعة باب يؤدى إلى قاعة صغيرة ينتظم فيهـا صـفان مـن الأعمدة المزين جدرانها بالمناظر الدينية، وفى بعض المعابد توجد غرف على جانـب القاعة الكبرى الشمالى وتلك الغرف تستخدم كمخازن أو غرف للكهنة وموظفى المعبد والعاملين فيه، ويتجه البناء غرباً لنهايته حيث ينتهى بغرفتين تخصص الأخيرة منهما لقدس الأقداس حيث توضع فيها تماثيل الآلهة والمذبح أو مائدة القرابين، (وفى حديقة متحف السودان القومى بالخرطوم شاهد حى على مثل هذه المعابد وهـو (معبد بوهين) الذى تم نقله بعد صدور قرار الحكومة المصرية بتعلية خزان أسـوان الذى غرقت على أثر هذه التعلية غالبية الآثار جنوب أسوان.

والمعبد المصرى تمارس فيه الشعائر والطقوس المتعلقة بالعبادة وتمجيد الآلهة المصرية، تبدأ بالموكب الصباحى الذى يعاد فيه تمثال الإله محمولاً إلى مكانه ثم يقوم الكهنة بإحراق البخور وإطلاقه فى إرجاء المعبد، ويعطى قليل من العـسل للآلـه (لفك ريقه) ويتم غسله وتطهيره وتقليده زينته ولباسه، وتعد المائدة بشتى أصناف الأطعمة والفواكة، بعد الانتهاء من الطعام، يتم تطهير الإله من جديد ويسار بـه محمولاً فى مسيرة مهيبة ينتظم فيها الكهنة وخدمة المعبد حتى يصلوا به إلى قـدس الأقداس فيوضع فى مكانه... وتلك الطقوس يقوم بها الكهنة وسدنة المعبد وخدامه

ولا يسمح بالجمهور بالمشاركة فيها إلا أنه يمكن السماح للشعب والجمهـــور أن يشاهدوا مراسم الاحتفالات والمهرجانات والأعياد الكبرى والتي ما تقـــام عـــادة في الخلاء مثلما يحدث في الاحتفال بزواج الإله آمون بالآلهه موت حيـــث يخـــرج موكب الاحتفال من معبد الكرنك لقطع طريق الكباش حتى يـــصل الموكـــب إلى معبد الأقصر.

ومن المنطقى أن تقام هذه الشعائر وتمارس تلك الطقوس في المعابـــد الـــتي شيدت في السودان مثل ما تقام في المعابد المصرية، وكان يشاهدها أهل الـــسودان مبهورين بها ومشدودين إليها مما كان يجعل أمر إتباع الديانة المصرية ميسراً لهـــم، خاصة وأن الكهنة الذين يقومون بتلك الطقوس من المصريين لديهم من المهـــارات التي يؤدون بها تلك الشعائر والعبادات بصورة تدعو إلى الإعجاب والانبهار.

٤- اندثار حضارة المجموعة ج:

أدى التوسع المصرى في السودان إلى انتشار الاستيطان المصرى مما ســـاعد على توارى واختفاء الحضارة المادية للمجموعة ج وقد تبين ذلك بوضـــوح أثـــر الاكتشافات التي قام بها كل من (رايزنرفيرث) في شمال النوبة السفلى (بين الشلال الأول وبين وادى السبوع) الفترة من عام ١٩٠٧ حتى ١٩١١، ونتج عن عمليات المسح الآثارى التي قاما بها عثور رايزنر على قبور ذات عـــادات دفـــن مـــصرية واضحة، فالقبور مستطيلة تحوى توابيت بداخلها جثمان المدفون راقدا على ظهره كما عثر على الفخار المصرى المستعمل في مصر، وهذه عادات دفن مصرية خالصة قد حلت محل عادات المجموعة ج في الدفن والتي اختفت خصائصها المميزة والمتمثلة في عادات دفن محلية وفخار محلى، حلت محلها العادات المصرية مكـــان ذلـــك في منتصف الأسرة الثامنة عشر بعد مضى حوالى ١٠٠ عام منذ بداية توسع الدولـــة المصرية الحديثة في السودان. مما يؤيد انتشار النفوذ الديني المصرى، ولم يختلف الأمر في الاكتشافات التي تمت أثر المسح الأثرى الثاني الذى تم في المدة من عام (١٩٢٩ – ١٩٣٥) في الجزء الثاني من النوبة السفلى (بين وادى السبوع وبـــين ادنـــدان)

كذلك وجد اثر الاكتشافات التى تمت بعد عام ١٩٥٩ فى الجزء الأخير من النوبة السفلى انعدام أية آثار لحضارة المجموعة ج فى كثير من الجبانات مثل جبانة (القدروس) وإن وجد فى نجبانات اخرى تحوى قبور تحمل السمات المصرية فى الدفن، وأخرى ذات خصائص لحضارة المجموعة ج كما تم العثور على قبور تحوى خصائص لحضارة (البان جريف) [٢٩] وفى مواقع أخرى تم العثور علي قبور ذات خصائص محلية بها فخار مصرى أو العكس وذلك كله يؤكد تداخل العادات مما أدى إلى انتشار النفوذ الدينى المصرى على الساحة المحلية.

٥- هجرة السكان المحليين (النوبة السفلى):

ظهرت أول ما ظهرت (نظرية الهجرة) والتى وضعها الأستاذ فيرت، حيث طرحها اعتماداً على المعطيات التى حصل عليها من الحفريات والمسح الأثرى الذى تم فى النوبة السفلى، وتقول تلك النظرية بهجرة (سكان المجموعة ج) من مناطق تواجدهم، حيث يرى أن كل المقابر التى اتبعت فيها عادات الدفن المصريين أنما هى قبور المصريين مستوطنين فى النوبة السفلى وليست لمحليين تأثروا أو اتخذوا العادات المصرية فى الدفن بدلاً من عاداتهم[٣٠]، ويفسر عدم وجود قبور خاصة بأهالى المجموعة ج فى الجزء الشمالى من النوبة السفلى بأنه يرجع ذلك إلى أن هؤلاء السكان قد هاجروا تلك المنطقة وتركوها هرباً من سوء معاملة المصريين لهم وتسلطهم عليهم، واستغلالهم بتسخيرهم فى القتال أو فى المناجم أو تسفيرهم للعمل فى مصر، إلا أنه ليس السبب الرئيسى لهجرتهم، ويعتقد فيرث أن قلة المياه وانخفاض مستواها فى النيل قد أثر على الزراعة مما ندرت معه المحاصيل، بالإضافة إلى ما ذكره عن خوفهم من سوء المصير إذا ظلوا فى مواقعهم إذ سيستمر الملوك فى معاملتهم معاملة العبيد وحملهم على القيام بأعمال التعدين الوعرة واستغلالهم فى العمل فى القصور والمعابد وبيوت الإشراف كعبيد، فكان من الطبيعى أن يهربوا إلى أماكن لا تصل إليهم فيها القوات المصرية، لذا بنى نظريته عن القبور المكتشفة فى الجزء الشمالى من النوبة السفلى كما أسلفنا.

وقد بنى الأستاذ (آدامز) نظرية الهجرة التى قام بها فيرث ودعمها إذ قام بعمل إحصائيات لكل القبور التى تم اكتشافها فيما تم من مسح أثرى فى كل المنطقة وتوصيل إلى نتيجة مؤداها أن عدد القبور يتناقص بإطراد سواء التى كانت لمستوطنين مصرية أو لمحليين من أهل المجموعة ج لدرجة أن عدد القبور التى عثر عليها فى عصر الأسرة العشرون والتى أحصاها فى كل الجبانات والمواقع لم يزد عن ١٠٠ قبر [٣١] وأن كان هناك رأى أخر مخالف لكل من (فيرث) و(آدامز) أنه رأى سيف سودروبرج أعزى سبب اختفاء معالم حضارة المجموعة ج واندثار معالمها إلى أن التوسع المصرى بعد أن استقر وتوطدت أركان حكم المصريين بدأت عملية تمصير أهالى الأقاليم السودانية التى تم الاستيلاء عليها، وفسر اختلاف طريقة الدفن واتباع عادات الدفن المصرية بأن ذلك لم يكن بأى حال راجعاً إلى هجرة السكان المحليين، كما لم تكن أيضاً القبور خالصة لمستوطنين مصريين بل أن تلك القبور ذات الملامح المصرية إنما هى لسودانيين تمصروا أى أنهم تقبلوا الحضارة المصرية بعاداتها وثقافاتها وتمسحوا بها وبدأوا فى ممارستها واستدل على صحة نظريته بما تم اكتشافه من آثار فى قبرى كل من الأمير (دجحوتى حوتب)، الأمير (حكانفر).

٦- التمصير:

يتمسك سيف سودربرج برأيه ويرفض فكرة هجرة السكان المحليون واستدل على قيام عملية تمصير السودانيين بأمثلة عن قبرى حاكمين إقليمين من أبناء السودان.

(قبر الأمير دجحوتى حوتب) عاش هذا الأمير فى فترة حكم كل من الملكة حتشبسوت والملك تحوتمس الثالث (المشتركة)، وقد دفن بعد موته فى منطقة (دبيره)، وقد بنى له قبر على طرية القبور المصرية، حيث شيدت غرفة الدفن بالقطع فى الصخر، وقد ظهرت على جدران تلك الغرفة الصور والرسومات التى تصور الأمير وهو يقوم ببعض أعماله وأنشطته خلال حياته، فقد صورت له رحلة صيد صحراوية، كذلك ظهر وهو جالس مع ضيوفه وحاشيته على مأدبة للطعام

يتناولون الطعام بينما تتقدم فرقة سودانية بالرقص والغناء، وفى منظر آخـــر وهـــو يروى نباتات حديقته المحيطة بمترله، ومنظر آخر يبين عماله يحملون إليه المحاصـــيل التى جادت بها مزارعه[٣٢]، وتكشف الكتابات على جدران قبره أنه كان حاكما على منطقة دبيرة، وكل هذا يدل على إتباع الأمير دجحـــوتى حوتـــبَ التقاليـــد المصرية فى حياته واختياره لأسلوب ونمط الحياة على الطريقة المصرية، بل إنه عنـــد موته اتبع طريقة الدفن المصرية أيضاً، فقد سجى جثمانه منبسطاً على ظهـــره، ولم يدفن (بالطريقة القرفصائية) كما وجدت آثار وبقايا تـــابوت، وقنـــاع الموميـــاء. كذلك تم العثور على الجرار الكانوبية الأربعة، والمـــصنوعة علـــى شـــكل رؤوس حيوانات وتستخدم فى حفظ أحشاء الميت وهى من الأعمـــال المكملـــة لعمليـــة التحنيط، وكذلك تم العثور على لوح مدون عليه اسمه، كما أن كل الموجودات من حلى وفخار وغيرها كانت مصرية، وهذا الأمير يحمل اسم مصرى ودفـــن تبعـــا للعادات المصرية فى الدفن وشيد قبره بذات الطريقة المصرية، إلا أن أصله ووالـــداه سودانيين خالصين، ويتضح ذلك من أسماء والديه فوالده هو الأمير ريو حاكم دبيرة السابق ووالدته رونا وهما أسماء سودانيات [٣٣].

وبالنسبة لقبر الأمير (حكانفر) فهو المثال الثانى الذى ساقه سودربرج فهو يحمل اسم مصرى بينما هو من توشكى هويته سوادنية فسحنته ولون بشرته الأسمر يدلان على أصله السودانى والتى ظهرت من صورة على جدران القـــبر كمـــا أن (الأكسسوارات) التى يتحلى بها والقلائد بعضها محلى [٣٤]، ويرى[٣٥] أنـــه لـــيس حتما أن يكون الأميران المتمصران منحدران من زعامات المجموعة ج، بل قد يكونا من كرمة أو من المدجاى وفى كل الأحوال هما سودانيان.

ويسوق (سيف سودربرج) أدلة أخرى يدحض بها حدوث هجرة لمحلـــيين من النوبة السفلى فهو يرى فى استمرار التواجد المصرى وقيـــام النظـــام الإدارى المصرى طوال فترة هذا التواجد وهى نهاية الأسرة العشرين أن يكون ذلك قائمـــاً بدون وجود سكان وفى غياب أهالى النوبة السفلى إذ أن كـــل الكتابـــات الـــتى

كشفت عنها الحفريات التى تؤكد تواجد الإدارة المصرية خلال هذه الحقبة أورد منها (سودربرج) النقوش التى تركها (بانوت) نائب الحاكم وعثر عليها فى قبره فى عنيبه والتى تظهر أنه كان يعمل فى عنيبه فى عهد الملك رمسيس السادس سابع ملوك الأسرة العشرون، وفى عنيبة أيضاً تم العثور على قبر الحاكم (بانحس) وكان متزامناً مع عهد رمسيس الحادى عشر آخر ملوك الأسرة العشرون، كذلك عثر على كتابات فى جزيرة دوقنارتى تحكى عن وصول القمح والمحاصيل إلى واوات أيضاً فى عصر الأسرة ٢٠، كما أكد سودربرج أن هناك عادات وخصائص مصرية غابت عن القبور ذات الملامح المصرية التى يقال أنها لمصريين مستوطنين بعد أن هاجر السكان المحليين، وتلك القبور لم يتم فيها تعريف صاحب القبر بكتابة اسمه، كما أنه لم يعثر على تماثيل الشوابتى، والتمائم التى تتميز بها القبور المصرية.

وخلاصة رأى سودربرج أن ما تم فى النوبة السفلى بل وفى السودان إنما هو عملية تمصير قوية انتشرت بين أهل الطبقات العليا من السودانيين بسرعة، وبالتبعية فإن رعاياهم تبعوهم على العادة، ويرى أن عملية التمصر تمت على مراحل إلا أنه لم يكن تمصراً كاملاً.

وافق (تريجر) (سيف سودربرج) على رأيه ذلك حيث يعتقد فى حدوث التمصر ويستبعد فكرة الهجرة لأن شدة أحكام سيطرة المصرين على الأقاليم السودانية كانت قوية مما يجعل عملية الهجرة ذاتها يصعب القيام بها من جانب السكان، فهو يؤكد على أزدهار حضارتى كرمة والمجموعة ج بالرغم من التوسع المصرى وحتى بعد منتصف الأسرة الثامنة عشر، وأن ظاهرة اختلاط الحضارات بدأت تأخذ طريقها إلى سيادة العادات والثقافات المصرية فى السودان غير أن (العامل الكرونولوجى) الذى ذكره أدامز [٣٦] هو العائق الوحيد أو الانتقاص الرئيس لعملية التمصر[٣٧]، ويعلق تريجر على نظرية الهجرة بسبب انخفاض مستوى مياه النيل فإن تريجر يعتبر أن ذلك لم يكن سبباً كافياً لهجرة السكان لأن ذلك يمكن حدوثه فى أى عصر أو فى أى زمان بل وقد حدث كثيراً لأنها تتبع عوامل

بيئية ومناخية غير ثابتة، وبالرغم من ذلك لم تحدث الهجرات، ويرى أن الكثافة السكانية فى عهد الأسرة الثامنة عشر كانت عالية فى النوبة السفلى بينما كان مستوى مياه النيل منخفضاً عنه فى زمن الأسرة العشرون والذى كانت أعداد السكان أقل ومستوى المياه مرتفع، كذلك عاد السكان إلى الإقليم فى بدايات حكم البطالمة ٣٠٠ ق.م وقاموا بإعداد أراضي واستغلالها، وبالرغم من أن السواقى الخشبية لم تدخل المنطقة إلا فى بدايات القرن الأول الميلادى، وهو يعنى بذلك أن ظروف النيل هى لم تتغير حتى فى الزمن المعاصر، وقبل بناء السد العالى كانت هناك حياة مستمرة فى النوبة السفلى يقومون ببعض الزراعات ويزرعون كميات من المحاصيل بينما مستوى مياه النيل لم يتغير عما كان عليه فى عصر الأسرة العشرون وذلك رأى راجح لأنه ليس من المحتم أن يهجر السكان قراهم بسبب انخفاض مستوى النيل لأن ذلك أمر متوقع حدوثه ويمكن تكراره.

ويرى كثير من العلماء أن عمليتى الهجرة والتمصير كانتا عمليتين متلازمنين حدثتا متزامنتين، فبينما تمصر كثير من أفراد الطبقات المتميزة والأغنياء والمقربين إلى المصرين وتابعيهم من الرعايا أو العاملين لديهم كانت هناك تسللات تحدث ببطء لمجموعات أو أسر تخرج متسللة إلى الصحارى خاصة الصحراء الشرقية، وعندما ترك المصريون السودان ورحلوا منها مع نهاية زمن الأسرة العشرين هاجر السكان المحليين تاركين المنطقة بما فيها — ما يطلق عليه هجرة شاملة — ويرى كثيرون أن ذلك هو سبب عدم وجود أية آثار بعد ذلك فى المنطقة أو ما يسمى بظاهرة (الخلو الآثارى).

قيام مملكة نبتة

وللحديث عن نبته تلك المنطقة حول الشلال الرابع أو المدينة التى تقع عند سفح جبل البركل، وكيفية نشأة وقيام نبته كمملكة، والظروف والأحوال المحيطة بتلك النشأة فلابد من الإشارة إلى الحياة السائدة فى فترة ما قبل النشأة وعن حالة كل من مصر والسودان وذلك (فى الفترة من ١٠٦٩ أو ١٠٨٥ ق.م بداية خروج المصريين من السودان وحتى ٨٥٠ ق.م تاريخ ظهور مقبرة الكرو على وجه التقريب) تلك الفترة من تاريخ السودان والتى تتميز بظاهرة (الخلو الأثارى) كما أطلق عليها العلماء والباحثين.

الأحوال السائدة فى مصر:

تعرضت الدولة المصرية الحديثة فى القرن الأخير من عهدها للعديد من المشكلات بشتى أنواعها وشدة وطأتها وتباين آثارها، وكانت الأمور تسير سيراً عادياً فى ظاهرها بالنسبة لبلاد النوبة، فبالرغم من الدلائل الأثرية على التناقص المتطرد فى أعداد السكان بالنوبة السفلى، إلا أن الإدارة المصرية استمرت فى القيام بأعمالها من إدارة لشئون البلاد وجمع الضرائب والمكوث، وهناك كتابات تؤكد تحصيل الضرائب المقررة على بلاد النوبة السفلى وإرسالها إلى الملك رمسيس أخر ملوك الأسرة العشرون[٣٨].

ووجود سكان فى ذلك التوقيت فى نهاية الأسرة العشرين ونهايات الدولة المصرية الحديثة فى النوبة السفلى وقيام إدارة مصرية تدير تلك المنطقة وتجمع الضرائب وترسل بها إلى مصر قد يبدو من النظر للوهلة الأولى أن الأمور مستقرة وأن الأمور تسير سيرها العادى، وقد يكون ذلك واقع فى تلك المناطق، لكنه لا يعنى استقرار الأمور فى مصر ذاتها، حيث كان ظاهراً للعيان ضعف سلطان الملك وزعزعة أركان ملكه وفقدانه لكثير من هيبته وسطوته حتى بلغ الأمر إلى عدم احترام الملك ذاته، وبدأت تلك الأحوال تتأكد ابتداء من عهد الملك رمسيس الرابع وما بعدها. وقد دب الوهن فى أوصال الحكم فى تلك المرحلة نظراً لنفس

الفساد الإدارى بين طبقات الموظفين، وانتشرت جرائم السرقة فى البلاد حتى وصلت إلى سرقات المدافن الملكية [٣٩] وقد يعزى ذلك إلى تدهور الاقتصاد المصرى حيث فقدت الدولة كثير من الموارد الهامة منها عدم وصول الجزية والضرائب من الإقليم السورى، وضياع ممتلكات المملكة فيه، كذلك نضوب مناجم الذهب وقلة إنتاجه فى المناجم السودانية والنوبية، وتردى الحياة المعيشية وانخفاض مستواها، وقلة السلع الغذائية وارتفاع أسعارها، ويرى تيلور أن تصوب مناجم الذهب وقلة الموارد وضعف الدولة المصرية كل ذلك ربما عجل برحيل وجلاء المصريين من السودان[٤٠].

بلغت تلك الحالة المتردية ذروتها فى عهد الملك رمسيس ١١، والذى تآمر عليه أمراؤه وموظفيه حتى انه فى العام السابع عشر من حكمه أرسل إلى "بانحس" حاكم كوش مستنجداً به ليساعده فى فرض الانضباط وإعادة السيطرة على الأمور والقضاء على أعداء الملك المتآمرين، استجاب بانحس لنداء الملك ومساعدته فى ذلك وأعاد الأمور إلى نصابها — ويرى تيلور أن بنحاس بعد أن رأى تلك الأوضاع طمع فى حكم مصر إلا أن القوات الملكية قد قصدت له وجابهته فانهزم منها، وعاد هارباً إلى النوبة [٤١] بينما يرى فريق أخر من العلماء أن بانحس لم ينهزم من القوات الملكية بل هزمه أعداء الملك الذين جاءوا ليخمد عصيانهم [٤٢] ويقول هيكوك [٤٣] أنه أيا ما كان الرأى قد عاد إلى النوبة وبالتحديد إلى عنيبه وقضى بقية حياته إلى أن توفى ودفن بها.

أدى ضعف الملك وعدم قدرته على فرض سيطرته وسطاته على ربوع البلاد، إلى تشجيع الكثيرين للخروج عن طاعته بل وطمع كثيرون فى الحكم ذاته فملوك تلك الفترة كانوا يقيمون فى الشمال (ممفيس ، وبر رمسيس) عاصمتى الشمال، وكان الكاهن الأعظم للآله آمون فى طيبه "حريحور" رجلاً ذا طموح وجرأة إذ انه أعلن استقلال مصر العليا عن مصر السفلى فى العام التاسع عشر من حكم الملك رمسيس ١١ (ونصب نفسه حاكماً على مصر العليا بأقاليمه، وكان

ذلك إعلان ببدء عهد جديد فى الإقليم الجنوبى من مصر وأطلق على هذه الفترة (عهد النهضة) وقد اتخذت بدايته كتاريخ للأحداث فى ذلك العهد احتفظ حريحور بلقبه الديني ككاهن أعظم للآله آمون، لكنه اتخذ ألقاب أضافها إليه مثل (قائد الجيش) و(حاكم كوش) و(وزير مصر العليا)، وفى الإقليم الشمالى تشجع الوزير سمندس فاتخذ له مقراً فى مدينة تانيس ففرض نفوذه وسيطرته على تانيس وما حولها واتخذها عاصمة له بل واستطاع الاستيلاء على الحكم بعد وفاة الملك رمسيس ١١، وانتقل الحكم من آخر ملوك الأسرة العشرين الضعيف (بعد وفاته إلى أول ملوك الأسرة الحادية والعشرون. وبنهاية الأسرة العشرون ووفاة آخر ملوكها طويت صفحة من صفحات تاريخ مصر الفرعونية (الدولة المصرية الحديثة).

وكان عام (١٠٦٩ أو ١٠٨٥ ق.م) بداية فترة جديدة وعهد جديد فى مصر ففى الشمال استطاع سمندس وزير مصر السفلى (قبل وفاة الملك رمسيس ١١) أن يستغل صلته بالزواج من أسرة ملكية قديمة هيأت له وعاونته على الوصول إلى الحكم، واستمرت الأسرة الحادية والعشرون فى الحكم حتى عام ٩٤٥ ق.م.

وفى الجنوب توفى حريحور المستقل بمصر العليا قبل وفاة الملك رمسيس ١١ فخلفه ابنه "بعانخى" حاكماً للصعيد حاملاً ألقاب والده واستمرت تلك الأسرة الدينية فى حكم طيبه والصعيد محتفظة بالمزايا التى يتمتع بها كبير كهنة آمون إلى جانب حكم مصر العليا إلا أنه لم يكن من ألقاب حكام هذه الأسرة (ملك مصر) باستثناء "منوجم الأول" الذى خلف والده "بعانخى" حتى من حكم بعده لم يتخذ لنفسه هذا اللقب (٤٤).

ويرجع الفضل إلى هذه الأسرة فى إنقاذ الكثير من مومياوات ورفات ملوك الدولة المصرية الحديثة من السرقة، فقد قاموا بنقلها من مقابرها الأصلية إلى مخابئ سرية أعدت خصيصاً لذلك فى الدير البحرى بوادى الملوك فقد قاموا بذلك بوازع كهنوتى دينى، إلا أن هذا كان عملاً جليلاً أدى إلى حفظ هذه الآثار مما أضاف كثير من الوضوح على تاريخ تلك الحقبة.

أما الأسرة ٢٢ فقد تأسست على يد "شيشونق الأول" (٩٤٥ – ٩٢٤ ق.م) وهو واحد من بعض زعماء ليبيون كانوا يسيطرون على مقاليد الحكم الإدارة فى مصر الشمالية وكان مركز هذه الأسرة هو (تل بسطا) أو (بوباسطة) شمال مصر. وتميز عهد الملك الليى شيشونق الأول بالقوة، إذ استطاع السيطرة على لقب ومنصب "كاهن آمون الأول" ومنحه لابنه ومن ثم لأبناء وأحفاد أسرته. كما قام بحملة قادها بنفسه إلى (تا نحس) أى النوبة ضد بعض الأمراء (٤٥) وكان من آثار تلك الحملة استئناف الحركة التجارية مع بلاد النوبة، واستمرت الأمور على حالها إلا أنها بدأت فى التدهور، وأصاب الانحلال تلك الأسرة فى مصر الشمالية، وكالمعتاد كثر الصراع وطمع الطامعون وانفرط عقد الأمن وتفرق أمراؤها فازدادت تلك الأسرة ضعفاً، وخلال هذه الاضطرابات ظهرت أسرة جديدة ففى عام ٨١٨ ق.م قامت الأسرة الثالثة والعشرون وهى أسرة ليبية أيضاً...

إذن الأحوال المصرية خلال فترة ما بعد الدولة المصرية الحديثة كانت غير مستقرة، ولم تكن للدولة القدرة على فرض نفوذها وسيطرتها على البلاد بل انقسمت إلى دولتين ولم تعد هناك حكومة أو سلطة مركزية قوية بل صارت مقسمة إلى وحدات متفرقة متباينة بتصارعها بعضها مع البعض الأخر.

الأحوال فى السودان:

سبق الإشارة إلى أن الفترة التالية لخروج المصريين من السودان نهاية الأسرة العشرين كانت فترة قليلة المصادر الآثارية المكتوبة أو المنقوشة أو الأثرية، ويعتقد أن تلك الفترة امتدت من (١٠٦٩ أو ١٠٨٥ – ٣٠٠ ق.م) أى استمرت من بعد الأسرة العشرين وبداية الأسرة الحادية والعشرين فى مصر وحتى بداية عهد البطالمة ذلك بالنسبة للنوبة السفلى، أما بالنسبة للنوبة العليا فيعتقد أنها امتدت حتى عام ٨٥٠ ق.م فقط حتى أن كثير بل غالبة علماء الآثار والمصريات أطلقوا عليها اسم "فترة الخلو الأثارى الثالث".

لقلة هذه المصادر، والغموض الذى اكتنف أحوال وأخبار هـذه الفتـرة، (وفى أثناء انعقاد المؤتمر السابع للدراسات المروية فى برلين بألمانيا عام ١٩٩٢) أقام علماء وباحثى الدراسات المروية السودانية ورشة عمل خاصة وشكلوا لجان فيـه لإعادة دراسة المصادر المتوفرة لديها عن تلك الفترة سـواء المكتوبـة أو الآثاريـة والبحث فيما ورد بها والتدقيق فيه لمعرفة الأسباب التى أدت إلى ذلك الأمر.

وأول اهتمام هؤلاء العلماء اتجه نحو حفريات رايزنر فى (الكـرو) عـام ١٩١٩ وأسند أمر مراجعة التقارير والمذكرات اليومية (الشخصية) عن حفرياتـه وعن عمليات التنقيب التى قام بها وكل ما يتعلق بما تركـه رايزيـز إلى الأسـتاذ الدكتور (تيموثى كاندال) وكل هذه المتعلقات محفوظة فى متحف بوسطن وهـو أيضاً يعمل فى هذا المتحف، كذلك اهتمت ورشة العمل بالحفريات التى قامت بها بعض البعثات فى الستينات بالنوبة السفلى جنوب بحيرة ناصر على أمل الوصول إلى مفاتيح جديدة، والعثور على دلائل قد تكون أغفلت من قبل لفك طلاسـم هـذا الغموض، ولكشف ما يكون قد التبس على السابقين، ما وجهت الورشة نداءاً إلى كل الذين اهتموا بالدراسات المروية وساهموا فى البحث والدراسة أن يدلوا بدلوهم ويشاركوا بآرائهم وما توصلوا إليه من نتائج مهما صغرت حول ذلك الموضـوع، بل وطلبت منهم القيام بمزيد من البحث والدراسة للخروج بآراء جديـدة أثنـاء النقاش المتوقع قد تثرى الموضوع وتكشف عن الجوانب المجهولة فيه، إذ لم يكن من السهل البحث فى معرفة أصل (مملكة نبته) دون الاستعانة بمصادر هذه الفترة، وقد أتت هذه العملية بنتائج طيبه، وأضافت الكـثير مـن المعلومـات والآراء إلا أن الموضوع لم يحظ بما يزيح عنه ما التبسه من غموض أو يكشف عن أشياء مازالـت تحتاج إلى معرفة وإلى تفسير لها.

فلم يزل خافياً على المتخصصين معرفة الكثير عن الأحوال التى سادت فى هذه الفترة، فكيف صارت الأمور بعد خروج المصريين. هل تركوا السودان لأهلها يدبروا أمرهم ويدبروا شئوهم بأنفسهم أم قـاموا بتـسليمهم الإدارة أو أوكلـوا

سلطاتهم إلى بعض العناصر السودانية المواليد والتابعة لهم ليتولوا شئون البلاد بنفسهم، وماذا ترتب على ذلك الخروج من آثار فى طبيعة النظم التى قامت ونشأت فى البلاد، والمراكز والمدن والقرى الرئيسية التى سارت فيها الحياة وجرت فيها أنشطة الأهالى، والجبانات والمدافن ومواقعها وسير الأحوال الدينية والاجتماعية وما هى الحالة الاقتصادية للبلاد وثرواتها.. ومدى التطور الذى حدث ومسار هذا التطور .. إلخ.

ولم تكتمل الحلقات بالرغم من الإغراق فى البحث والتقصى لمعرفة كيفية ظهور إمارة الكرو والتى تم الكشف عن قبورهم، وكيف نشأت (دولة نبتة من خلال التطورات التى حدثت على إمارة (الكرو).

ولم يبق إلا أن يضع العلماء تصوراتهم باستقرار ما توفر لديهم من آثار أو كتابات أو حفريات (على قلتها) معتمدين على الحقائق التى توصلوا إليها من المصادر النادرة المتوفرة لديهم على أن يكون فى إطار منهجى يلتزم الدقة البحثية والأسلوب المبنى على القواعد العلمية.

ويمكن العثور من خلال الأوضاع فى السودان خلال هذه الفترة انطلاقا من النتائج التى توصلت إليه ورشة العمل سابق الإشارة إليها وضع أو وصف تفسير لوقائع الأحداث كما يلى:

أن المصريين منذ زمن الأسرة التاسعة عشر سمحوا لبعض العناصر السودانية أن تشاركهم فى حكم السودان بتكليف بعضهم بإدارة شئون بعض المراكز الصغيرة مثل دبيرة وتوشكى، كما أن بعض العسكريين السودانيين قد نجحوا فى الوصول إلى منصب (ابن الملك فى كوش) زمن الأسرة العشرين وهو منصب يعادل (فى مفهومه) "حاكم عام السودان" كما فعل (بانحس)، كل ذلك يدل على وجود عناصر سوداينة مدربة ولديها الخبرة على تولى أمور الحكم والإدارة، ويمكن لهذه العناصر أن تحل محل المصريين إلا أنهم لم يتمكنوا فى بداية الأمر من توحيد السودان تحت حكم مركزى قوى، وربما استمر الحكام المحليون فى إدارة شئون وحداتهم الصغيرة المتفرقة كل على حدة ولفترة طويلة.

وبالنسبة للجزء الذى لم تصل إليه الإدارة المصرية (جنوب الشلال الرابع) فقد يكون مقسماً إلى إمارات أو مراكز متفرقة على نفس الشاكلة وربما قامت أهمها حول المناطق الآهلة والمتميزة بإتساع الرقعة الزراعية مثل منطقة شندى.

وخلص فى تصوره إلى أن أوضاع السودان يمكن أن يشبهها بأوضاعه فى نهايات العصور الوسطى أى فى أواخر دولة الفرنج وقبل الفتح التركى المصرى للسودان.

وقد تكون الإمارات المتاخمة للحدود المصرية (فى النوبة السفلى) أقل ازدهاراً واستقراراً من تلك التى فى النوبة العليا أو فى شندى، وذلك لتعرضها للحملات التى شنها المصريون (مثل حملة شيشونق) ولكن ربما قامت فى النوبة السفلى إمارة هامة فى (دبيرة) حيث تم مؤخراً اكتشاف مدافن تشبه إلى حد كبير مدافن الإسلاف فى (الكرو) والتى اكتشفتها البعثة الإسكندنافية فى الستينيات من القرن العشرين (٤٦) وإمارة أخرى فى (قصر ابريم) حيث تم اكتشاف أسوار وحوائط سميكه تم أنشاؤها حوالى سنة ٩٢٠ – ٨٠٠ ق.م (٤٧).

نشأة وقيام مملكة نبته:

باكتشاف مقابر الكرو تم العثور على جثمان رجل مدفون فى الكومة رقم ١ فى جبانة الكرو، والمعتقد أنه الزعيم الذى أنشأ تلك الجبانة، ويعتقد أيضاً أنه كان واحداً من الأمراء الذين انتشرت أماراتهم على امتداد الشريط النيلى بين الشلالين الثالث والخامس، وأن هذا الزعيم كان يمتلك من القدرات ما يؤهله من تولى أمور القيادة وإدارة شئون الإمارة، وأنه كان يسيطر على رقعة جغرافية واسعة وممتدة، وكانت تتوفر له إمكانات اقتصادية هائلة ولديه موارد متنوعة، وأنه قد يكون حقق النجاح فى الوصول إلى ذلك عن طريق القوة العسكرية المحضة أو بالتحالف مع القبائل الأخرى أو التصاهر معها (٤٨).

لقد وضع إذن هذا الزعيم أول القواعد الضرورية واللازمة لتكوين الدولة وهو السيطرة على رقعة جغرافية كبيرة متسعة مترامية الأطراف وفرض عليها

نفوذه، وامن حدودها، وبما توفر له من مقومات الزعامة وقدرات القيادة وخبرات الإدارة السياسية والنظامية، مما نتج عنه فى النهاية وضع أساس لنشأة الدولة النبتية، وتكون بذلك مرحلة التأسيس قد تمت بمعرفة السودانيين وبأيدى سودانية خالصة.

أما عن المراحل التى تلت التأسيس، وهى مراحل تثبيت أركـــان الدولــة بوضع أسس النظام الإدارى والدينى والاقتصادى، فمن المتوقع أن (النبتـــيين) قــد استفادوا أو استعانوا بالخبرات المصرية فى هذه الشئون والتى كانت متوفرة لــدى عناصر مصرية من المعتقد أنها كانت مازالت موجودة بالسودان.

وتواجدت هذه العناصر (المصرية) بالسودان بعد فرار كثير من العــائلات المصرية فى طيبة وهجرتهم من مصر ولجوئهم إلى السودان فراراً من بطش الحكومة المصرية. إذ قام الملك تاكلوت الثانى (٨٥٠ – ٨٢٥ ق.م) أحد ملوك الأسرة ٢٢ الليبية بتنصيب ابنه (أوسوركون) فى منصب الكاهن الأعظم لأمون فى طيبة الأمــر الذى لم يتقبله أهل طيبة حيث ثارت ثارتهم، فعبروا بذلك عن سخطهم ورفــضهم لذلك التعيين، فقامت الحكومة المصرية بفرض هذا الابن ككاهن أعظــم بــالقوة والبطش فتعرض الكثير من رجال الدين والكهنة للتعذيب والضغوط وصــلت إلى حد الطرد، حيث لم تهدأ الأحوال فى طيبه إلا بعد عــشرة ســنوات مــن بدايــة الثورة[٤٩]، ومن الواضح أن كثير من العائلات الطيبية رحلت إلى السودان لالتماس الحماية لدى الملك (بيا بعانخى ٧٥١ – ٧١٦) النبتى المعاصــر للملــك المــصرى تاكلوت الثانى.

ويرى آركل أن النبتيين الأوائل اعتمدوا فى بعض جوانب نهضتهم علــى عناصر مصرية حددها بكهنة آمون لكنه اعتقد أن هؤلاء المصريين كانوا مقــيمين فى السودان منذ أيام الدولة المصرية الحديثة [٥٠] إلا أن الآثار لم تكشف عن وجود استيطان سكانى فى منطقة نبته خلال القرنين التاليين لخروج المصريين من السودان.

وعامة فإن المصريين سواء كانوا من المهاجرين أو من المقيمين وهم رجال الدين والكهنة الذين اتخذوا من عبادة الإله آمون ديانة لهم بدأوا فى تقــديم العــون

والمساعدة للملك النبتي، فتبنى الملك المفاهيم التى تبنوها والعادات التى جاءوا بهـا وظهر تأثيرهم على النبتيين على وجه العموم تأثيراً دينياً وثقافياً واجتماعياً، وازداد هذا التأثير حتى أن ملوك نبته الأوائل تقبلوا بل وتبنوا الطراز المعمارى المصرى. فى بناء المقابر والمدافن، ونقلوا عن المصريين بعض عادات وطقوس الدفن المصرية، ومع طول المدة سادت علاقات حميمة وروابط قوية بين ملوك نبتة وبين المصريين مـن رجال الدين والكهنة حتى استطاع المصريون أن ينشروا ديانة آمون فى نبتة بتـبنى الملك عبادة آمون، وأصبح دين الدولة الرسمى. ويرى (٥١) أن دولة نبتة قد إكسبت بذلك عنصراً هاماً وأساسياً من عناصـر تكـوين الدولـة ألا وهـو (المكـون الايدولوجي) بتبنى دين رسمى للدولة.

وكان اقتناع ملوك نبته بتبنى عبادة الآلة آمون نابعاً من اعتقادهم أن آمون هو كآله واهب الملك ويعطى الشرعية اللازمة لهم لتولى الحكم المطلـق لـيس فى السودان فحسب بل فى مصر وفى كل أنحاء الأرض، واستمر ذلك التأثير المـصرى القوى على ملوك نبته وعلى خلفائهم من بعدهم حتى بلغ ذروته فى عصر الملـك (بيا بعانخى) واختمرت فى ذهنه، ودأب يستعد ويجهز لها حتى تمكن من تحقيق ذلك الهدف وتمكن من تنفيذه فى السنتين العشرين والحادية والعشرين من حكمه.

حفريات واكتشافات مقبرة الكرو:

اختار مؤسسى مملكة نبته الكرو موقعاً لبناء مدافن الأسـرة الحاكمـة .. والكرو قرية صغيرة تقع على ضفة النيل الغربية جنوب جبل البركل بحوالى ثمانيـة كيلو مترات.

ويحتوى مدافن الكرو على ثلاث جبانات، الجبانة الوسطى وهى الجبانـة الأولى والأقدام وتعتبر هى الجبانة الرئيسية بين تلك المدافن، ويقع علـى جانبيهـا جيانتان ثانويتان خصصا لدفن النساء.

وبتمويل مشترك من جامعة هارفارد ومتحف بوسطن بالولايات المتحـدة الأمريكية قاد جروج أندرو رايزنر بعثة أثرية استكشافية (أمريكية) للقيـام بعمـل حفريات فى جبانات الكرو الثلاث.

واستمر عمل البعثة على مدار موسم واحد امتد من (شهر فبراير حتى شهر مايو ١٩١٩) وكشفت الحفريات عن أن الجبانة الوسطى هى أهم الجبانات الثلاث وهى أقدمها وتحوى عشرين قبراً، يرجع تاريخ ستة عشر قبراً منها لأكثر من مائة عام قبل حكم الملك بيا (٧٥١ — ٧١٦ ق.م) تقريباً، وتعارف على إطلاق اسم (مقبرة الأسلاف) عليها، والأربعة قبور الأخرى تم التعرف على أصحابها وحسب الترتيب الزمنى تخص هذه القبور كل من:

الملك بيا، الملك شبكو (٧١٦ — ٧٠٢ ق.م) — الملك شبيتكو (٧٠٢ — ٦٩٠ ق.م) الملك تانوتمنى (٦٦٤ — ٦٥٦).

والجدير بالذكر ان الملوك شبكو، شبتكو، تانو تمنى بالإضافة إلى الملك طهرقا (٦٩٠ — ٦٥٦ ق.م) وهم أربعة ملوك تولوا حكم مصر والسودان فى عهودهم لذلك فإن المصريين قد أنزلوهم منازلهم ووضعوهم فى مكانهم الطبيعى وقدروا قدرهم وكانوا ضمن قائمة ملوك مصر، حتى أن الأسرة الخامسة والعشرين المصرية كانت الأسرة التى يشكلها هؤلاء الملوك فى تاريخ مصر.

قسم رايزنر القبور الستة عشر إلى ستة مجموعات طبقاً لتصنيف كان قد اختاره كل مجموعة تشكل جيلاً، وأعطى كل مجموعة حرفاً أبجدياً حسب الترتيب الأبجدي (A.B.C.D.E.F) ووضع القبور المتشابهة فى مجموعة مستقلة واحدة.

تلاحظ لرايزنر أن هناك مجموعات تتكون من قبرين أو ثلاثة قبور تشترك كل منها فى خصائص وسمات معينة أو فى بعض منها.

فعلى سبيل المثال فى أسلوب البناء، وجد أن أسلوب بناء أسفل القبر (اللحد وتوابعه) يحدث فيه تغيير من آن لآخر الأمر الذى ساعده على التصنيف فى مجموعات طبقاً لهذا العامل وتبعاً لما يحدث فى أسلوب البناء من تطورات. وكان ذلك هو العامل الأساسى الذى اتخذه رايزنر فى التصنيف وذلك لعدة أسباب منها أن أسفل القبر (أو اللحد) أو الجزء الوحيد والأثر الباقى محتفظاً بشكله وصفاته الأصلية أما المحتويات أو الجزء العلوى فلا يعول عليهما فى التصنيف لاحتمال

حدوث التغيير أو التلف أو النقص أو السرقة أو الاندثار بالنسبة للمحتويات. وكذلك بالنسبة للجزء الفوقى سواء أكان تبة أو مصطبة أو هرم فقد تهدم تماماً او جزئياً قديماً أو حديثاً بفعل عوامل التعرية أو غمر المياه أو بفعل اللصوص و حتى الأهالى، وبالنسبة للمحتويات فقد نهب اللصوص منها كل ما هو له قيمة وما تبقى إما تهشم أو تبعثر أو نقل من مكانه الأصلى.

كذلك اعتماد رايزنر على موقع القبور من الجبانة كان أقل أهمية إذ من البديهى أن القبور الأولى هى الأقدم زمنياً حيث تختار لها أفضل الأماكن فى الهضبة وغالباً ما تكون الأكثر ارتفاعاً. ولتأكيد هذا العامل قام رايزنر بترميم القبور الأكثر علوا قبل بداية التنقيب وكان أعلاها رقم ١، وبعد الحفر وعمل المقارنات على الطرز المعمارية المستعملة فى بناء المقابر تأكد من أن القبر رقم ١ أعلى القبور هو أقدمها.

فالمجموعات الستة طبقاً لتصنيف رايزنر كل مجموعة منها تمثل جيلاً من الأجيال وبالتالى فإن كل جيل منها يمثله حاكم وتمثل المجموعات الستة ستة عهود لحكام ستة، وفى كل جيل دفن الحاكم وبجواره دفن فردين أو فرد من أفراد أسرته سواء كانت الزوجة أو الأم أو الابن، وتأكد رايزنر من عدد الحكام وطابقه بعدد الدفنات.

ثم انتقل بعد ذلك إلى خطوة الترتيب حسب التواتر الزمنى، غير أن هذه القبور لم يكن من بين مكوناتها و لم يتم العثور فيها على أى كتابات أو نقوش تساعد فى التعريف على أشخاص المدفونين و أسمائهم، أو أى شخصيات معروفة من معاصريهم فى مصر أو فى أية مناطق من السودان. وعلى ذلك فإن الستة مجموعات أو الستة أجيال لم يصل رايزنر إلى تاريخ لها و لم يصل إلى تحديد أى صفات أو معلومات عن الأشخاص المدفونين .

لذلك فإن الأربعة قبور الأخرى بعد كشفها ودراسة وفحص محتوياتها وجد أن القبر رقم ١٧ يحوى نقوش تأكد رايزنر بواسطتها من معرفة اسم صاحب

القبر وتحديده وهو الملك (بيا)، والملك بيا بخلاف قبره له مخلفات أثرية منها لـــوح النصر (اكتشف عام ١٨٨٦ م) لذا فإن رايزنر وضع له فترة حكم تقريبية، حددها بالمدة (٧٤٤ — ٧١٠ ق.م).. ولما كان القبر رقم ١٧ هو أقدم القبور الأربعة بعد الستة عشر المقسمة إلى ستة مجموعات لستة أجيال هى الأقدم، والقبر رقم ١٧ هو أول القبور التالية لأخر المجموعات الستة لذلك فإنه يمكن القول بأن الملك الـــذى حكم الجيل السادس (كاستا) هو الملك السابق للملك (بيا).

وحتى يصل على تاريخ تأسيس مقبرة الكرو طبقاً لنظرية رايزنـــر اقتـــرح وضع متوسط لمدة حكم الحكام الستة السابقين للملك (بيا) وأضاف الناتج إلى عام ٧٤٤ وأن كان لم يقطع بالعمر المقترح للجيل الواحد ٢٠ أم ٣٠ سنه.

فإذا كان متوسط عمر الجيل ٢٠ سنة فإن بداية تأسيس مقـــبرة الكـــرو يكون ٨٦٠ ق.م.

وان كان المتوسط هو ٣٠ سنة فإن بداية تأسيس مقبرة الكرو يكون ٩٢٠ ق.م ويمكن الرجوع إلى الجدول التالى:

رقم المجموعة	التاريخ	Tomb (المقابر)
A	٨٦٠- ٨٤٠ ق.م	Ku. Tum. I. 4.5
B	٨٤٠ — ٨٢٠ ق.م	Ku. Tum.6. Ku. 19
C	٨٢٠ — ٨٠٠ ق.م	Ku. 13.14
D	٨٠٠ — ٧٨٠ ق.م	Ku. Tum. 2 Ku. 9,10,II
E	٧٨٠ — ٧٦٠ ق.م	Ku. 21,23
F	٧٦٠ — ٧٥٩ ق.م	Ku. 8 (Kashta)

فاستمرت نظرية رايزنر منذ وضعها (لتأريخ مقبرة الكرو).. إلا أن الأستاذ أحمد على حاكم تعرض لها بالنقد عام ١٩٧٣، عندما وصـــف طريقـــة رايزنـــر للوصول إلى هذه التواريخ (٥٣) وصفها بأنها طريقة غير سليمة.

واقترح حاكم[٥٤] اقتراحاً مخالفاً لمقترحات رايزنراز إذ يرى بأن الستة عشرة قبراً هى لستة عشر حاكماً (أنها تمثل ستة عشر جيلاً.. وبنى على هذا الأساس أساس وجود ستة عشر حاكماً أو ستة عشر عهداً وأن كل جيل يحسب بعشرين عاماً فإن العملية الحسابية هى (١٦X ٢٠ =٣٢٠+٧٥١ = ١٠٧٠ ق.م) وهذا الرقم الأخير يمثل بداية عهد الملك بيا.

ولكن هل يرى حاكم أن العهد النبتى أنما هو استمرار لفترة الوجود المصرى فى السودان، بمعنى أن العهد النبتى هو امتداد حكم الدولة المصرية الحديثة فى السودان).

فحاكم هنا وبرأيه هذا يرفض بل ويسقط نظرية الخلو الإثارى التى تبناها الأثاريون وكثير بل وغالبية العلماء... ويحاول حاكم جاهداً لأبطال هذه النظرية.

إلا أن كندال [٥٥] أشار إلى أن معظم الدفنات فى معظم الستة عشر قبراً فى مقبرة الكرو، قد أكدت الدراسات الانثروبولوجية التى أجريت على العظام البشرية فى تلك المقبرة مؤخراً أن منها دفنات لنساء ولشبان صغار أو أطفال وإلى أن يظهر جديد فمن المرجح الأخذ بنظرية (الخلو الأثارى) وكذلك الأخذ بنظرية رايزنر فى التأريخ لمقبرة الكرو ولكن بتحفظ.

القبو وعادات الدفن :

لا نغفل أن قبور الإسلاف بالكرو وقد اعتراها كثير من التخريب فى الماضى، ولم يبق منها سوى الأساس ودور أو دورين من بنايات الطوب، وكان كاندال قد ذهب إلى القول بأن تلك الأساسات أنما هى بقايا أساسات الأهرامات[٥٦]، كذلك كما أشار إلى أن التلة رقم ٢ تابعة للجيل الثانى وليس الرابع.

لكن الطراز المعمارى لقبور الكرو كان دائماً ما يتغير ويتطور، ولم يتوقف استمرار التعبير والتطور على طريقة البناء إنما امتد إلى بعض العادات المتبعة فى الدفن وأن لم يعتريها التغير فى جملتها بل ظل بعض تلك العادات ثابتاً ولم يتغير.

وإذا نظرنا إلى نتيجة ما وصلت إليه الحفائر وطبقاً لتقسيم رايزنر للقبور إلى مجموعات فإنه من الملاحظ على الجيل الأول (A) أن القبور تتميز بالبساطة، فالقبر يمثل حفرة بسيطة يجهز فى جانبها من ناحية الغرب اللحد الذى توضع فيه الجثة، وبعد وضعها تستكمل عملية الدفن باهالة التراب على الحفرة حتى تصبح تلة صغيرة دائرية الشكل يتم تغطيتها بطبقة من الحجارة، واتجاه القبر أو (اللحد) شمال/جنوب طبقاً للعادات السودانية المعروفة عند أهل كرمة وعند حضارة أهل المجموعة ج. وفى مرحلة تالية تم استخدام بلاطات حجرية كبيرة لسقف القبر.

- وفى الجيل الثانى (B) تلاحظ على القبران رقمى ٦ & ١٩ أن طريقة بنائهما مماثلة للطريقة المتبعة فى الجيل الأول، واستحدث فى قبور هذا الجيل بناء حوش فى شكل حدوة الحصان يحيط بالكومة، كذلك بالنسبة لكومة القبور رقم ٦ ثم إضافة غرفة صغيرة مربعة الشكل من الجهة الشرقية، أطلق عليها اطلاحاً المعبد الجنائزى.
- وفى الجيل الثالث (C) اختلف البناء الفوقى فبدلاً من شكل التلة تم استبداله ببناء مربع الشكل (مصطبة)، ويعتقد أن هذا التغيير حدث بالتدريج حيث فى البداية ان الكومة تم الاحتفاظ بها داخل المصطبة، ومن ثم تم التخلص من الكومة بصفة نهائية، وكذلك بالنسبة للحوش فقد أخذ الشكل المستطيل أو المربع، واستمر ذلك فى الأجيال التالية، كذلك ترسخت فكرة المعبد الجنائزى الذى أضيف بناؤه فى الجيل الثانى، وظل مستعملاً حتى نهاية مملكة مروى مع استمرار اتجاه القبر شمال/جنوب حتى نهاية الجيل الخامس (E)، وفى الجيل السادس (F) تغير اتجاه القبر ليصبح غرب / شرق كما هو متبع فى عادات الدفن المصرية، واستمر إتباع هذه العادة فى الحقب التالية، ولا خلاف نتيجة هذه الخصائص على أن قبور الأسلاف شهدت فى بنائها تطوراً سريعاً وكبيراً بينما أن التغير عادة ما يحدث ببطء وبالتدريج، وان القبور الأقدم بدأ البناء فيها متسماً بالبساطة ولم تكن تحوى شيء يكاد يذكر من الموجودات المصرية، فهى بالتأكيد تخص السكان المحليين ذوى الهوية السودانية.

أما بالنسبة لعادات الدفن فى مقابر الأسلاف فهى ذات صبغة سودانية أصيلة فدائماً ما يتم لف الجثة فى كفن من القماش دون القيام بأى أعمال لتحنيط الجثة، ومن ثم توضع الجثة بطريقة الرقدة القرفصائية على السرير السودانى (العنقريب) مما يؤكد أن أصحاب قبور الأسلاف فى جبانة الكرو من الأصل السودانى(٥٧).

وأما بالنسبة للعادات المستحدثة أو المضافة فهى عادات دفن مصرية مثل اتجاه القبر شرق/غرب، وجود المعبد الجنائزى، أو استعمال الشكل الهرمى وإقامة الوليمة الجنائزية والتى يتم على أثر انتهائها تكسير وتهشيم الأوانى الفخارية على سطح التلة العلوى، وقد بدأ أهل الكرو فى انتهاج بعض من هذه العادات بالانتقاء وبالتدريج بدءاً من الجيل الثانى (B) واستمر الأخذ بتلك العادات حتى سادت فى عهد الملك بيا (٧٥١ – ٧١٦ ق.م) وورثته من بعده. ومن الجدير بالذكر أن هذه العادات (المصرية) كانت معلومة ومعروفة لدى السودانيين القدامى حيث أنها استعملت فى العديد من الجبانات والقبور المحلية منذ عهد الدولة الوسطى المصرية خاصة لدى حضارة الكرميين، وحضارة أهل المجموعة ج وقد انتشرت بشكل واسع فى النوبة السفلى بعد التوسع المصرى فى عهد الدولة المصرية الحديثة (٥٨)، ولربما أن النبتيين عندما أخذوا بتلك العادات ظنوا أنها سودانية لانتشارها بصورة كبيرة فى جبانات شمال السودان فى النوبة السفلى.

نتائج مراجعة الأستاذ كتدال للمادة الآثارية الخاصة بجبانة الكرو والمحفوظة فى متحف بوسطن :

نتيجة للتكليف الذى كلفته لجنة المؤتمر السابع للدراسات المروية به الأستاذ تيموثى كندال، وعلى ما قام به من مراجعات ذكرها فى البحث الذى أعده عن تلك المخلفات وآراؤه التى أضافها إلى ما استخلصه نورد فيما يلى نبذه عن تلك الإضافات.

- أخضع عينات من المواد العضوية المحفوظة للفحص لدى معامل متخصصة فى أمريكا وذلك لتحديد تاريخ بناء الجبانة، وجاءت النتائج بتأريخ فى منتصف

القرن التاسع ق.م وذلك يؤيد التأريخ الذى اقترحه رايزنر[٥٩] أن صدق النتيجة المعملية واتفاقها مع تأريخ رايزنر يدعم رأيه (أى رايزنر) الذى حدد فيه عدد الملوك المدفونين فى جبانة الكرو وعن وجود دفنات ثانوية بالجبانة.

- قام بالكشف عن علاقة أثارية ما تربط بين جبانة الإسلاف فى الكرو وبين جبانة أخرى فى دبيره شرق (موقع رقم ١٧٦) بالنوبة السفلى، وقد قامت بالعمل فى هذا الموقع البعثة الإسكندنافية[٦٠] وطبيعة هذه العلاقة تتمثل فى وجود نوع من الجرار لم يعثر على مثيل له فى أى موقع أخر فى كلا الجبانتين.
- كشف من خلال مراجعته لكتابات رايزنر الأصلية أن الأوصاف التى وردت بها عن الكرو تبين بوضوح تام أن الكرو كانت مدينة ذات أسوار وتحصينات [٦١].

الآراء الشخصية التى كونها كاندال نتيجة بحثه:-

* أن الأبنية الفوقية للقبور الأقدم (الجيل الأول A) لم تكن مجرد كومات بل كانت تأخذ أشكال أسطوانية متماثلة مع أبنية حضارة أهل المجموعة ج [٦٢].
* أن وصف رايزنر لأبنية بأنها مصاطب، ليست كذلك أنما هى أساسات لأهرامات [٦٣].
* أن تأثير المصريين على زعماء الكرو كان مباشراً منذ الجيل الثانى (B) وأن حجم التمصير كان أكبر بكثير مما صورة رايزنر أو غيره [٦٤].
* اقترح كندال بإجراء تعديل على مجموعات رايزنر الستة بتحريك قبر أو قبرين من مجموعة ما إلى مجموعة أخرى مختلفة.

أصل النبتيين:

أصل كلمة نبته - نبتيين

الاسم نبته، اسم قديم يرجع أقدم ذكر له إلى عهد الدولة المصرية الوسطى حيث ظهر مكتوباً باللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) فى نقش يعرف الآن (بنقش أو بمسلة نورى) وهى منطقة تقع بالقرب من الشلال الثالث [٦٥].

هذا النقش يوضح مصادر الذهب والمناجم التي جلب منها إلى معبد وجاء اسم نبته ضمن المناطق التي ذكرت في هذا النقش.

جاءت أهمية نبته في زمن الدولة الحديثة لكونها أصبحت المركز الرئيسي لعبادة الآلة آمون في السودان، فقد ظهر الاسم نبته في نقش للملك امنحتب الثاني. ومن هذا النقش تبين أن مدينة نبته تقع عند سفح جبل البركل، وربما استعمل هذا الاسم للإشارة لكل المنطقة حول الشلال الرابع مثل الكرو، صنم، أبودوم، نوري، تنقاش، والزومة... إلخ).

في عهد الدولة المصرية الوسطى ازداد ازدهار نبته وانتعاشها وحتى خروج المصريين من السودان، وبعد انقضاء النفوذ المصري أصبح شأنها شأن كل المدن والمراكز السودانية، فلم يعرف عن تاريخها أية معلومات.

إلا أن شأنها ارتفع في عهد الملك بيا الذي قام بعمل تجديدات وتوسعات وإضافات لمعبد آمون القديم، وأصبحت نبته كذلك مقراً لإقامة ملوك السودان وحاضرة لممالكهم (العاصمة) واستمرت لأكثر من مائتي عام على هذا العهد من الازدهار.

ولما بدأ الملوك يتخذون لهم أكثر من عاصمة من بينها نبته أخذت تفقد بعض من أهميتها السياسية كعاصمة أولى للدولة، إلا أنها احتفظت بمكانتها الدينية كمركز ومعقل لعبادة الآلة آمون، وأيضاً كمدينة لها من الثقل مما جعلها المكان الذي تتم فيه احتفالات ومراسم تتويج الملوك حتى ملوك العواصم الأخرى بما فيها مروي يقدمون إليها ليتقلدوا شارات الملك من (كاهن آمون الأول) المقيم في نبته بجبل البركل.

ومن الناحية التاريخية يمكن القول أن نبته هي مقر وموطن أهالي السودان النبتيين الذين يأهلون هذا الإقليم، وأن النبتيين هم مواطنو إقليم نبته على وجه عام، وعلى وجه التحديد فإن النبتيين هم تلك الأسرة التي جاءت بحكام وملوك السودان في عصر سيادة نبته وأما عن أصل الأسرة الحاكمة النبتية فقد طرحت كثير من النظريات تتحدث عن أصل هذه الأسرة ومن أهم ما جاء في هذا الموضوع:

قبل البدء فى حفريات الكرو اعتقد بعض علماء المصريات مثل بريستد[٦٦] وداريتون وفانديه [٦٧] أن ملوك الأسرة الخامسة والعشرون المصرية وكلهم سودانيون وأسلافهم مصريون، واستدلوا على هذا الاعتقاد على الآثار والنقوش التى تعكس بعض نشاطات وأعمال هؤلاء الملوك، مثل لوح النصر للملك بيا، ومسلة تانيس للملك ترهاقا، وبعض تماثيل الملك شبكو وأفراد أسرته التى تم اكتشافها فى مصر، وأن تمسك هؤلاء الملوك الشديد بعبادة الآلة آمون والتعلق بها دليل على أصولهم المصرية.

كما أن التطابق فى الأسماء مثلما فى "بعانخى بن الأرا" (السودانى)، "بعانخى ابن حوريحور" (المصرى) فاعتقد داريتون أن بعانخى النبتى من أصل مصرى.

أما بعد اكتشافات الحفائر وظهور الأدلة خاصة بعد حفائر الكرو فإن الدلائل تشير إلى أن أصولهم سودانية.

* أما رايزنر فكان يرد أصل أصحاب مقبرة الكرو إلى أصول ليبية مرة ينسبهم إلى قبيلة الطمياح الليبية ومرة أخرى إلى قبيلة ليبية أخرى شمالية[٦٨].
* انتقد دنهام (زميل رايزنر ومساعده) رأى رايزنر فى أصل النبتين، ورفض مقولته بأن أصلهم ليبى وتبعه فى ذلك كثير من المتخصصين.

إلا أن آثار وحفائر الكرو تمثل فى الغالب معظم الأدلة التى تعزز الرأي بأن النبتين ذوى أصول سودانية محلية، ومن الطريف أن كندال تشبث بهذا الرأى وعارض رايزنر بشدة حتى وصل إلى حد اتهامه بالعنصرية وأن ذلك التعصب ضد السود جعله يستكثر عليهم حضارة مبكرة.

وخلصت نتائج ورشة العمل التى شكلها المؤتمر السابع للمرويات على التأكيد على ثبوت النظرية القائلة بأن أصول النبتيين سودانية، وبالرغم من هذا الاتفاق إلا أن الخلاف كان على المنطقة التى نشأ فيها وخرج منها النبتيون الأوائل[٦٩].

ومكسون ولكلان [٧٠] يعتقدان أن النبتيين جاءوا من كرمه ودليلهما الشبه الكبير فى عادات وطريقة الدفن عند الكرميين والنبتيين، أما [٧١] وتريجر[٧٢]،

وأوكونور [٧٣] فقد ذهبوا إلى أن النبتيين قد نزحوا من منطقة البجراوية (مروى القديمة الواقعة حول منطقة شندى الحديثة)، ودللوا على ذلك بأن حضارة النبتيين المبكرة خالية من أى آثار مصرية، وبالتالى يكون من صنعها لم يسبق له الوقوع تحت ظل التوسع والتأثير المصرى الذى لم يتجاوز الشلال الخامس جنوباً.

أما هيوك[٧٤] يرى أن أصول النبتيين قد ترجع إلى بدو الصحراء وأنهم نجوا من الصحراء ومن القبائل البدوية ويرجع ذلك إلى أن زوجة الملك بيا تحمل اسم (تابيرى) ومعناه (سيدة أهل الصحراء)، ووالدها هو الزعيم ألارا والذى يرجح أن يكون هو من جاء ذكره فى نقوش مسلة الملك ترهاقا، والتى وصفته بأنه أى ألارا أخ لجدات الملك ترهاقا.

أو أن النبتيين ربما كانوا من منطقة نبته ذاتها وبالتحديد من قرية (نورى) وحجة ذلك بما ذكره الملك (ناستاسن) (٣٤٥ – ٣١٠ ق.م) فى نقشه [٧٥] بأن الزعيم ألارا تربى ونشأ فى قرية (تاكات). وهذه القرية لا تبعد كثيراً عن جبل البركل حيث أن الملك ناستاسن قد رحل إليها عابراً النهر من جبل البركل. هذا وقد اقترح[٧٦] أن قرية (تاكات) هي قرية نورى إذا صح أن نورى هى مسقط ومنشأ الزعيم ألارا.

ويتفق بعض من العلماء مع كل من تريجر وأكونور على أن النبتيين إنما يرجع نجاحهم فى تأسيس مملكة قوية إلى تميزهم فى الشئون العسكرية وكفاءتهم القتالية العالية، وملكاتهم فى القيادة والزعامة، وأيضاً خبراتهم فى شئون الإدارة والتجارة مما كان له الأثر الكبير فى ازدهار مملكتهم وعلو شأنها وتمكنهم من فرض سيطرتهم ونفوذهم على القبائل الأخرى.

وليس بالضرورة أن التوسع المصرى وسيطرة المصريين قد شملت كل سكان السودان فى المناطق التى احتلها المصريون، وأنهم جميعاً تأثروا بالثقافة والعادات الواردة، حيث كانت هناك مجموعات محافظة ترفض التقلد بالمصريين، أو إتباع عاداتهم، كما وأن الفترة الأخيرة من زمن التواجد المصرى فى السودان

(الأسرات ١٩، ٢٠) شهدت ضعفاً فى قوة وتأثير المصريين على السكان المحلـــيين باستثناء المقربين منهم والأعوان الذين شاركوا فى إدارة شئون بعض المدن والقرى السودانية.

ومن الجدير بالذكر أن الفترة التى أعقبت خروج المصريين من الـــسودان، وحتى قيام مقبرة الكرو تبلغ قرنين من الزمان قد انقطع فيها الأثر الحضارى المصرى عن السودان وربما بدأ الأهالى فى العودة إلى سابق عهدهم والرجـــوع إلى أصـــل عاداتهم.

هوامش الفصل الرابع

1- Trigger B., Nubia under the pharaohs. London 1976 p. 104.

2- Ibid .p. 107-109.

3- A. J. Arkell. The history of the Sudan, London, 1961, p.82.

4- B. Trigger, Op – Cit, p. 108.

5- G. H. Breasted Ancient Records of Egypt, vol 2, New York, 1906 p. 15 ff.

6- B. Trigger, et. Al, Ancient Egypt Social history Camnidge 1983, p 255.

7- G. H. Breasted, Op – Cit, p. 18.

8- B. Trigger, Op-Cit, p. 108.

9- A. J. Arkell, Op- Cit, p. 45.

10- D, O, Conner, in Trigger.

11- G. H. Breasted, Op – Cit, p. 20.

12- W. ÿ. Emry, Egypt and Nubia, London, 1965, p. 100.

13- D. O'Conner, Op – Cit, p.47.

14- P. Preasah. Op - Cit., p.150.

15- D, O,Conner, The Location of Irem, in, J.E.A. 73-1987, P. 102.

16- A. J. Arkell, The vicroy of Ethipia, in J.E.A. 1902, PP. 28-55.

17- D.O'Conner, in Trigger, OP – Cit, p. 262.

18- Ibid. p. 266.

19- Ibid. p. 269.

20- Save – sodebergh. T. Preliminary Report on the scondinavian Joint Expedition, Kush 11, 1963, p. 55.

21- Ibid. p. 57.

22- B. Trigger, Op – Cit, p. 109-110.

23- Ibid. p. 113.

24- Ver coutter J., The Cold of kush. Kush, vol 6, 1959, p. 212.

25- B. Trigger, Op-Cit, p. 219.

26- Ibid. p. 223.

27- G.A.Reisner, Inscribed monuments from Gedel Barkal ZAS,66, 1931, pp. 76-80.

28- Ibid. p. 83.

29- Savesoderbergh, T., Early New Kindom C-Group in ed Davies, "Egypt and Africa Nubia from prehistory to Islam , London, 1991,p. 188.

30- C.M.firth, The Archeaological Survey of Nubia Report for 1910-1911, Cairo, 1927, pp. 25-28.

31- W.y.Adams, post pharaonix nubia in the light of Archealogy, JEA 50, 1964,p. 106.

32- Savesoderberbergh, op-cit, p. 190.

33- Ibid. p. 195.

34- Ibid. p. 198.

35- B.Trigger, Op-Cit, p. 117.

36- W.y.Adams, Op –Cit, p.195.

37- B.Trigger, Op-Cit, p. 120.

38- Ibid. p. 125.

39- K.kitchen, The Third intermediate period in Egypt, warminister, 1973, pp. 246-247.

40- J. Taylor, Egypt and nubia, London, 1991, p. 37.

41- Ibid. p. 40.

42- A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs. Oxford, 1961, p. 303.

43- B. Haycock, The Kingship of Cush in Sudan, Comparative Studies in Society and History, 4,1965, p, 463.

44- K,kitchen, Op – Cit, p . 465.

45- Ibid. p. 293, and fot Not 284.

46- Save. Soder bergh, T., Op – Cit, p. 185.

47- T.kendall, the origin of the Napatan state, Paper presented in the 7th international conference for meroitic studies, Berlin, 1992, p. 16.

48- S.B Dafaalla, the origin of the napatans, Paper presented in the international conference for meroitc, studies, Berlin, 192, p.8.

49- Ibid. p. 12.

50- A.J Arkell, Op-Cit, p. 112.

51- S.B Dafaalla, Op-Cit, p.9.

52- T. kendall, Op – Cit, p. 54.

53- A AHakem, A new contribution to the Early Khartoum Tradition from Bauda site in. ed Krzyzaniaket. et al 1989, p. 382.

54- Ibid. p. 285.

55- T. kendall, Op – Cit, p. 67.

56- Ibid. p. 70.

57- D. Dixone, The origin of the kingdom of kuah – npata meroe, JEA 50, (1964), PP. 121-132.

58- Savesoderbergh, Op –Cit, p. 187. fig no4. p.194.

59- T.kendall, Op – Cit, p. 11-19.

60- Save. Soder bergh, Op – Cit, p. 190.

61- T.kendall, Op – Cit, p. 46-49.

62- Ibid. p. 12.

63- Ibid. p. 24-26.

64- Ibid. p. 19-21.

65- Ver coutter J., Op – Cit, p. 70f.

66- G.H.Breasted, Op – Cit, p. 52.

67- T.kendall, Op – Cit, p. 50.

68- G.A.REISNER, EL-Kurru SNR 4, (1919), P.246.

69- D.Dixone, Op – Cit, p. 135.

70- J. Leclánt, the Empire of Kush: Napata and Meroe in ed. Unesco, General History of Africa, Vol 2, P.278.

71- B.Trigger, Op – Cit, p. 144.

٧٢- محمد ابراهيم بكر: تاريخ السودان القديم، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٩٨.

73- D. O'Conner, Ancient Nabia Egypt's Rival in Africa pynnsylvania, 1993, p. 14.

74- B. Haycoch, (Napata – Meroe), SNR 49, 1968, p.3f.

75- E.W. Budge, Annals of Nubian Kings, London, 1912, p. 8-12.

76- Macadam. M.L.F., The temples of Kawa, vol.2, oxford, 1949, p. 123.

الفصل الخامس

مظاهر الحضارة المصرية في الدولة الحديثة

مظاهر الحضارة المصرية فى الدولة الحديثة

الملك:

كان الملك فى الدولة القديمة سيد البلاد المطلق، ولكنه اضطر فى الدولة الحديثة – بعد أن أصبحت مصر إمبراطورية لها قوتها – أن يلقى عبء السلطان إلى عدد من الموظفين الكبار فى الدولة، كان أهمهم كبير كهنة الاله آمون فى معابد الكرنك، ووزير الوجه البحرى ووزير الوجه القبلى، و"نائب الملك فى كوش" الذى اتخذ بع ذلك لقب (ابن الملك فى كوش)، وهى وظيفة أمر الملك أحمس بإنشائها ليتحمل شاغلها مسئولة حكم إمبراطورية مصر الجنوبية باسم الملك، وحماية مناجم الذهب فى النوبة والدفاع عنها والحفاظ عليها، وغالباً ما كان يتولى هذه الوظيفة ولى العهد ليتمرن فيها على الإدارة. أما توسع الإمبراطورية فى آسيا فكان داخل مسئوليات الملك الحاكم. ثم هناك وظيفة قائد الجيش التى لعبت دوراً هاماً فى الدولة الحديثة، وذاع بها صيت فراعنة هذه الدولة[1].

ولم يكن لهذه السلطات أو الوظائف العليا أية نفوذ طالما كان الملك الحاكم قوياً، أما إذا كان ضعيفاً عاجزاً عن موازنة السلطة، فغالباً ما يحاول معاونوه الأقوياء انتزاع هذه السلطة والاحتفاظ بها. وكان يعمل تحت رئاسة الملك وكبار موظفى الدولة مجموعة من الموظفين المدنيين ورجال الدين، فلقد كانت مصر دولة دينية، لا ينفذ فيها شيء مدنى دون أن يباركه رجال الدين.

اهتم فراعنة الدولة الحديثة بالوراثة الشرعية للسلالة الملكية، إذ أن الصفة الإلهية لملوك مصر القديمة كانت تنقل عن طريق النساء، وليس عن طريق الرجال، ولهذا كان المهم أن يكون ولى العهد ليس فقط ابن ملك ولكن أيضاً ابن أميرة من الدم الملكى، فظهر فى عهد الملك أحمس الأول – للمرة الأولى – لقب "الزوجة الإلهية لآمون"، وكان يطلق على زوجة الملك وأم أولاده التى تقوم بدور دينى مقدس فى المعبد، وعلى هذا أصبح من المفروض أن يكون ولى العهد ابن أميرة بنت ملك وزوجة ملك وبنت الزوجة الإلهية لآمون [2].

وقد يلجأ الملك – أو الملكة – إلى المصدر الإلهى لكى يهرب من تقاليد الوراثة الشرعية – مثل ما فعلت الملكة حتشبسوت ومنهم بعدها الملك أمنحتب الثالث – لكى يبرر أحقيته فى ارتقاء عرش مصر، وذلك عن طريق التناسل الإلهى، والانتساب إلى الإله آمون، إله الدولة وبهذا يصبح ابن الإله ويتفوق على غيره من أبناء البشر.

على أية حال لقد فضل ملوك الدولة الحديثة – عدا ملوك العمارنة – توثيق العلاقة بين التاج وبين الإله آمون وذلك للاحتفاظ بالعرش (٣).

الجيش:

هيمن على مصر فى عصر الدولة الحديثة الطابع العسكرى، فعصر الإمبراطورية هو عصر الانتصارات وعصر العسكريين، وذلك بعد فترة الجهاد الوطنى التى تمكن فيها المصريون من تحرير وطنهم من المستعمر الأجنبى الذى احتل مصر تحت اسم الهكسوس.

وتذكر نصوص الأسرة الثامنة عشرة أن قوات مصر الحربية لم يكن يطلق عليها كما هو معروف فى العصور الأخرى "جيش جلالته" بل أطلق عليها "جيشنا"، وهذا يدل على اشتراك البلاد كلها فى الدفاع عن الوطن، لقد تجمعت فى عصر الإمبراطورية عناصر مختلفة جعلت منها فترة وطنية وشعبية خالصة منها الاعتزاز بتحرير الوطن ومنها الرغبة فى الانتقام من المستعمر، ولقد كشفت مصر عن نفسها وعن ما بداخلها من قوة وتحدث جنود هذه الإمبراطورية وضباطها عن الحرب بأنها أعظم نعم الحياة وليست شراً لابد منه فهم يحدثوننا عن "ذهب البطولة" الذى يحصلون عليه لما يقومون به من أعمال حربية مجيدة، أو عن أوسمة الشرف التى يحصلون عليها مثل وسام "الذبابة" والذى يمنح للمقاتل الذى يتبع عدوه كظله، فقد سرت فى أفراد الشعب روح حربية مجيدة بعد أن تذوقوا طعم النصر وحرروا بلادهم من الهكسوس، على أن من المستحيل أن يكون هذا كله وليد الفجأة وإنما كما معروف أن المصريين منذ القدم يؤثرون السلام فى وقته ويفضلون الحرب إذا دعى داعى الجهاد (٤).

وقد اهتمت مصر منذ أقدم العصور بأبنائها الجنود وكنت لهم كل تقدير واحترام وقدرت بسالتهم خلال المعارك وبعدها منحتهم من خيرها الكثير فكانت تنعم عليهم بالألقاب العسكرية، وتمنحهم مكافآت سخية، وترقى كل من يستحق الترقية وتجازى من يستحق الجزاء، فمن الألقاب العسكرية التى ذكرت فى النصوص المصرية لقب "قن" — أى الجسور أو القوى — ولقب "عحاوتى" — أى المقاتل أو المحارب — ولقب "كفعو" بمعنى القناص وهناك أيضا القناص، الجرىء، وهو "كفعوقن" (٥).

على أن الخدمة العسكرية لم تكن وراثية مثل أغلب المهن التى كانت موجودة فى مصر فى ذلك الوقت، إلا أن أغلب من أدوها كانوا يفضلون انضمام أبنائهم فى سلكها، وكان المجند يؤخذ صغيراً إلى التكنات وينضم إلى جماعة من سنة تعرف باسم "جامو — ن — خردو" أى جماعة الناشئين ويطلق على أفرادها اسم "نفرو" أى الشباب، ويبدأ التدريب على الرماية بالقوس واستعمال الهراوات الحجرية وحمل الدروع واستخدام بلط الحرب، هذا بجانب تمرينهم على الألعاب الرياضية التى تفيد الجسم وإن كانت المصارعة أحب الألعاب إليهم، وقد كافات الدولة الجندى فأعفته من الضرائب.

وعندما ينتهى المجند من التدريب كان غالباً ينضم إلى سرية يصل عددها إلى ٢٠٠ أو ٢٥٠ جندى، وكان يشرف على السرية عدد من المشرفين من مختلف الرتب، فهناك رئيس الخمسة وهناك رئيس العشرة وهناك رئيس المئة، وتتميز كل سرية بلواء خاص يستميت أصحابها للدفاع عنه ويعلوا اللواء عادة صورة ترمز لإله أو لحيوان كاسر، وكان لكل سرية اسم يدل عليها منها ما ينتسب إلى الفرعون ومنها ما ينتسب إلى الإله، على سبيل المثال سرية الفرعون الحاكم وهناك سرية الإله "آمون حامى الجنود" ... الخ (٦).

وتجمعت السرايا فى كتائب، وكان لكل كتيبة رئيس، وكانت الكتائب تتكون فى الدولة الحديثة من المشاة والخيالة، ولقد لعب هذا السلاح الأخير دوراً

هاماً فى الإمبراطورية وكان له أكبر الأثر على الروح الحربية عند المصريين وعرف بإسم "نت حترو" أى المنسبون للخيل وهم المقاتلون الفرسان، وكانت العربة يقودها السائق وبجانبه أحد الرماة أو اثنان أو ثلاثة.

وتجمعت الفرق فى فيالق يشرف على كل منها قائد عرف باسم أمير الجيش "امى رامنع"، وقد أطلق على هذه الفيالق أسماء الإلهة. فهناك فيلق الاله آمون رب طيبة، وهناك فيلق الاله بتاح رب منف، فيلق الإله رع رب هيلوبوليس وهكذا.

ومن هنا نرى أن مصر كانت الأولى التى قسمت جيشها إلى فيالق، الفاليق إلى كتائب والكتائب بدورها إلى سرايا، وكانت مصر الرائدة أيضاً فى تنفيذ أساليب الحرب الحديثة، فالمصريون أول من قسم الجيش إلى قلب وجناحين وأول من فاجأ العدو بالالتفاف من حوله (٧).

وكانت هناك إدارة أطلق عليها اسم "إدارة الجيش" وكانت تنقسم إلى عدة إدارات الأولى "إدارة بيت الأسلحة" وكانت تشرف على تسليح الجيش ومعداته الحربية، أما الإدارة الثانية فهى "إدارة المخازن الحربية" وكانت تشرف على تموين الجيش بالغلال والأغذية، أما الإدارة الثالثة فكانت خاصة بصناعة السفن للأسطول، فقد كان لمصر فى عصر الإمبراطورية أسطول عظيم يشرف عليه رئيس الأسطول فقد كانت لقوة مصر البحرية أهمية أساسية فى تذليل المواصلات إلى الموانئ الفينيقية، إذ لا يمكن السيطرة على شرقى البحر المتوسط دون وجود بحرية قوية تسيطر على المنطقة.

لقد كان الجيش بالنسبة للإمبراطورية المصرية هو تأميم القوة، ولقد عرفت مصر قيمة الجيش وقيمة القوة قديماً وحديثاً للحفاظ على حضارتها ولخدمة الإنسانية والسلام (٨).

الملكية والإدارة الحكومية فى عصر الدولة الحديثة

عادت الملكية فى عصر الدولة الحديثة إلى قوتها وسطوتها التى كانت تتمتع بها فى النصف الأول من الدولة القديمة على وجه التقريب. ولكن رغم ذلك نجد أصداء الأفكار القديمة عن العدالة الاجتماعية والراعى الصالح تتردد على لسان الفراعنة أنفسهم [٩]. كما نجد أن نظم الحكم والإدارة فى عهد هذه الدولة قد دخلت عليها تعديلات ميزتها عن النظم التى سبقتها، بل وجعلتها تختلف عن هذه النظم كما يلى:

أثر التطورات السياسية والاجتماعية على الملكية :

أوضحنا فيما سبق كيف تواكب الفكرتان التى تدعو إحداهما إلى ظهور الملك العادل والراعى الصالح لشعبه، والتى تدعو الأخرى لإيجاد جيل جديد من الموظفين الصالحين العدول المتصفين بالكفاية والأمانة (أى إلى إصلاح الإدارة الحكومية بتعبيرنا الحاضر). وكيف أن الفكرتين تحققتا شبه منفصلتين فى أقوال الملك أمنمحات الأول وفى نصوص الموظفين وحكام الأقاليم من أمثال أمينى حاكم إقليم بنى حسن بالمنيا، غير أننا نجد فى عصر الدولة الحديثة أن الفكرتين قد ارتبطتا ببعضهما وتكاملتا، بل أنهما تغلغلتا فى تكوين الدولة نفسه ووصلتا إلى العرش ذاته، إذ يطالعنا الفرعون نفسه وهو يتبنى هذه الأفكار فيضمنها تعليماته لوزيره الأكبر رأس الإدارة الحكومية فى البلاد، وذلك فى الخطاب الذى يلقيه بمناسبة تنصيبه الوزارة. ويردد الفرعون فى هذه التعليمات تلك المبادئ والقيم التى ظلت الإنسانية المصرية على ضفاف النيل تتطلع إليها وتجاهد لتحقيقها على لسان مفكريها الاجتماعيين من أمثال ليور ونفرتى وكاتب قصة الفلاح الفصيح.

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن تعليمات الفرعون لوزيره التى ضمنها تلك الأفكار عن العدالة الاجتماعية ورعاية الناس وتقويم الإدارة الحكومية لا شك ترجع إلى عصر الدولة الوسطى، وأنها دونت فى هذا العصر ولكنها لم تصل إلينا، وإنما وصلتنا نسخ متأخرة ترجع لعصر الدولة الحديثة، وقد نقشت نصوص هذه التعليمات فى ثلاث مقابر لكبار وزراء الأسرة الثامنة عشرة وهم "أوسر" وزير

تحتمس الثالث و"رخميرع" ابن أخ "أوسر" فى عهد تحتمس الرابع، غير أن أكمل هذه النصوص هى التى نقشت فى مقبرة رخميرع على لسان الفرعون تحتمس الثالث، يقول الفرعون لوزيره هذه التعليمات [١٠]:

"ليس الغرض من منصب الوزير أن يستعبد الوزير أفراداً من الشعب... إذا قصدك شاك فعليك أن تتأكد أن كل شيء يجرى وفقاً للقانون ... إعط كل ذى حق حقه... ولاحظ أن من يلى منصباً كبيراً يردد الهواء والماء كل ما يفعله ولا يمكن أن تكون تصرفاته خافية..تصرف وفقاً للعدل، فالمحاباة يمقتها الرب... عامل من تعرفه كما تعامل من لا تعرفه ... إن النبيل هو من يجله الناس وتتأتى نهايته إذا أحق الحق ... ولكنه إذا أخاف الناس وأسرف فى ترويعهم، وكانت به نقيصة، نزلوا به عن مصاف الرجال .. إن الناس يتوقعون العدل فى كل تصرفات الوزير وتلك سنة القضاء منذ حكم الرب الأرض، لا تتوان قط فى إقامة العدل والقانون الذى تعرفه، وأعلم أن الملك لا يميل إلى المستكبر أكثر من المستضعف" [١١].

إن هذه التعليمات ليست دستوراً للوزارة فحسب، بل هى دستور لكل صاحب سلطة وكل شاغر منصب رئاسى فى الإدارة الحكومية، إنها توضح أن الرئاسة والسلطة ليست تحكم واستعباد للناس ومحاباة للقريب وإقصاء للغريب، وإنما هى رعاية وقدوة حسنة. رعاية لتحقيق العدل (ماعت) وإعطاء كل ذى حق حقه، وقدوة بالسلوك الشخصى السليم لأن تصرفات الرئيس ليست خافية على الناس، إنما هى مكشوفة لهم يردد الماء والهواء كل حركة فيها.

وإن الرئيس الناجح ليس هو الذى تخافه الناس نتيجة إسرافه فى إرهابهم، وإنما الرئيس الناجح هو الذى يأخذ الناس بالهواة ويجعل نصب عينية هدفاً واحداً هو تحقيق العدل طبقاً للقانون، إن الفرعون نفسه يدعو وزيره إلى نصرة الضعيف على القوى (المستكبر) [١٢].

ولعله لم يصلنا من العصور القديمة كلها دستور السلوك الرئاسى القويم أكمل وأبلغ من هذا الدستور الذى كان الفرعون فى مصر يوجهه إلى وزيره الأكبر، وإذا تأملنا فى ثنايا هذا الدستور استطعنا أن نتبين أن المبادئ التى نادى بها

المفكرون الاجتماعيون منذ عصر الإقطاع قد تحققت فعلا، فطالما دعا هؤلاء المفكرون إلى ظهور الحاكم الصالح الراعى لشعبه الذى يضمن تحقيق العدالة الاجتماعية بين رعاياه، وقد تحققت دعوتهم هذه بأن تولى الفرعون بنفسه توجيه التعليمات لوزيره عن أسلوب إقامة العدالة بين الرعية، بل إن أحد هؤلاء الوزراء وهو رخميرع يصف مليكه تحتمس الثالث بقوله "أنه أب وأم لجميع الناس"، وليس هناك وصف أبلغ من هذا الوصف للحاكم الصالح الذى يرعى شعبه ويحس بآلام الرعيه وآمالها (١٣).

وبالمثل طالما دعا هؤلاء المفكرون إلى ظهور جيل من الموظفين العدول الصالحين ذوى الكفاية والأمانة، حتى يكونوا أعواناً للراعى الصالح فى تحقيق العدالة الاجتماعية أى طالما دعوا – إذا استخدمنا تعبيرنا الحاضر – على إصلاح الإدارة أو الإدارة الحكومية.

وقد تحققت دعوتهم أيضاً فى ذلك الدستور الذى رسمه الفرعون لوزيره، باعتباره رأس الإدارة الحكومية، يوصيه فيه ضمناً بأن يكون المثل الأعلى والقدوة الحسنة لمرؤوسيه سواء فى السلوك الشخصى أم فى تحقيق العدل، وبذلك تستقيم أحوال الأجهزة الحكومية كلها، والحقيقة أن القدوة الرئاسية الصالحة مازالت العنصر المنشود وربما المفقود لتحقيق أى إصلاح للإدارة الحكومية فى مصر، فإذا ما توفرت هذه القدوة يصلح الجهاز كله دون حاجة إلى سن قوانين أو توقيع عقوبات(١٤).

وهكذا خطت مصر فى ميدان العدالة الاجتماعية وضمان حقوق الإنسان خطوات لم تبلغها دولة أخرى من دول الشرق القديم، رغم وجود نظم فى مصر قد تبدو فى ظاهرها كأنها تتعارض مع هذا الرقى الاجتماعى مثل الملكية المؤلهة والحكم المطلق، ولكن الواقع أن هذه النظم لم تكن فى جوهرها مماثلة لمظهرها كما سنتناول ذلك فيما يلى (١٥):

هل كانت الملكية فوق القانون:

لقد نجحت الملكية الفرعونية فى عصر الدولة الحديثة فى طرد الهكسوس وتخليص البلاد من المستعمر، ثم فى بناء إمبراطورية مترامية الأطراف فى آسيا والنوبة. فكان الملك هو قائد جيوشه المظفرة يقودها من نصر إلى نصر فاضطبغت الملكية والحكومة فى عصر الدولة الحديثة بالصبغة العسكرية واكتسبت الملكية بذلك قوة وهيمنة واسعة على البلاد، وكان من نتيجة ذلك أن تركزت القوة والثروة فى يد الفرعون يتصرف فيها كيفما يشاء، وأنضوت البلاد كلها تحت لواء الملكية فاختفت الأسرات الإقطاعية من الأقاليم وسيطرت على البلاد حكومة مركزية قوية وحلت محل ارستقراطية الأقاليم طبقة من كبار الموظفين ومن كبار الضباط الذين يخضعون للفرعون خضوعاً مباشراً.

أما الأراضى فلقد عادت كلها للملك ولم تعد من أملاك الأسر الإقطاعية، وكان الملك يؤجرها للفلاحين نظير ضريبة تقدر بحوالى عشرين فى المائة من المحاصيل [16].

هذه الظروف التى أعادت للملكية سابق قوتها وسيطرتها التى كانت عليها فى عصر الدولة القديمة، بل أقوى مما كانت فى ذلك العصر، بالإضافة إلى تأليه الفرعون، جعلت الفرعون يبدو فى نظر البعض وكأنما هو المتصرف فى كل شىء وهو مصدر كل شيء كلمته هى القانون ولا راد لمشيئته [17].

غير أن هذا الاعتقاد خاطئ من أساسه فقد كان الفراعنة يخضعون لكثير من القيود التى فرضتها عليهم القوانين كما فرضها النظام الذى كان ينظم حياتهم اليومية. ونجد مصداقا لذلك فى وصف للمؤرخ ديودور الصقلى لحياة الفراعنة إذ يقول "فملوك المصريين لا يعيشون على نمط الحكام المستبدين فى البلاد الأخرى، فيعملون ما يشاءون تبعاً لأهوائهم غير خاضعين لرقابة ما، فقد رسمت لهم القوانين حدود تصرفاتهم، لا فى حياتهم العامة فحسبو بل فى حياتهم الخاصة وأسلوب معيشتهم اليومية ... وكانت ساعات النهار والليل مرتبة بحيث كان على الملك أن

يعمل فى الوقت المخصص بالضبط ما يفرضه القانون لا ما تدفعه إليه نفسه، فقد كان عليه أولاً عندما يستيقظ فى الصباح المبكر أن يقرأ الرسائل الواردة من مختلف الجهات حتى يستطيع أن ينجز على الوجه الأكمل جميع أعماله ومهامه، ويكون على علم تام بكل ما يحدث فى جميع أنحاء المملكة، وعليه بعد ذلك أن يستحم وأن يلبس بزة فاخرة، ويزين بالشارات الملكية، ثم يقرب القرابين للإلهة، وجرت العادة بأن يقف رئيس الكهنة عندما تحضر الضحايا إلى المذبح، إلى جانب الملك ويصلى بصوت عال وقد أحاط بهما جمهور غفير من المصريين، فيدعو للملك بالصحة وسائر الأنعم مادام منتهجاً سبل العدل إزاء رعيته، وكان من واجب رئيس الآلهة، شديد الرحمة بالناس، حليم، عادل، كبير النفس، منزه عن الخداع، وبالجملة فهو قابض على زمام شهواته يجزى المسىء بأقل مما يستحق من عقوبة ويثبت المحسن بأوفى مما أسلف من إحسان، وبعد أن يعدد كثيراً من مشاكل هذه الفضائل، يصلى الكاهن القائم بالصلاة من أجل الخطايا التى صدرت عن جهل، منزها الملك عن اللوم، ومستعطراً اللعنة والعقاب على خدامه الذين أفتوه براء خبيثة. ولقد كان الكاهن يقوم بذلك ليهدى الملك إلى التقوى ومخافة الله، وليرشده إلى حياة ترضاها الآلهة، لا عن طريق الزجر العنيف بل عن طريق المدح المستحب الداعى بصراحة إلى الفضيلة (١٨).

وكانت سلطات الملك إزاء رعيته مقيدة فى حدود القانون أيضاً وفى ذلك يقول ديودور: "وإذا بدا عجيباً أن الملك لم يتمتع بالحرية المطلقة فى اختيار طعامه اليومى، فأشد عجباً من ذلك بكثير أنه لم يكن فى قدرته أن يقضى على المخاصمات أو يصرف ما يعن له من الأمور، أو يقضى بعقوبة على أحد من الناس مدفوعاً بكيد له أو بغيظ منه، أو بأى دافع ظالم آخر، بل عليه أن يتصرف وفق ما تنص عليه القوانين فى كل حالة".

ويستطرد ديودور فى وصفه لعدالة الفراعنة وفى استمرار نظم حكمهم مدة طويلة فيقول. "... ولما كن الملوك يلتزمون جادة العدل إزاء رعيتهم، فقد استشعر القوم نحوهم من الولاء ما يزيد كثيراً عما يكنونه لأهلهم من حب، فلا يولى الكهنة

ولا سكان مصر كافة نسائهم وأولادهم ومقتنياهم الثمينة من الاهتمام ما يولــوه لسلامة الملوك، ولذلك احتفظوا ردحاً طويلاً من الزمان بالنظام الـسياسى الـذى وضعه الملوك (١٩).

هذه العبارات التى رددها ديودور تكاد تتفق مع تعليمات فراعنة الدولـة الحديثة لوزرائهم التى سبق أن شرحناها، فالملك يوصف هنا بأنه عـادل رحـيم، وتلك الصفة (صفة العدالة) تأتى على رأس الصفات التى كان الفرعون يوصى بهـا وزيره كما أينا.

وفى أقوال ديودور ما يشير إلى أن المصريين لجأوا إلى طريقة غير مباشـرة لكبح جماح الفرعون إذا فرض وخرج عن جادة الصواب، وعند ذلك مـا يقـوم الكاهن بنسبة الأخطاء الصادرة من الفرعون إلى أعوانه الذين شاروا عليه بهـا، ولا شك أن ذلك أسلوب لن يستهدف توجيه الملك وتحذيره من التمـادى فى الخطـأ دون المساس بشخصه (٢٠).

ولقد وردت فى عبارة ديودور أيضا إشارة هامة هى أن الملك كان مقيـداً فى توقيع العقوبات بما ينص عليه القوانين لا يدافع من ذرعائه الشخصية، وتلك من أهم الوصايا التى كان الفرعون نفسه يوصى بها وزيره عندما يقول له بأن يحكـم بالعدل وفقاً للقانون، ولقد أمدتنا الأدلة التاريخية بما يثبت عبارة ديودور هذه، وقد أشرنا لمثال منها من عصر الدولة القديمة وهو الملك ببى الأول الذى أحال زوجتـه الملكة "إمتس" إلى هيئة محكمة لمحاكمتها على المؤامرة التى دبرها ضد الملك نفـسه، وهناك مثال آخر من الدولة الحديثة ويشبه المثال لسابق تماماً، فقد شـكل الملـك رمسيس الثالث (الأسرة العشرون) هيئة محكمة لمحاكمة إحدى محظياتـه المـدعوة "تى" وشريكاتها من نساء الحريم الملكى ورجال البلاط لتآمرهم على اغتيال الملك نفسه (٢١)، ويتضح حياد الملك والتزامه بالقانون من تعليماته لأعضاء هيئة المحكمة بشأن المتهمين إذ يقول:

"إنى لا أعلم ماذا قاله الناس، أسرعوا لفحصه، إنكم ستذهبون وتسألونهم فمن كان مستحقاً للموت فلتجعلوه يمت بيده دون أن أعلم شيئاً عنه وستنفذون العقوبة الموقعة الآن على الآخرين دون أن يصل إلى علمى شىء عنها".

من هذا نرى أنه رغم أن الفرعون نفسه هو المقصود بالمؤامرة فأنه ترفع عن الانقياد لنزعة الانتقام وترك الحكم على المتهمين لهيئة المحكمة التى شكلها، لكى تصدره بمعرفتها بعد أن تجرى التحقيق اللازم مع المتهمين، وهو ما عبر عنه الفرعون بكلمة "تسألوهم"، بل أن الملك سلك مع المتهمين سلوكاً رحيماً حين أوصى المحكمة بأن تعطى الفرصة لمن تثبت إدانته أن يقتل نفسه بيده، ولاشك أن هذا المثال يثبت بجلاء ما جاء فى أقوال ديودور من أن ملوك مصر كانوا خاضعين للقوانين وأنهم اتصفوا بالرحمة والعدل (٢٢).

وظيفة وزير الجنوب وأهميتها:

قلنا فيما سبق أن مصر قسمت فى عصر الدولة الوسطى إلى قسمين إداريين من الناحية المالية، والواقع أن هذا التقسيم كان نواة لتقسيم أبعد مدى فى عصر الدولة الحديثة، فقد ترتب على اتساع أعمال الدولة المصرية وإنشاء إمبراطورية واسعة فى عصر الدولة الحديثة أن احتاج المر إلى وجود وزيرين احدهما للشمال والآخر للجنوب، وكان وزير الجنوب يقيم فى طيبة عاصمة الدولة ويشرف على المنطقة الممتدة من أسوان حتى أسيوط شمالا، بينما كان وزير الشمال يقيم فى منف أو هليوبوليس ويشرف على الوجه البحرى والصعيد جنوباً حتى أسيوط، وكان وزير الجنوب يتمتع بأهمية خاصة عن وزير الشمال نظراً لوجوده فى العاصمة بجوار الفرعون، ومن أشهر وزراء الجنوب "رخميرع" وزير الملك تحتمس الثالث (٢٣).

وقد ظل الوزير فى عصر الدولة الحديثة، كما كان شأنه فى عصر الدولتين القديمة والوسطى، الرئيس الأكبر لكافة الإدارات الحكومية والجهاز القضائى فى العاصمة، وقد سجلت مناظر مقبرة الوزير رخميرع جانباً من قاعة (مكتب) الوزير

ليعرضوا شكاياتهم مكتوبة، وحينئذ يبدأ الوزير فى مناقشتها مستعيناً بالقوانين المدونة فى ملفات رتبت أمامه، ومن حوله يجلس مستشاروه، ولم يكن للوزير برغم السلطات الواسعة المخولة له، أن يصدر أحكامه حسب ما يترائى له، وإنما كانت هناك قوانين تنظم مختلف الحالات وكيفية الفصل فيها، بل أن هذه القوانين كنت تلزم الوزير نفسه بالعلم تبعاً لنظام محدد، فأن كانت الشكوى المقدمة للوزير تتعلق بتراع على أرض مثلاً، فقد حدد القانون أن يصدر الوزير حكمه فيها فى خلال ثلاثة أيام، هذا إن كانت الأرض موضوع النزاع فى طيبة مركز الوزير، أما إذ كانت الأرض بعيدة عن العاصمة، فقد سمح القانون للوزير بمهلة شهرين حتى يستطيع أن يبحث الأمر، وكان يوجد تحت تصرف الوزير "أرشيف" كامل منظم يستعين به فى البت سريعاً فى الحالات المعروضة عليه، إذ كان يبلغ أولاً بأول بكل ما يحدث فى البلاد وبالتغيرات التى تطرأ من وقت لآخر، كما أن وثائق الدولة والقضايا ومراحل بحثها ووجهة نظر الطرفين المتنازعين والحكم والشهود كانت كلها تسجل لديه (٢٤).

وكانت قاعة الوزير من ناحية أخرى تضم نسخاً من وثائق الأقاليم وسجلات الملكيات وحدود الأراضى ولعقود والتركات حتى يستطيع موظفوا قاعة الوزير أن يمدوه بالمعلومات الكافية عن الموضوعات المتعددة والاختلافات والمنازعات التى تعرض للبحث، وقد حتم القانون أيضاً أن تقدم الطلبات والشكاوى المرفوعة للملك مكتوبة عن طريق قاعة الوزير.

وقد اختص الوزير بالإشراف على نواح أخرى هامة فى الدولة كالشئون الحربية فكان نظم أمور الحاميات الموجودة فى البلاد التابعة لمصر ويبلغها بالأوامر التى يصدرها إليه الملك، كما كان يتلقى تقارير القلاع والحصون عن أحوالها وعن تحركات العدو ويصدر إليها تعليماته، وكان يدير شئون البحرية أيضاً باعتبارها جزءاً من الجيش (٢٥).

وكان الوزير "رخميرع" يشرف فضلاً عن ذلك كله على أملاك معبد الإله آمون وعلى معابد الإلهة الأخرى أيضاً.

وهكذا شمل إشراف الوزير معظم النواحى المختلفة للحكم. وكان يسير هذه النواحي وفقاً للقوانين ووفقاً لما يأمره به الملك، فقد كان نظام عمل الوزير يبدأ بالمثول بين يدى الملك صباح كل يوم، حيث يعرض عليه شئون البلاد وسير العمل الحكومى، والمشكلات التى تتطلب رأى الملك ويتلقى تعليماته بشأنها (٢٦).

أهمية الوظائف الحربية ووظائف حكم الولايات:

نتيجة للطابع الحربى للدولة المصرية واتساع إمبراطوريتها فى السودان وغربى آسيا ازدادت أهمية الوظائف الحربية والوظائف التى تتصل بحكم أملاك الإمبراطورية مثل وظيفة حاكم النوبة الذى كان يلقب "ابن الملك حاكم كوش" (النوبة العليا)، مما يدل على منزلته الكبيرة فى الدولة ولدى الملك، ومثل وظائف حكام الولايات وكان بعضهم حمل لقب "أذنى الملك" إشارة إلى ما يجب أن يكون عليه من يقظة للإبلاغ عن تطورات الأحوال فى هذه البلاد، وقد ازدادت أهمية قادة الجيش بقواته البرية والبحرية، وسجل بعضهم على جدران مقبرته أخبار انتصاراته تحت قيادة الفرعون والأنواط والنياشين والهدايا التى قدمها الفرعون مكافأة لهم على شجاعتهم (٢٧).

وقد ترتب على اختفاء الطبقة الارستقراطية من البلاد التى كان يمثلها أمراء الإقطاع، وازدياد أهمية الفرد نتيجة لتقدير الجندى طبقاً لكفاءته فى الحرب وليس لاعتبارات الحسب والنسب، ترتب على هذين العاملين ازدياد أهمية ونفوذ الطبقة الوسطى، وأصبح الطريق مفتوحاً أمام أفراد هذه الطبقة فى الترقى إلى أعلى مناصب الدولة، بل استطاع أفراد منها الوصول إلى منصب القائد الأعلى للجيش، وكان هذا المنصب طوال النصف الأول من الأسرة الثامنة عشرة مقصوراً على أبناء الملوك، ومثال ذلك القائد حور محب الذى وصل إلى هذا المنصب فى أواخر الأسرة الثامنة عشر رغم انه لم يكن من سلالة ملكية أو ارستقراطية، بل كان من الشعب، ويبدو أن ذلك كان سبباً فيما قام به من إصلاحات إدارية، فقد أحس بآلام الناس وبما يقاسونه من ظلم وتعسف وتسلط البيروقراطية (٢٨).

إصلاحات الفرعون حور محب الإدارية:

ترتب على ثورة اخناتون الدينية وما صاحبها من إهمال شئون البلاد ثم تولى ملوك ضعاف بعد اخناتون — ترتب على كل ذلك ضعف السلطة المركزية واختلال نظام الإدارة الحكومية، فانتشر الفساد في الجهاز الإدارى وعمت الرشوة بين الموظفين واضطهدوا الفلاحين وابتزوا أموالهم، وقد أوضحنا من قبل مدى الارتباط بين ضعف السلطة المركزية وضياع هيبتها وبين فساد الجهاز الإدارى وكيف كان هذا الفساد ينعكس بسرعة على الأحوال في البلاد لارتباط الجهاز الإدارى ارتباطاً وثيقاً بشريان الحياة فيها.

فقد أخذ الموظفون والعاطلون من العسكريين يستغلون ضعف الرقابة الحكومية وينهبون أموال دافعي الضرائب بمغالطتهم وجباية الضريبة سنوياً لصالحهم، وكان الجنود يعتدون على سفن الغلال المتجهة إلى مخازن الدولة وينهبونها [٢٩].

وكان العمد يفرضون الإتاوة على الفلاحين ويجمعونها منهم ظلماً وعدواناً، وكانوا يستخدمون الرشوة لاسكات المفتشين التابعين للحكومة المركزية.

فعندما اعتلى حور محب عرش البلاد اخذ في الضرب على هذا الفساد وسن القوانين اللازمة لذلك، ونقشها على لوحات من الحرج أقامها أمام معابد مصر مثل معبد الكرنك ومعبد الأقصر ومعبد أبيدوس، لكى تكون ظاهرة أمام الناس جميعاً، وقد قسم حور محب قوانينه إلى عشر فقرات تبدأ كل فقرة عادة بوصف الوضع السيىء القائم ثم تتبعه بما أسنه الملك من أحكام لمعالجتها، ثم تنتهى بالجزاء الذى يوقع عن المخالفة، وكانت العقوبة إما بدنية كالجلد بالسياط وجدع الأنف أو بدنية ومالية مثل رد الرشوة المغتصبة أو تجمع بين العقوبات البدنية والمالية، بالإضافة إلى النفى إلى بلدة ثارو (عند مدينة القنطرة الحالية) عند أقصى حدود البلاد الشمالية الشرقية [٣٠].

ولم يميز حور محب بين فئة وأخرى أمام قوانينه فكان حازماً مع رجال جيشه على الرغم من أنه كان منهم وعمل على المساواة بينهم وبين غيرهم فى الردع والعقاب [٣١].

ولم يكن سبيل حور محب إلى الإصلاح هو الإرهاب والعقاب فقط (وهو ما يسمى فى علم الإدارة الحديثة بالحوافز السلبية)، بل كان يكافئ الأمناء والشرفاء ويجزل لهم المرتبات والمكافآت (وهو ما يسمى بالحوافز الإيجابية) فجمع بين الترهيب والترغيب وأتاح لكل مخلص أمين سبيل العلو والترقى، واختار طائفة اعتبرهم من أصحاب الخلق المثالى فأسند إليهم المناصب الخطيرة فى الدولة حتى يكونوا القدوة الحسنة لمرؤوسيهم، وأخذ يوجه إليهم النصائح ويحذرهم مما وقع فيه من سبقوهم فلا يقبلوا رشوة ولا يتخذوا لهم أصدقاء سوء حتى لا يدفعهم الهوى إلى الميل والانحراف [٣٢].

ولا شك أن هذه السياسة تعتبر من أهم أسس الإصلاح الإدارى حتى اليوم.

ولعلنا نجد فى إصلاحات الفرعون حور محب هذه إحياء لتلك الفكرة التى كانت الإنسانية المصرية ترنو دائماً أبداً لتحقيقها منذ أن انطلقت الدعوة إليها لأول مرة على لسان كاتب قصة الفلاح الفصيح، وهى فكرة إيجاد الموظفين العدول الأمناء الذين يكونون عوناً للحاكم الصالح فى تحقيق الخير والعدالة فى البلاد [٣٣].

القضاء في الدولة الحديثة:

سبق أن قلنا أن الوزير كان الرئيس الأعلى للقضاء منذ عهد الدولة القديمة وأنه بهذه الصفة كان يرأس محكمة الستة العليا (أو محكمة الدوائر الست الكبرى كما يسميها بعض الباحثين)، وقد ظل الوزير فى عهد الدولة الحديثة الرئيس الأعلى للقضاء، غير أن النظام القضائى تغير بعض الشيء فبدلا من محكمة الستة العليا، ظهرت هيئة قضائية أو محكمة تسمى محكمة المستمعين (قُنبت سجمُوا) كانت تفصل فى القضايا المدنية والجنائية، وكان يطلق على أعضائها "سرو" أى سراة أو اشراف (وهو اللقب الذى أطلق فى عصر الدولة القديمة على أعضاء المحاكم المحلية)، ويبدو أنه تمشياً مع نظام تقسيم البلاد تحت إشراف وزيرين قد أنشئت محكمتان من هذا النوع، أحداهما مقرها هليوبوليس وكانت تحت رئاسة وزير الشمال والأخرى كانت فى طيبة ويرأسها وزير الجنوب [٣٤].

وقد مر بنا كيف أن الملك كان يزود الوزير عند تنصيبه بالتعليمات والتوجيهات التى تحذر الوزير من التحيز والمحاباة وتوصية بالتزام العدل والنزاهة والرحمة والإنسانية، وفى الوقت نفسه يحذره من المغالاة فى معاملة معارفه بالقسوة ليدرأ عن نفسه شبهة محاباته لهم، ويأمره بأن يعامل الناس كلهم بالعدل والمساواة.

كانت هذه المبادئ التى تضع الحق فى نصابه وتأمر بالعدل والإنصاف والمساواة هى نفس المبادئ التى ينبغى أن يطبقها بقية الموظفين الذين يمارسون القضاء فى سائر جهات القطر، فبالإضافة إلى المحاكم الكبيرة المذكورة سمح القانون للموظفين الإداريين بعقد مجالس أو دوائر للنظر فيما يعرض من قضايا أو منازعات، ويبدو أن القانون سمح أيضاً بتكوين محاكم خاصة فى القضايا ذات الصبغة الهامة والخطيرة مثل قضايا سرقات المقابر، فقد غلب الطابع الكهنوتى على أعضاء هذه المحاكم وكان مجلس المحكمة ينتقل أحياناً إلى مكان الجريمة ليعاين ويناقش المجرمين، بل أنه كان أحياناً يطلب من المجرمين — كما يحدث الآن — أن يعيدوا تمثيل جريمتهم أمام أعضاء المجلس حتى يستطيعوا أن يحددوا الجريمة والعقاب. وقد وصفت محاضر جلسات المحكمة التى عهد إليها بالتحقيق فى إحدى قضايا سرقات المقابر فى طيبة الغربية فى عصر الأسرة العشرين ما كان يدور فى كل جلسة، وقد رأس الوزير بعض جلساتها ودونت الأسئلة الموجهة للصوص الذين اتهموا بسرقة مقابر فراعنة الدول الحديثة فى وادى الملوك، كما دونت إجاباتهم عليها ثم الخطوات التى اتخذت حتى يدلوا عن إنكارهم ويعترفوا، ثم انتقال هذه المحكمة إلى المقابر نفسها مع اللصوص للتحقق من صحة أقوالهم، وكان يترك لكل لص أن يعترف أو يدافع عن نفسه بعد أن يواجه بالتهم المنسوبة إليه حتى تظهر حقيقة الأمر فتبرئ المحكمة ساحته أو يحكم عليه بالعقوبة المناسبة للجرم (٣٥).

وكان القانون ينص على أن يسأل المذنب مرة ومرات حتى تتاح له الفرصة للاعتراف وكان الملك يصدق فى بعض الأحيان على هذه الأحكام.

وما من شك فى أن هذا التنظيم الدقيق لناحية من أهم نواحى نظام الحكم وهو القضاء يدل على الرقى المطرد لنظام الحكم فى مصر الفرعونية كما يؤكد حرص المصريين الشديد على تحقيق العدالة.

القانون الجنائي والمدني في عصر الدولة الحديثة:

سبق أن أشرنا إلى وجود قانون جنائي في العصور السابقة على عصر الدولة الحديثة ولو أن الأدلة لم تكن كافية ولكن القرائن القليلة تشير لوجودهن كما وردت إشارات من تلك العصور تدل على وجود قانون مدني ينظم العلاقات بين الناس.

غير أن عصر الدولة الحديثة يمتاز بوفرة المصادر الأثرية التي تشير إلى وجود قانون مدني، وتتمثل في البرديات والنقوش التي تسجل أنواع العقوبات وإجراءات التقاضي، فضلاً عن وفرة كتابات المؤرخين والكتاب الكلاسيكيين التي ينصب أغلبها على عصر الدولة الحديثة والعصر المتأخر الذي يعتبر امتداداً له من هذه الناحية (٣٦).

فقد أشار المؤرخ ديودور الصقلي إلى وجود قانون مصري مدون فقال إن القوانين كانت كلها مدونة في ثمانية كتب توضع بجانب القضاة (٣٧)، ونجد مصداقا لأقوال ديورور في مجموعة القوانين المرسومة على جدران مقبرة الوزير رخميرع (كما سجل ديودور أيضاً بعض نصوص القانون الجنائي المصري، ومن هذه النصوص ما يلي: "الحكم بالإعدام على شاهد الزور، وعلى من يهمل في مد يد المساعدة لإنسان تعرضت حياته للموت رغم استطاعته إنقاذه .. الجلد بالسياط والحرمان من الطعام ثلاثة أيام سوياً على من يهمل في الإبلاغ عن جريمة قتل ... الحكم بالإعدام على من يزور في البيان الذي يقدمه للسلطات الحكومية عن مصدر دخله أو يكون دخله من مصدر حرام " –(ولعل ذلك يشبه في الوقت الحاضر ما يسمى بقانون الكسب غير المشروع) – ومن هذه النصوص أن من اتهم شخصاً زوراً وقعت عليه العقوبة التي يحكم بها عادة على ذلك المتهم البريء لجريمة لم يرتكبها، ومنها الحكم بالإعدام على من قتل نفساً سواء أكانت نفس حر أو عبد. ومنها أن الآباء والأمهات الذين يقتلون أبنائهم أو بناتهم يحكم عليهم بأن يعرضوا على ملأ من الناس وقد حملوا جثث أبنائهم أو بناتهم ثلاثة أيام وثلاث ليالي

متوالية، أما قتل الوالدين احدهما أو كليهما فكان عقاب القاتل قطع أجزاء صغيرة من جثته بالتدريج ثم حرقه حياً فوق الأشواك، وكانت النساء الحوامل يؤجل تنفيذ حكم الإعدام فيهن إلى ما بعد الوضع، ومنها أن من يطفف الميزان أو الكيل أو يزيف الأختام أو النقود أو يغش اللذين يعاملهم كان عقابه قطع كلتا يديه، وتوقع نفس العقوبة على الكاتب العمومى الذى يغير فى نصوص السجلات العامة بمحو أو زيادة. ومن تلك النصوص أيضاً أن من يغتصب النساء كانت عقوبته الخصى لكى يحرم من رجولته التى دفعته للجريمة، أما عقوبة الزنا من غير إكراه فكانت ألف جلد للزانى وجدع أنف الزانية، وكانت حكمة المصريين من ذلك (كما نقل ديودور عنهم) أن المرأة التى تزين للمعصية يجب أن تحرم من أكبر مقومات الجمال(٣٨).

وقد أشار ديودور إلى أن هذه النصوص (أو القوانين كما وصفها) امتازت بقدمها السحيق، وهذا معناه أنها ترجع إلى ما قبل العصر الذى عاش فيه ديودور (القرن الأول قبل الميلاد) بقرون مما يرجح وجودها فى عصر الدولة الحديثة.

وقد امتدح ديودور هذه القوانين ووصفها بالحكمة والعدالة، وشرح الغرض منها طبقاً لما أخبره به المصريين، وقال ديودور أن بعض هذه القوانين قد نقله اليونان عن مصر مثل القانون الخاص بتأجيل تنفيذ حكم الإعدام فى النساء الحوامل إلى ما بعد الوضع، ومثل قانون "الكسب غير المشروع".

أما المصادر الأثرية التى تشير إلى وجود قانون جنائى فى عصر الدولة الحديثة فتتمثل فى الروايات التى تسجل إجراءات المحاكمة فى قضيتين شهيرتين فى ذلك العصر، إحداهما قضية سرقات المقابر والأخرى القضية المعروفة بقضية المؤامرة ضد الملك رمسيس الثالث أن عقوبة جريمة التآمر ضد الفرعون كانت الإعدام (ولو أن الفرعون سمح للمجرمين بأن ينتحروا)، وقد حدث قرب انتهاء التحقيق فى هذه القضية أن بعض نساء الحريم الملكى المتهمات تمكن من إغراء اثنين من القضاة، ولكن كشف جريمة القضاة، وحكم عليهم بصم آذانهم وجدع أنوفهم، وقد رأينا

أن هذه العقوبة سبق أن سن "حور محب" توقيعهـا علـى القـضاة والمـوظفين المرتشين والمختلسين. ويبدو أنها بالإضافة إلى النفى إلى حدود البلاد، كانت العقوبة المقررة لجرائم الموظفين (ومنهم القضاة) المعروفة فى وقتنا الحاضر باسـم "خيانـة الأمانة" (٣٩).

أما قضايا سرقات المقابر فكانت أشهر القضايا الجنائية فى مصر الفرعونية لوفرة البرديات التى سجلت عليها ولوصول بعضها إلينا فى حالة لا بأس بها، وقـد وقعت هذه السرقات نتيجة لضعف الملكية الفرعونية فى أواخـر عـصر الدولـة الحديثة، وتفكك السلطة المركزية وعجزها عن حماية مقابر الملوك فى طيبة الغربيـة من أيدى اللصوص فكثر نهب هذه المقابر وسلبها، وقد بدأت هذه السرقات علـى ما يبدو فى عصر رمسيس التاسع عندما سطت عصابة من اللصوص علـى مقـبرة الملك "سبُك – إم – ساف" أحد ملوك الأسرة الرابعة عشرة، وسـرقوا أثاثهـا الجنائزى وعبثوا بمومياء الملك وزوجته واستلوا على حليهمـا وأشـعلوا النـار فى المقبرة، ولكن سرعان ما تمكنت شرطة الجبانة من القبض على المجـرمين، وكـان عددهم ثمانية يمثلون المهن المختلفة فى طيبة الغربية منهم اثنان من عمـال المحـاجر ونجاران وفلاح وسقاه ثم رجلان آخران (٤٠).

ونظراً لبشاعة الجرم الذى ارتكبه الجناة وخطورة الجريمة، فقـد جـرت محاكمتهم تحت الإشراف المباشر لوزير الجنوب، وعندما رفضوا الاعتراف ضـربوا ضرباً مبرحاً فاعترفوا بجريمتهم ثم كلفوا بتمثيل الجريمة، فساروا معهم المحققون حيث أرشدوا عن المقابر التى سرقوها ومثلوا طريقة سرقتها، وعندئـذ حكـم علـيهم بالإعدام بأشنع طريقة يمكن أن يعدم بها إنسان، ذلك أن المصريين اعتبروا جريمـة سرقة المقابر أفظع الجرائم لأنها بالإضافة إلى الجرم نفسه تحرم المعتدى عليـه مـن فرصة البعث والخلود، أمل كل مصرى فى الحياة وفى الملك (٤١).

أما القانون المدنى فى عصر الدولة الحديثة فقد أشار ديـودور إلى بعـض نصوصه، وإن كانت إشاراته قد انصبت أيضاً على العصر المتأخر فقد نسب صدور

بعض قوانين الملكية وإجراءات تسديد الديون إلى أحد ملـوك الأسـرة الرابعـة والعشرين وهو الفرعون "بو كوريس" (بالمصرية باك — إن — إف) [٤٢].

وقد أمدتنا المصادر الأثرية بعدد من وثائق القضايا المدنية التي ترجع لعصر الدولة الحديثة نذكر منها على سبيل المثال قضيتين شهيرتين أحداهما قضية رجـل يسمى "مس" (أو موسى) والثانية قضية سيدة تسمى "إرى — نفرت".

وتتلخص قضية "مس" فى أنه عندما كان صغيراً استطاع رجـل يـسمى "خاى" أن ينازع والدة مس على ملكية أرض، وقدم للمحكمة كـشف أمـلاك مزور يثبت ملكيته للأرض فأصدرت المحكمة حكمها فى صالحه، ولكن عندما كبر "مس" رفع قضية ضد "خاى" هذا مطالباً باسترداد أرض والدته وأحـضر عـدداً كبيراً من الشهود رجالاً ونساء الذين أيدوه فى دعواه، فأصدرت المحكمة (قنبـت) برئاسة الوزير الحكم لصالحه، وقد نقش من أخبار هذه القضية على جدران مقبرته فى سقارة، أما قضية السيدة "إرى — نفرت" فتتلخص فى أنها اشترت جارية سورية من رجل ودفعت له فى مقابلها أقمشة وأوان من البرونز. وبعد أن تسلمت الجارية من البائع، ادعى احد الجنود ويسمى "يخى" على هذه السيدة أمام المحكمـة بأنهـا استولت بدون وجه حق على بعض ما قامت بدفعه ثمناً للجارية، من أملاك (أو من مقبرة) سيدة يقال لها "باك — موت" (ربما تكون ذات صلة قرابة بهذا الجنـدى). غير أن "إرى — نفرت" أقسمت أمام المحكمة بأنهـا علـى اسـتعداد لأن تجلـد ١٠٠ جلدة وتصادر الجارية إذا كانت قد استولت على أى شيء من أملاك السيدة "باك — نوت"، وعندئذ أحضر "يخى" ستة شهود، ثلاثة من الرجال وثلاثـة مـن النساء فأقسموا أمام المحكمة أنهم يقولون الصدق وإذا كذبوا تصادر جواريهم [٤٣]، وقد انقطعت الوثيقة عند ذلك فلم توضح نهاية القضية.

وإن المتتبع لإجراءات هذه القضية يتبين له أن عقوبة القول الزور بالنـسبة للمدعى عليه كانت مائة جلدة ومصادرة العين موضوع النـزاع،وبالنسبة للشاهد كانت العقوبة هى مصادرة ما يماثل هذه العين، كما يستفاد من قـضيتى "مـس" و"إرى - نفرت" أن شهادة عدد من الشهود كانت تجب الأدلة المكتوبة [٤٤].

الدين والعقيدة:

تبوأ الإله آمون مكانته الرفيعة فى عهد الملك أمنمحات الأول من ملـــوك الأسرة الثانية عشرة، واختاره ملوك طيبة الذين حرروا مصر من الهكسوس إلهاً لهم ولدولتهم، فقد كان له الفضل أولاً فى الانتـــصار الـــذى تم فى حـــرب التحريـــر والقضاء على الهكسوس وثانياً فى تشييد الإمبراطورية الجديدة المترامية الأطراف فى آسيا والنوبة (٤٥).

فقد "كان الفضل فى إيجاد تلك الإمبراطورية راجعـــاً — فى رأى جـــون ولسن إلى الهين، هما الإله — الملك الذى قاد الجيوش، والإله الـــذى بـــارك تلـــك الحروب، فقد تعطف آمون رع (بعد أن التحم بالإله رع) وأذن بإحدى الحملات ضد الآسيويين، وأعار "سيفه" وعلمه الإلهى إلى الملك، لكى يقـــود طـــريقهم إلى المعركة، وكان على الجيوش أن تدفع ما عليها من دين لآمون بعد أن تنتـــصر، وأن تعطيه نصيبه العظيم من الغنيمة، لأنه رعاها وحماها من الخطر، وكان عليهم أيـــضاً أن يزيدوا من القرابين التى يقدموها إليه اعترافاً بجميله، ومع مـــضى الأيـــام زادت ثروة آمون زيادة كبيرة، إذا كان كل نصر للجيش فى معركة من المعارك يزيد شيئاً إلى موارده، ولا نعتقد أنهم كانوا يأخذون منه شيئاً إذا أصابتهم هزيمـــة، وهكـــذا كانت العلاقة السائدة بين إله الإمبراطورية وبين الأمة، فلم تكن علاقة من يزعم فى الحصول على فائدة ولكنها كانت اشتراكاً إليها فى أمور دولة مقدسة.

واشترك الكهنة الآخرون، مثل كهنة رع فى هليوبوليس وبتاح فى منـــف، والإله ست إله الآسيويين، فى تكديس الثروة والحصول على النفوذ، ولكن لم يصل أحد منهم إلى ما وصل إليه كهنة آمون فى الكرنك (٤٦).

واستفاد آمون رع — ملك الإلهة ورب الكرنك — من الجزيـــة الأجنبيـــة والهدايا الخارجية، فقد وعد آمون فرعون مصر بالنصر، وكان الملوك يحملون تمثالاً له عند خروجهم للحرب، ولهذا كان له نصيب الأسد من الغنائم الحربية (٤٧).

أخذت أهمية آمون رع وكهنته تزداد مع تقدم الزمن وتخلق مشاكل سياسية للجالس على العرش وبالتالى أصبح هناك صراع على السلطة بين كبير كهنة آمون وبين كبار كهنة الإلهة الأخرى المعارضة والوزير وقائد الجيش (٤٨).

ثم رأينا كيف سار التطور فى العقائد فى وادى النيل نحو إدماج الآلهة المحلية فى إله الشمس، وكيف عبر المصريون عن ذلك بالجمع بين اسم الإله المحلى واسم إله الشمس، فالإله حنوم مثلا سمى خنوم رع والإله سبك سمى سبك رع وغير ذلك سمات مرحلة الترجيح فى تاريخ العقائد، وكيف بدأت تظهر أفكار جديدة متقدمة تنسب لإله الشمس صفات متعددة للخالق، أكثر صعوبة وتجريداً من الصفات المادية التى كانت تسود آلهة الطبيعة الأخرى فى مصر، وقد تم هذا التطور كله داخل مصر وفى نطاق حدودها، غير انه بحلول عصر الدولة الحديثة بدأ توسع مصر الإمبراطورية شمالاً وجنوباً إلى أن امتد سلطان المصريين على الأقطار الآسيوية المجاورة، واتسع فوق المناطق السودانية المتاخمة لمصر، وتكونت أول إمبراطورية ثابتة الأركان فى التاريخ، ولم يعد أمام السيادة المصرية أى منازع ابتداء من الجزر الإغريقية وسواحل آسيا الصغرى ومرتفعات أعالى الفرات شمالاً حتى الشلال الرابع جنوباً (٤٩).

وقد انعكس امتداد الإمبراطورية وشمولها دولاً وشعوباً، أخرى، على أفكار المصريين، فنسمع مثلاً أن الفرعون تحتمس الأول يفاخر بأن أملاكه قد امتدت إلى نهاية ما يحيط به الشمس، ونلاحظ فى هذه العبارة الارتباط بين الامتداد الشاسع للإمبراطورية وبين الشمس (٥٠)، والواقع أن إله الشمس سيكون له الدور الهام فى تطور فكرة الوحدانية نظراً لما تتميز به الشمس، عن سائر الظواهر الكونية التى تمثلها الآلهة الكبرى الأخرى فى مصر، من الامتداد العريض والارتفاع والإشراف على العالم، مما يؤهلها لأن تلعب الدور الأول فى تطوير فكرة التوحيد فى مصر، فنسمع تحتمس الثالث الذى كان له نشاط كبير فى تدعيم الإمبراطورية المترامية الأطراف نسمعه يصف. إله الشمس بقوله:

"أنه يعرف السماء ويعرف الأرض   ويرى جمع العالم فى كل ساعـــــة"

فهذا الوصف يشعر بأن المصريين أصبحوا فى ذلك العصر ينسبون لإله الشمس بعض الصفات العالمية الخاصة بالإله الخالق، منها أنه يرى جميع الناس فى كل مكان ويراقب شئونهم الدنيوية.

وهكذا بدأنا نتلمس ظهور تلك الفكرة الجديدة التى ترتبت على اتساع الإمبراطورية المصرية وهى فكرة "العالمية"، فقد أخذ الفكر الدينى المصرى يتجاوب مع هذا الاتساع، فالنقل من النظرة الإقليمية الضيقة داخل مصر إلى النظرة العالمية التى تنظر للإله على أنه رب العالم المعروف كله وليس لمصر وحدها (٥١).

ولم يكن امتداد أملاك مصر وظهور فكرة العالمية هو وحده العنصر الجديد فى عصر الإمبراطورية، بل لا شك أن الاختلاط الواسع بين المصريين وبين شعوب جنوب غربى آسيا، أدى إلى انتقال أنماط جديدة من الحياة إلى مصر فأخذ التغيير يدب فى نواحى الحياة المصرية وأدى إلى قبول المصريين لمبدأ التغيير، وكان هذا القبول فى حد ذاته عنصراً ممهداً لانتشار أية أفكار جديدة ولكن ذلك لا يعنى أن فكرة التوحيد انتقلت لمصر من بلاد غربى آسيا، لأن هذه الفكرة لم تظهر فى هذه البلاد كما ظهرت بوضوح فى مصر، ولكن مجرد قبول المصريين للتغيير هيأ المناخ الملائم لقبول هذه الفكرة بالتدريج، ولذا نجد أن التطور نحو قبول فكرة عالمية الإله والميل نحو التوحيد قد سار إلى مدى أبعد فى عصر أمنحتب الثالث، فتطالعنا أنشودة من عهد هذا الملك موجهة لإله الشمس تظهر فيها فكرة "عالمية الإله" أكثر وضوحاً على جانب وصفه بصفات الخالق الأول فتقرأ بين فقراتها:

- أنك صانع مصر لأعضائك بنفسك ومصور دون أن تصور ...
- عندما تطلع فى عرض السماء يشاهدك كل البشر ...
- أنت خالق الكل ومانحهم قوهم أنت أم نافعة للبشر ...
- هو الذى يرى ما خلق والسيد الأحد الذى يرى من يمشون على الأرض أنه يضئ فى السماء ... يخلق الفصول والشهور ... فكل البلاد فى فرح عند بزوغه كل يوم ... لكى تسبح له.

وفكرة العالمية تتجلى فى هذه الأنشودة بوجه خاص فى العبارات التى تصف امتداد سلطان إله الشمس على كل الأراضى والشعوب [٥٢].

وهناك مغزى هام لهذه الأنشودة أيضا هى أنها تخص أخوين كانا يشغلان وظيفتين فى معبد آمون نفسه، وقد بدأت الأنشودة باسم الإله "آمون"، ثم انصبت كلها على إله الشمس وتلاعب كاتبها بالألفاظ، فوصف إله الشمس بأنه الخالق المستتر للبشر [٥٣]، واستخدم اسم "آمون" للتعبير عن كلمة "المستتر" (ومن المعروف أن كلمة "آمون" نفسها تعنى فى اللغة المصرية القديمة "خفى" أو "مستتر")، ولعل هذا المثال يوضح من ناحية إلى أى حد كان آمون يحتوى كل فكر جديد، كما يوضح من ناحية أخرى عملية الإدماج بين الآلهة الكبرى نفسها وكيف كانت الأفكار شبه التوحيدية تتسرب بين أصحاب الفكر فى حذى بسبب سيطرة كهنة آمون الذين، رغم ما قاموا به من الربط بين إلههم وبين إله الشمس، إلا أنهم حرصوا على سيطرة إلههم على آلهة مصر كلها حتى يظلوا قابضين على زمام السيطرة والثراء والسلطان فى أيديهم فظلت تلك الأفكار بطيئة التسرب محدودة الانتشار حتى وقت الانقلاب الفجائى الذى دفع بحركة التوحيد قُدما نحو الإمام وأعلن الوحدانية سافرة دون تستر أو مواربة.

أما هذا الدفع الشديد فجاء على يد الفرعون أمنحتب الرابع (أو إخناتون كما سمى نفسه فيما بعد) فقد تبنى إخناتون بنفسه هذه الأفكار التوحيدية وركزها فى إله سماه "آتون" (ولو أن هذا الاسم لم يكن من ابتكار إخناتون بل كان معروفاً لدى المصريين قبل إخناتون)، واستخدم العنف فى إعلان عقيدته، ولم يكن هذا العنف فى الواقع سببه الدوافع الدينية وحدها بل كان وراءه دوافع سياسية تتمثل فى الصراع بين إخناتون وبين كهنة آمون على السلطة والنفوذ، وقد بدأ هذا الصراع منذ عهد الفراعنة أسلاف إخناتون المباشرين، فقد كان آمون إله طيبة هو إله الإمبراطورية وتم تأسيس هذه الإمبراطورية تحت رايته، ونسب الفراعنة انتصاراتهم لفضله، فأغدقوا عليه وعلى كهنته، فازداد نفوذ هؤلاء وبدءوا ينافسون الفرعون

نفسه فى هذا النفوذ. وكان ذلك الصراع خفياً مستتراً فى عهد كل من تحتمس الرابع جد إخناتون وأمنحتب الثالث والده، وكان من مظاهر هذا الصراع إبان عهد تحتمس الرابع تشجيع هذا الفرعون على ما يبدو، حركة دينية وليدة من تلك الحركات الفكرية التى بدأت هامسة فى ظل عبادة آمون العتيدة، أخذت هذه الحركة تتجه على عبادة إله جديد إسمه "آتون" هو صورة من صور إله الشمس، صوره أتباعه على هيئة قرص مجنح تتدلى منه يدان بشريتان، وهى نفس الصورة التى مثل إخناتون بها إله "آتون" أيضاً فيما بعد (٥٤).

وعندما اعتلى أمنحتب الثالث العرش بعد تحتمس الرابع أخذ اسم آتون يزداد وضوحاً، وسمح أمنحتب الثالث بعبادته جهراً فى طيبة وتقبل إطلاق اسمه على بعض قاعات قصره، وفى الوقت نفسه عمل أمنحتب الثالث على استرضاء كهنة آمون فاعلن أنه ولى العرش بناء على بنوته لآمون، ومثل مولده الإلهى من صلب آمون على جدران معبده فى الأقصر، وهكذا سارت الأمور فى عهد هذا الفرعون، فهو لم يقف فى وجه الحركة الآتونية، وفى الوقت نفسه سار على الأسلوب الملكى التقليدى من حيث تقديم الولاء لآمون والهبات لمعابده وكهنته، ومن الواضح أن اتجاهات تحتمس الرابع وأمنحتب الثالث فى الاغضاء عن ظهور عبادة آتون أو تشجيعها، أنها لم تكن مما يهدد كهنة آمون فربما اعتبروا آتون أحد الأرباب الكثيرة التى تزخر بها العبادات المصرية، ويبدو أن أسلوب أمنحتب الثالث فى معالجة الأمور علاجاً وسطاً قد طمأنهم إلى عدم خطورة الأمر، غير أن الأمور سارت فى طريق آخر فى عهد أخناتون (٥٥).

قلنا إن أمنحتب الرابع (إخناتون) هو الذى دفع بعبادة آتون إلى الأمام دفعاً وفرض الانتقال الفجائى إلى الوحدانية، غير أنه من الأنصاف القول بأنه على أثر اعتلائه العرش مباشرة اتخذ جانب الحذر بعض الشيء فأعلن أن إلهه آتون ما هو إلا "رع حور أختى" — الذى يتجلى فى الأفق باعتباره النور الذى فى الكوكب آتون، وبهذا ربط إخناتون بين إلهه وبين الأسماء المألوفة الشائعة لإله الشمس (رع حور أختى) حتى لا يفاجئ الناس بأسماء جديدة غير شائعة بينهم (٥٦).

وعلى الرغم من هذا الاستهلال البارع فلقد أوجس كهنة آمون خيفة منه رغم أنهم منذ بدء عصر الإمبراطورية، كانوا قد نسبوا إلههم آمون لإلـــه الـــشمس فسموه "آمون – رع" كما قلنا، ورغم أن بعض الأناشـيد الـتى تحمـل طـابع الوحدانية وتمجد إله الشمس كانت تبدأ بذكر آمون كما رأينا فى أنشودة الأخوين من عهد أمنحتب الثالث، فأن كهنة آمون وجدوا فى حركة إخناتون خطراً يهـدد نفوذهم على ما يبدو فبدءوا فى منأوأته، فرد إخناتون على ذلك باتخـاذ خطوتـه الجريئة فأعلن دعوة التوحيد خالصة ونادى بإله واحد لا شريك لـه وأن لا محـل لتعدد الأرباب والربات إلى جانبه، ولم يكتف إخناتون بذلك بل محا صيغة الجمـع من كلمة إله وكانت تكتب فى الهيروغليفية بعلامة تمثل شعار الإله وبجانبها ثـلاث شرط أو تكتب بثلاث علامات فأصبحت علامة واحدة فقط رمزاً للإله الواحـد، وهنا نلاحظ اختلاف فكر إخناتون عن الأفكار التوحيدية التى سـبقته فـرغم أن أصحاب هذه الأفكار خاطبوا إلهاً سموه "السيد الأحد" ألا أن ذلك لم يكن معنـاه عدم الاعتراف بالإلهة الأخرى إلى جانبه (٥٧)، ولهذا كانت خطوة إخناتون بإلغـاء كافة الأرباب شيئاً جديداً وخطيراً لم يكن يقدر عليه الأشخاص ذى قوة قـاهرة كالفرعون نفسه لشدة تمسك المصريين بآلهتهم القديمة واعتيادهم على تعدد الآلهـة قرونا طويلة ثم لقوة كهنة آمون وشدة سطوتهم.

وهنا نلاحظ ظاهرة ربما تكون غير مألوفة فى التاريخ العام لعقيدة التوحيد فى منطقة الشرق الأدنى القديم، وهى أن هذه العقيدة أتت فى مصر على يد الحاكم القوى المتربع على قمة السلطة فى البلاد، ولم تأت على يد أحد المحكومين الضعفاء كما حدث فى الديانات السماوية. وهذه الظاهرة تؤكد ما سـبق أن أوضـحناه بوجود اتجاهين عقائديين فى مصر، احدهما هو اتجاه أصحاب الفكر المستنير والآخر هو اتجاه الطبقات الشعبية وعامة الناس، وهذه كانت تتمسك بالتقاليد القديمة التى ترتبط بالآلهة الحيوانية المتجسدة الملموسة ولم يكن مستواها الفكرى يـستطيع أن يدرك الأفكار الوحدانية المجردة، بينما كانت هذه الأفكار تنبع من أصحاب الفكر

المستنير وغيرهم ممن أخذوا حظاً وافراً من التثقيف والتعليم، وبديهى أن الفرعون كان فى مقدمة هؤلاء، ويزكى هذا الرأى أن فكرة التوحيد التى أعلنها إخناتون وغيرها من الأفكار الراقية التى ظهرت فى مصر لم تكن من وحى إلهى، بل كانت اجتهادات إنسانية لا تتهيأ إلا لمن أخذ قسطاً وافراً من التثقيف والتعليم، بينما كانت الرسالات السماوية من وحى إلهى فألهمت البسطاء من الناس بالوحدانية المطلقة المجردة حتى الأمين منهم كما حدث مع الرسول محمد عليه الصلاة والسلام(٥٨).

وكان على رأس الآلهة الذين ألغى إخناتون، عبادهم بطبيعة الحال هو الإله آمون إله الإمبراطورية، وقد أكد إخناتون ذلك بتغيير اسمه من أمنحتب (آمون – حتب ومعناها آمون راض) إخناتون (آخ – إن – آتون ومعناها النافع لآتون)، وأعلن إخناتون أن طبيعة إلهه مغايرة تماماً لطبيعة آمون، فقد كان آمون إلها خفياً (كما يدل على ذلك اسمه)، ولهذا كان يعبد فى هياكل مظلمة داخل معابده، أما آتون فهو ظاهر واضح يتجلى للجميع ويشهد الناس آياته دون حجاب ولهم أن يعبدوه فى أى مكان يسقط فيه شعاع للاله على الأرض، وتحقيقاً لهذه الفكرة شيد إخناتون لإلهه معابد مكشوفة فى عاصمته الجديدة "أخت – آتون" (معناها افق آتون وهى تل العمارنة الحالية) التى انتقل إليها تاركاً طيبة معقل آمون.

ومن بين الآلهة المستترة الذين ألغى إخناتون عبادهم أيضاً الإله أوزير، وقد كان لإلغاء عبادة هذا الإله تأثير بعيد المدى فى العقائد المصرية عامة والعقائد الشعبية خاصة، نظراً لما لأوزير من مكانة فى نفوس الناس كإله شعبى وكإله للعالم الآخر يرتبط بالبعث والخلود غاية كل مصرى ومنتهى أماله، وقد نهى إخناتون فنانيه عن أن يرمزوا إلى إلهه بشكل حيوان أو برأس حيوان وجسم إنسان، وكان ذلك تطوراً جذرياً بل خطورة جريئة فى تاريخ العقائد فى مصر، فقد رأينا أن الأشكال الحيوانية كانت شديدة الارتباط بعقائد العامة فى مصر ولم يستطع أصحاب الفكر أن يخلصوا منها طوال العصور الماضية فلجأوا إلى التبريرات التى

تلائم بينها وبين عبادة الإله الأكبر كما ذكرنا، بل إن الإله آمون نفسه رغم ارتفاعه إلى مستوى إله الإمبراطورية واتحاده بإله الشمس (آمون — رع) لم يتخلص من الرمز اليونانى الذى يتجسد فيه الإله على شكل كبش، ومن هنا كان موقف إخناتون إلغاء عبادة جميع هذه الأرباب بل نبذ فكرة التجسد الحيوانى أساساً، ضربة قاضية أصابت العقائد الشعبية فى مصر وكان لها رد فعل عنيف فيما بعد (٥٩).

والواقع أن إخناتون لم يكتف بالتجسد الحيوانى أو نصف الحيوانى فى إلهه بل سار إلى أبعد من ذلك فنجد جسده فى شكل إنسان، وبذلك لم يسبق إخناتون عصره فقط بل سبق فكره العصر الإغريقى الذى جاء بعده بحوالى ألف سنة، إذ المعروف أن الألهه الإغريقية كانت تمثل على هيئات إنسانية، ولم يدرك الإغريق رغم رقيهم الفكرى العظيم ما أدركه إخناتون المصرى الذى نشأ فى بيئة تسودها العبادات الحيوانية أو على الأقل الرموز الحيوانية للمعبودات والعبادات الحيوانية بدون شك هى أكثر الديانات الوثنية المادية بدائية. ولكن ذلك فى حد ذاته يدل على أن السمو الفكرى والروحانية التى عبرت عنها أفكار إخناتون، هى صفات أصلية فى مصر عميقة الجذور فى التربية المصرية رغم ما يبدو عليها ظاهرياً من علامات تغاير حقيقتها بل تناقضها تماماً (٦٠).

اتجه إخناتون نحو التجريد وهو أعلى مراحل الفكر الدينى التوحيدى، فكان ذلك إرهاصاً بما جاءت به الديانات السماوية فيما بعد. ولا ينقص من هذا التجريد كثيراً تمثيل "آتون" على هيئة قرص الشمس تخرج منه أيدى مبسوطة رمزاً إلى النعم الإلهية التى يسبقها الإله على عبادة من البشر، إذ كثيراً ما مثل الفنانون فى عصر النهضة الأوروبية يد الرب وهى تمتد إلى البشر من بين السحاب (٦١).

بهذا توفرت لحركة إخناتون التوحيدية الأركان الرئيسية الأربعة فى عقيدة التوحيد وهى:

١ – الوحدانية وإبطال عبادة جميع الأرباب فليس هناك غير رب واحد هو آمون.

٢ – التجريد وذلك بنبذ فكرة تجسد الإله فى شكل حيوان أو شكل إنسان.

٣- الانكشاف والظهور أمام البشر وذلك بإسقاط الحجاب والأستار بين الإله الواحد وبين عبادة فهو ظاهر واضح أمامهم.

٤- العالمية فهو ليس إله مصر فقد فقط بل إله العالم المعروف فى ذلك الوقت ويمكن لأى إنسان أن يتعبد إليه ويناجيه حيثما يسقط للإله شعاع على الأرض.

وقد عبرت الأناشيد التى وجهها إخناتون لإلهه عن هذه الصفات جميعاً، وقد تفشت بعض هذه الأناشيد على جدران مقابر إتباعه فى أخت – آتون (تل العمارنة)، وكان إخناتون يخرج مع أسرته وحاشيته فى الصباح المبكر ليستقبل إلهه عند إشراقه ويرتل له الجميع الترانيم والأناشيد التى تمتد عظمة الإله وتردد صفاته[٦٢].

الأدب:

كان للتغير الكبير الذى حدث للغة المصرية القديمة فى أواخر الأسرة الثامنة عشرة، وتحولها من اللغة الفصحى التى كانت مفضلة فى الدولة الوسطى إلى اللغة العامية التى سجل بها أغلب ما كتب من قصص وأساطير أثره الواضح فى أدب هذه الفترة، كانت هذه اللغة الجديدة أقل دقة وجمالاً من اللغة الفصحى التى درسنا أمثلة منها فى الدولة الوسطى، إلا أنها كانت مرونة وتنوعاً وحياة، فهى تميل إلى تبسيط القواعد والإكثار من الكلمات العامية والسماح باستخدام الألفاظ الأجنبية، وأن هناك محاولات لاستخدام اللغة الفصحى فى الشعر الحماسى والغنائى. وقد ظلت نصوص الدولة الوسطى نموذجاً رفيعاً يحتذى به كبار الكتاب فى فترة الدولة الحديثة وفضل استخدامه فى الوثائق الرسمية، لا أن ما بها من أخطاء قد يدل على عدم مقدرة الكاتب على إتقان هذا الفن.

ويرجع إلى عصر الدولة الحديثة العديد من النصوص التاريخية والقصص الأدبية والأساطير ومجموعة من الأناشيد الحماسية والغنائية وسندرس معاً الآن بعض نماذج لأدب هذه الفترة[٦٣].

من القصص:

قصة أقدار الأمير الثلاثة :

«حدث ذات مرة أن ملكاً لم ينجب ابنا فتضرع إلى آلهة عصره أن ينعموا عليه بابن، فأمروا بأن يولد له ولد، وقد نام فى الليل مع زوجته فحملت ولما أتمت أشهر الحمل وضعت ولداً، وعندما اجتمعت الآلهات الحاتحورات ليقررن قدره قلن: سيقتله تمساح أو حية أو كلب، وقد سمع هذا من كان بجانب الطفل، ومن ثم نقلوه إلى الملك فحزن لذلك كثيراً غير أنه نحت فى الجبل (بيتاً) من الحجر، زوده بالخدم وسائر الأشياء الطيبة التى أحضرت من قصر الملك و لم يسمح للطفل بأن يخرج (منه).

ولما كبر الطفل صعد على سطح داره، فرأى كلب صيد يجرى وراء رجل يسير فى الطريق. فقال لخادمه: ما هذا الذى يجرى وراء الرجل السائر ى الطريق. فأجابه: هذا كلب صيد، فقال له الطفل: ليأتوا بكلب مثله، فذهب الخادم وأبلغ الأمر إلى صاحب الجلالة، فقال الملك: ليؤت له بجرو صغير حتى لا يحزن، فأحضر له هذا الجرو(٦٤).

وبعد أن مضت على ذلك الأيام كبر الطفل وأرسل لابيه يقول له: لماذا يجب أن أبقى هنا؟ لقد قدر لى أن أخضع لثلاثة أقدار، فدعنى أعمل ما أود والله يصنع ما يريد، فأعطى عربة بخيلها وكثيراً من أدوات الحرب وتابع له واتجه إلى الشاطئ الشرقى وقيل له: اذهب حيث تريد، وكان كلبه معه، فسار شمالاً حسب ما يهوى قلبه متجولاً فى الجبال يعيش على لحوم حيوانات الجبال حتى وصل إلى أمير ميتانى، و لم يكن لأمير ميتانى من الأولاد سوى ابنة أسكنها بيتاً ترتفع نافذته عن الأرض سبعين ذراعاً، وقد استدعى سائر أبناء جميع أمراء سوريا وقال لهم: أن من يستطيع أن يبلغ نافذة ابنتى فإنها ستكون زوجة له.

وبعد أن مضت على ذلك أيام كثيرة كانوا يحاولون القيام بذلك يومياً، مر بهم هذا الفتى فأدخلوه دارهم فأخذ حماماً ثم أطعموا فرسه، وصنعوا للفتى كل

طيب مستطاع ودهنوه (بالزيوت ذات الرائحة الجميلة)، وضمدوا قدميه، وأعطوا تابعه خبزاً ثم قالوا له فى حديثهم: من أين أتيت أيها الفتى الجميل؟ فأجابهم أنا ابن أحد الضباط المصريين. وقد ماتت أمى وتزوج أبى امرأة أخرى، فبدأت تكــرهنى فهربت منها، فعانقوه وغمروا جسمه كله بقبلاتهم، (ومضت أيام) وقــال الفــتى للأبناء ماذا تفعلون هنا، فقالوا له: منذ ثلاثة شهور ونحن نحاول الوصول إلى شباك بنت أمير ميتانى، فالذى يصل إليه ستكون الأميرة زوجة له، فقال لهم لو لم تــؤلمنى قدمى لذهبت معكم، عندئذ ذهبوا ليتسلقوا كعادتهم كل يوم ووقف الفتى ينظر من بعيد واتجه إليه نظر أمير ميتانى (٦٥).

وبعد أن مضت أيام على ذلك ذهب الفتى ليتسلق مــع أولاد الأمــراء، فتسلق ووصل إلى نافذة أمير ميتانى، فقتلته وعاتقته، وذهب رجل ليبلغ ذلــك إلى أبيها قائلاً: لقد وصل رجل نافذة ابنتك. فاستفسر الأمير قائلاً: ابن مــن الأمــراء هو؟ فقال له: هو ابن أحد الضباط أتى من مصر هارباً من زوجته أبيــه، فغــضب أمير ميتانى كثيراً وقال: أعطى ابنتى لهذا المصرى الهــارب؟ ليرجــع إلى (وطنــه)، فذهب الرجل وقال له: اذهب من حيث أتيت فأمسكت به ابنته الأمير وأقــسمت قائلة: بحياة رع حور آختى: فلن آكل ولن أشرب حتى أموت، فــذهب الرســول وأبلغ أباها ما قالته. فأرسل الأمير رجالا ليقتلوه وهو فى بيته فقالت لهم: بحياة رع إذ قتل فأنى سأموت أيضاً عند غروب الشم ولن أحيا ساعة واحدة بعده، فنقل هذا إلى أبيها (٦٦).

فأحضر الأمير الفتى وعانقه وغمر جسمه كله بقبلاته وقال له: قل لى من أنت ها أنت ذا الآن ولدى، فقال له: أنى أحد ضباط أرض مصر، ماتــت أمــى وتزوج أبى امرأة أخرى فبدأت تكرهنى فهربت منها. فزوجه ابنته ومنحــه بيتــا وحقولاً وماشيه وكل شيء طيب.

وبعد أن مضت على ذلك أيام قال الفتى لزوجته: لقد قدر لى أن أمــوت بتمساح أو حية أو كلب، فقالت له: اذن فلتدع من يقتل كلبك الــذى يتبعــك،

فقال لها بحياة رع لن أدع أحد يقتل كلبى الذى ربيته منذ كان جرواً فأخذت تحيط زوجها بعنايتها ولا تدعه يخرج بمفرده ابدًا".

الصفحات الباقية من القصة بالية وقد حاولت مريم لشتهيم M. Lichtheim ترجمتها على الوجه التالى:

«وفى اليوم الذى غادر فيه الفتى مصر ليتجول (تبعه) التمساح – قدره – وكان يعيش فى البحيرة الموجودة فى القرية المقيم فيها الفتى. وكان بالقرية أيضاً مارد يعيش فيها فمنع التمساح من الخروج من البحيرة وحاربه ثلاثة شهور.

وبعد أن مضت على ذلك أيام كثيرة، جلس الفتى فى أحد الأعياد فى منزله، وعندما جاء الليل رقد على سريره فنام، وقد ملأت زوجته له كأساً من النبيذ وآخر من الجعة، عندئذ جاءت (حية) من حفرة لتعض الفتى، ولكن كانت زوجته جالسة مستيقظة بجانبه (فوضعت الكأسين أمام) الحية، فشربت حتى ثملت، فرقدت الحية على ظهرها، عندئذ قطعتها أرباً أرباً ثم أيقظت زوجها ... وقالت له: لقد أعطاك إلهك أحد أقدارك فى يدك وهو سيحميك (من القدرين الآخرين) عندئذ قدم قرباناً للإله رع[٦٨].

وبعد أن مضت على ذلك أيام كثيرة، ذهب الفتى إلى العزبة للاستجمام، ولم تذهب (زوجته معه) وكان يتبعه كلبه، وعندئذ بدأ كلبه يتكلم (قائلا أنا قدرك)، فجرى الفتى أمامه حتى وصل البحيرة فنزل إليها (هربا) من الكلب. عندئذ (امسكه) التمساح ... وقال له أنا قدرك الذى يتبعك، وقد حاربت المارد ثلاثة شهور ولكنى سأتركك إذ ساعدتنى فى قتل المارد. وعند الفجر عاد (المارد)...

وإلى هنا ينتهى ما حفظ من القصة وإن كان يبدو أن النهاية كانت – والعلم لله – سعيدة وذلك بنجاة الأمير [٦٩].

قصة الأخوين :

قصة بسيطة تعالج موضوعاً حيوياً فى الحياة الإنسانية، وهو موضوع الزوجة التى تحاول الإيقاع بالأخ الأصغر لزوجها لقوته ولشبابه، وعندما رفض استجابة رغبتها، حاولت الانتقام منه والقضاء عليه.

«ويحكى أن أخوين كانا من أم واحدة وأب واحد، كان أكبرهما يسمى أنوبيس، أما الأصغر فكان يسمى باتا، وكان لأنوبيس بيت وزوجة، وكان الأخ الأصغر يعي معه كأبنه، وكان هو الذى يصنع له الملابس ويرعى ماشيته فى الحقل، وكان هو الذى يحرث الأرض، وهو الذى يحصر، وهو الذى يقوم بكل أعمال الحقل، لقد كان أخوه الصغير – فعلاً – (فلاحاً) ماهراً ليس له نظير فى كل الأرض. فقد كانت قوة الرب فيه».

أفسدت الزوجة المحبة بين الأخوين، إذ ذات يوم عندما رجع الأخ الأصغر للمترل لإحضار بعض بذور للحقل وحمل منها الكثير لاحظت الزوجة قوته "حقاً أن لك قوة كبيرة، فأنى ألاحظ قوتك كل يوم" فراودته عن نفسها فأبى" ولكن الشاب ثار وأصبح فى غضبه كالفهد من ذلك الشىء السيىء الذى قالته له، فخافت جداً" وقال لها: "أنك أصبحت أم لى وزوجك بمثابة الأب" وانصرف إلى عمله فخافت الزوجة وقررت الانتقام (٧٠).

"وعند حلول المساء توقف الأخ الأكبر عن العمل، وعاد إلى مترله فى حين سار الأخ الأصغر خلف ماشيته يحمل سائر منتجات الحقل، ثم ساق ماشيته أمامه لتنام فى حظيرتها فى القرية. وكانت زوجة أخيه خائفة مما قالته، فأخذت دهنا وشحماً وتصنعت أنها ضربت لتقول لزوجها أن أخاك الأصغر ضربنى، وعاد الزوج فى المساء كعادته كل يوم، فلما دخل بيته وجد زوجته راقدة مدعية أنها مريضة، فلم تصب الماء على يديه كعادتها، ولم تشعل المصباح لها زوجها من الذى تكلم معك؟ فأجابته... لم يكلمنى أحد سوى أخيك الأصغر، وكان ذلك حينما أتى ليأخذ البذر من هنا ووجدنى جالسة وحدى، قال لى تعالى لنقضى ساعة غرام ... ولكنى لم أوافق، وقلت له: اسمع! ألست أمك وأليس أخوك الأكبر بمثابة الأب لك؟ فخاف وضربنى حتى لا أذكر ذلك لك فإذا جعلته يعيش فأنى سأموت بسبب ذلك. انظر! عندما يعود فى البيت فى المساء (يجب أن تقتله) لأنى أمقت ذلك الشىء السيىء الذى أراد أن يأتيه البارحة".

فحنق الأخ الأكبر وثار! كالفهد وراح يشحذ سكينه وأخذها فى يـده ثم وقف الأخ الأكبر وراء باب حظيرته ليقتل أخاه الأصغر عندما يعود فى المساء إلى البيت ليدخل الماشية فى الحظيرة [٧١].

ولما غربت الشمس حمل باتا سائر منتجات الحقل كما كان يفعل كل يوم ولما قارب البيت قالت البقرة الأولى لراعيها عند دخولها الحظيرة: احذر فـأخوك الأكبر يقف أمامك وبيده سكينة لقتلك، اهرب منه، ولما سمع ما قالته البقرة الأولى دخلت البقرة الثانية وقالت الكلام نفسه. فنظر إلى أسفل باب الحظيرة فرأى قدمى أخيه الأكبر الذى كان يقف خلف الباب وبيده السكين فرمى بحمله علـى الأرض وأخذ يعدو ما استطاع العدو فجرى خلفه أخوه والسكين فى يده، فنـادى الأخ الأصغر ربه رع حور آختى قائلا: "يا الهى الطيب أنك أنت الذى تفصل بين المبطل والمحق، فسمع رع ظلامته، وجعل بينهما مستعاً من الماء مملوءاً بالتماسيح، فأصـلا بينه وبين أخيه الأكبر، وصار كل منهما على جانب لا يجدد إلى صاحبه سـبيلاً، وضرب الأخ الأكبر على يده مرتين (أسفا) لأنه لم يتمكن من ذبحه. ثم نادى الأخ الأصغر أخاه من الجانب الآخر قائلاً: "امكث هنا حتى ينبلج الصبح وستتحكم إلى الشمس مما عند شروقها، وسيسلم المبطل للمحق، لأنى لن أكون معك بعد، ولـن أعيش فى مكان أنت فيه، وسأتخذ فى وادى الأرز مقاماً (ربما لبنان الحالية).

وفى الصباح دافع الأخ الأصغر عن نفسه أمام إله الشمس ضد أخيه الذى شك فى أخلاصه له وأقسم ببراءته، ثم قال له "والآن أرجع إلى بيتك واهتم بـأمر ماشيتك بنفسك لأننى لم أبقى فى مكان تعيش فيـه، وسـأذهب إلى وادى الأرز، ولكن يجب أن تفعل من أجلى هذا: ينبغى أن تأتى وترانى عندما تعلم أن شيئاً مـا حدث لى، سأنزع قلبى وأضعه على زهرة الأرز فإذا اقتلعت شـجرة الأرز ووقـع على الأرض فعليك أن تأتى وتبحث عنى حتى إذا اضطررت إلى البحث عنه سـبع قنوات، فإذا وجدته ضعه فى آنية بها ماء زلال عندئذ سأحيا مرة ثانية وسوف أنتقم من المعتدى وينبغى أن تعرف أن شيئاً حدث لى إذا أعطيت قدراً من الجعة فأزيد أو إذا أعطيت قدراً من النبيذ فتعكر، فإذا حدث لك شىء من هذا القبيل فلا تبطىء".

"ذهب باتا إلى وادى الأرز، وعاد أخوة الأكبر إلى بيته وبيده على رأسه، وهو ملطخ بالطين (دليل الحزن) فقتل زوجته ورمى بها للكلاب وجلس حزيناً على أخيه الأصغر (٧٢).

من النصائح:

نختتم الحديث عن الأدب ببعض فقرات من نصائح الحكيم آني إلى والده. وهى نصائح كتبت – أغلب الظن – فى الأسرة الثامنة عشرة – إلا أن النص المحفوظ على بردية بولاق رقم ٤ فى المتحف المصرى يرجع للأسرة الحادية والعشرين والثانية والعشرين.

"**اتخذ لك زوجة وأنت فى شبابك** حتى تلد لك أبناً وأنت شاب، علمه ليصبح رجلاً، فما أسعد الشخص الذى يكثر أهله ويحييه الناس باحترام بسبب أولاده".

"**كن على حذر من امرأة تأتى من مكان بعيد، وليست معروفة فى بلدها،** لاتطل النظر إليها عندما تمر بك، ولا تتصل بها اتصالا جسدياً، أنها ماء عميق الغور لا يعرف الإنسان حناياة، أن المرأة التى غاب عنها زوجها تقول لك كل يوم "انى حسناء" وليس هناك من يشهدها وهى تحاول ايقاعك فى فخها، أنها جريمة يستحق صاحبها الموت عندما يعرف الناس أمرها".

:**لا تكثير من الكلام. وألزم الصمت فتسعد**، ولا تكن ممن يحبون الخوض فى الحديث عن الناس، أن شر ما يحدث فى بيت الله هو أحداث الضجة، فصل بقلب يملؤه الحب، ولا ترفع صوتك بكلماتك، ويستجيب الله سؤالك، وسيستمع إلى ما تقول ويقبل قربانك" (٧٣).

"**لا تؤذى نفسك بشرب الجعة.** أنك إذا أردت الكلام فإن ألفاظاً أخرى تخرج من فمك. وإذا سقطت وسر أحد أعضائك فلن يعد أحد يداً إليك ويصرخ أعز أصدقائك قائلا: "أحموني من هذا الرجل عندما يشرب" وإذا ما حضر إليك شخص ليبحث عنك ويوجه إليك سؤالا يجدونك ملقى على الأرض كطفل صغير".

"ضاعف الخبز الذى تعطيه لأمك وأحملها كما حملتك.لقد كنت عبئاً ثقيلاً عليها ولكنها لم تتركه لى، لقد ولدت لها بعد شهور تسعة، ولكنها ظلت مغلولة بك، وكان ثديها فى فمك مدى ثلاث سنوات كاملة وبالرغم من أن قاذوراتك شيء يتقزز منه النفس فإن قلبها لم يتقزز ولم تقل "ماذا أفعل؟" أنها أدخلتك المدرسة عندما ذهبت لتتعلم الكتابة، وظلت تذهب من أجلك كل يوم تحمل إليك الخبز من مترلها".

"لا تكثر من إصدار الأوامر إلى زوجتك فى مترلها إذا كنت تعلم أنها سيدة صالحة، لا تقل لها "أين هو؟ أحضريه" إذا كنت قد وضعته فى مكانه المعهود، راقبها بعينك فى صمت حتى ترى فضائلها وأنها لسعيدة إذا كانت يدك معها تعاونها، وكل إنسان يستطيع أن يتجنب أسباب التراع إذا تحكم فى نزعات نفسه".

ويختم آنى حديثه بقوله:

"احذر أن تمشى فى طاعة امرأة، ولا تجعلها تسرق قلبك (أى تسيطر على أرادتك)" (٧٤).

الكتب الدينية:

كتاب الموتى:

واحد من أهم الكتب الدينية التى سيطرت على الفكر الدينى فى الفترة من الأسرات ١٨-٢١. يتكون من ٢٠٠ فصل كما ذكر العالم الألمانى لبسيوس، سجلت فصول كتاب الموتى على ورق البردى وجدران مقابر الدولة الحديثة والأسرة ٢١ والتوابيت والمقاصير ولفائف المومياوات وبعض التمائم.

سجلت هذه النصوص بالخط الهيروغليفى المبسط وبالخط الهيراطيقى وكانت النصوص تزود بمناظر فى بعض الأحيان.

وقد تأثرت نصوص كتاب الموتى بما ورد فى نصوص الأهرام والتوابيت وإن أبدت اهتماماً كبيراً بنصوص محاكمة المتوفى فى العالم الآخر من خلال محكمة أوزيريس خاصة الفصل ١٢٥ والذى يتعلق بالاعتراف الإنكارى للخطايا التى ارتكبها المتوفى.

ويهدف كتاب الموتى بالدرجة الأولى إلى كيفية مساعدة المتوفى على الخروج من قبره نهاراً، والمعروف أن مركزى إعداد مكونات كتاب الموتى فى الدولة الحديثة كانا فى طيبة ومنف، والمعروف كذلك أن بعض فصول كتاب الموتى تغيرت من أسرة إلى أخرى (٧٥).

كتاب ما فى العالم الآخر (آمى دوات):

ويعرف كذلك بـ"كتاب ما هو كائن فى العالم السفلى" ويشار إلى كتب العالم السفلى فى الدولة الحديثة وأقدمها على أنها "كتاب القاعات السرية".

يتكون الكتاب من ١٢ ساعة تمثل ساعات الليل، فقد لاحظ المصرى القديم أن الشمس تشرق لمدة ١٢ ساعة وتغرب مثلها، وأنها تشرق من خلف الجبال الشرقية التى تعرف بـ"مانو"، ثم تغرب وراء الجبال الغربية التى تعرف باسم "باغو" ثم تشرق من جديد. وتستغرق رحلة الشمس خلال الليل ١٢ ساعة إلى أن تعاود الشروق من جديد فى العالم السفلى المليء بالخيرات والأنهار، ويعبر الإله الأكبر النهر فى مركب المساء التى تعرف باسم "معنجت".

ويحيط بضفتى النهر العظيم سلسلتان من الجبال، إحداهما فى الشرق والأخرى فى الغرب وينساب ماؤه متجها من الغرب إلى الشمال لنصف الوقت ثم يعود فيجى من الشمال إلى الشرق فى النصف الثانى من الليل.

والواضح كهنة الإله آمون قد لعبوا دوراً كبيراً فى إعداد هذا الكتاب، ورغم أن هذا الإله قد صور بشكل إنسان له رأس كبش، إلا انه لم يذكر صراحة على أنه آمون بل "يوف" أى "الجسد" إشارة إلى الشمس الغاربة أى التى توفت وخرجت منها الروح (٧٦).

ويعتقد الباحثون أن هذا الكتاب قد ظهر منذ عهد الملك أمنحتب الأول، وإن أرجع البعض أصوله الأولى إلى عصر الدولة الوسطى. وأقدم مثال لهذا الكتاب هو ذلك المسجل على جدران حجرة الدفن فى مقبرة تحتمس الأول فى وادى الملوك، وهو أول ملك ينقر لنفسه مقبرة فى وادى الملوك، وقد سجل هذا الكتاب

كاملاً فى مقابر الملوك تحتمس الثالث وأمنحتب الثانى وأمنحتب الثالث وجزئياً فى مقابر توت عنخ آمون وأى، كما سجلت نصوص هذا الكتاب فى مقابر ملوك الأسرة ١٩ ابتداء من عهد الملك سيتى الأول وحتى رمسيس التاسع وسجل جزئياً فى عهد الملك رمسيس الثالث وابتداء من الأسرة ٢١ أصبح يسجل على جدران مقابر الأفراد فقط وكذلك على التوابيت والبردى.

تدور نصوص هذا الكتاب حول "المنزل الخفى" الذى هو منزل أوزيريس (أو قبره) فى العالم الآخر والذى شيده له ابنه حورس لكى يكون مقره الأبدى، وقد زينت جدران هذا المنزل بمناظر تحدد مسار الشمس خلال ساعات العالم السفلى الإثنى عشرة فى محاولة من حورس لإرشاد والده أوزيريس إلى خبايا هذا العالم.

وترتبط كل ساعة من ساعات كتاب ما فى العالم السفلى باتجاه جغرافى معين، فالساعات الأولى والثانية والثالثة والرابعة مسجلة على الجدار الغربى للمنزل الخفى، والخامسة والسادسة على الجدار الجنوبى، والسابعة والثامنة على الجدار الشمالى، والساعات من التاسعة إلى الثانية عشرة مسجلة على الجدار الشرقى.

ويختلف مسار مركب الإله يوف عن التحديد الجغرافى المشار إليه، ففى الساعتين الثانية والثالثة تصل المركب شمالاً قبالة أبيدوس، وفى الساعتين الرابعة والخامسة تصل إلى ما يقابل سقارة فى العالم السفلى...الخ.

وقد تعددت الآراء حول مضمون وهدف نصوص هذا الكتاب، فهو وصف لكائنات العالم السفلى وإحاطة المتوفى بمناطق العالم الآخر وتعاليم خاصة بالحياة الأخرى، ومشاركة المتوفى فى رحلة مركب إله الشمس التى تستغرق ١٢ ساعة فى العالم السفلى، وتمثل الساعة الأولى الغسق بعد أن غابت أشعة الشمس، وترتبط الساعتين الثانية والثالثة مسكن الإله أوزيريس باعتباره إمام الموتى الذين يستقرون فى الغرب، وتعتبر الساعة الثالثة مسكن الإله أوزيروس وتعرف هذه الساعة باسم "التى تقطع الأرواح" (٧٧).

أما الساعة الرابعة فهى جحيم الإله سكر (إله الجبانة) وتسمى هذه الساعة ذات القوة العظيمة.

وتعتبر الساعة الخامسة امتداداً لجحيم الإله سكر الذى يوجد مقره داخل تل الرمال.

أما الساعة السادسة ففيها يبحر مركب الإله "يوف" نحو الشمال ...نحو جدو مركز عبادة الإله أوزيريس فى الدلتا (أبو صير بنا مركز بسيون غربية).

أما الساعة السابعة فهى تلك التى تسمى "تلك التى تواجه الثعبان" "هيا" وهى مخبأ الإله أوزيريس.

أما الساعة الثامنة فتعرف باسم "سيدة الظلام" وهى الساعة التى تبدو فيها الآلهة وكأنها مومياوات تصحبها اللفائف والتوابيت، كما توجد مجموعة من المقاصير يسكنها ألهة.

أما الساعة التاسعة فتسمى "الألهة التى تحمى سيدها".

وفى الساعة العاشرة يبحر الإله العظيم إلى الجنوب حيث يصل إلى عين شمس (أون) ويدخل منطقة جبانة الجيزة التى يعتبر الإله رع سيداً لها حيث يأخذ شكل الإله "خبري" الذى سوف يتحد فى هذه الساعة مع جسد الإله "يوف".

أما الساعة الحادية عشرة فإنها تمثل الجحيم حيث العذاب الشديد وحيث يحرق اللهب الأشخاص المذنبين (٧٨).

أما الساعة الثانية عشرة والأخيرة فتمثل المنطقة فى العالم السفلى حيث يولد الإله ويخرج من المياه الأزلية "نون" ويتحد مع بطن الإلهة "نون" إلة السماء.

وتمثل هذه الساعة الشفق قبل شروق الشمس حيث يبدأ إله الشمس فى الصباح الباكر "خبرى" فى الظهور (٧٩).

كتاب البوابات:

أحد كتب العالم السفلى ويكاد يكون نسخه من كتاب "ما فى العالم الآخر"، ظهر فى معظم مقابر الدولة الحديثة جنباً إلى جنب مع كتاب ما فى العالم الآخر كما ظهر فى مقبرة واحدة بالنسبة للأفراد.

يتميز هذا الكتاب عن كتاب "ما فى العالم الآخر" بأنه يتضمن محكمة أوزيرس، وفى نهاية كل ساعة من الساعات الإثنى عشر كانت توجد بوابة يحرسها ثعبان.

وفى قاعة محكمة أوزيريس حيث تجرى عملية المحاكمة للمتوفى نجد ٤٢ قاضياً والتاسوع وحورس وجحوتى (٨٠).

وبعد المحاكمة يتجه الأبرار إلى حقول "يارو"، أما المذنبون فإن مصيرهم الفناء حيث يبتلع الكائن الخرافى "عمعم" قلوبهم، ويتلو المتوفى أمام الإله أوزيريس الاعترافات الإنكارية (الفصل ١٢٥ من كتاب الموتى) والتى من بينها:

لم أظلم أى إنسان.

لم أعامل الحيوان معاملة سيئة.

لم أنقص من الموازين.

لم أوقف مياه الفيضان.

لم أتقاعس فى تقديم الهبات للمعابد.

لم أسرق.

لم أقتل ...الخ (٨١).

كتاب الكهوف:

أطلق هذه التسمية على هذه النصوص العالم الفرنسى ليفقر، كما أسماه كذلك "كتاب الجحيم".

تنقسم نصوص هذا الكتاب إلى قسمين، يحتوى كل قسم ثلاثة أجزاء ويضم كل جزء ثلاثة صفوف.

حل إله الشمس فى هذا الكتاب محل مركب الشمس التى كانت تظهر فى آخر الصورة، وقد صور الملعونون فى الصف السفلى، على حين ظهر المباركون كثيراً ومعهم قرص الشمس، ويضم هذا الكتاب كثيرا من الأناشيد الموجهة من إله

الشمس لسكان العالم الآخر. ويركز هذا الكتاب على ألهة الأرض (جب – تاتنن – أكر). ولعل أكمل تسجيل له ذلك الذى نراه فى مقبرة رمسيس السادس[٨٢].

كتاب الأرض:

هو أحد كتب العالم السفلى وتعالج نصوصه ومناظره موضـــوع "إعـــادة ولادة الشمس" ولهذا الكتاب صلة بكتاب الكهوف وقد سجل هذا الكتاب علـــى جدران مقبرة رمسيس السادس وغيره من الملوك.

ثم هناك كتب أخرى مثل كتاب الطريقين وكتاب التحـــول فى الأبديـــة وكتاب النهار والليل وكتب السماء وغيرها [٨٣].

هوامش الفصل الخامس

١- سيد توفيق، معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٣٤٨.

٢- سيد توفيق، المرجع السابق، ص ٣٤٩.

٣- جميس هنرى برسته، فعل الضمير، مترجم، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٢٧٠.

٤- جون ولسن، الحضارة المصرية، مترجم، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٢٥٦.

٥- دريتون - قاندية، مصر، مترجم، القاهرة، ١٩٥٠، ص ١٨٩.

٦- سيد توفيق، المرجع السابق، ص ٣٥٢.

٧- جميس هنرى برسند، المرجع السابق ، ص ٢٧٥.

٨- جون ولسن، المرجع السابق، ص ٢٦١.

٩- جميس هنرى برستد، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى، ترجمة حسن كمال، القاهرة، ١٩٢٩، ص ١٣٤.

١٠- جمال حمدان، شخصية مصر، دراسة فى عبقرية الملكات، القاهرة، ١٩٧٠، ص ١٩٧.

١١- أحمد بدوى، فى مركب الشمس، الجزء الثانى، القاهرة، ١٩٥٠، ص ١١٨.

١٢- عبد الحميد زيدان، مصر الخالدة، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٢١٥.

١٣- جمال حمدان، المرجع السابق، ص ٢٠٢.

١٤- عبد المنعم عبد الحليم، حضارة مصر الفرعونية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ٢٠٠٠، ص ٩٠.

١٥- عبد المنعم عبد الحليم المرجع السابق، ص ٩٠.

١٦- شفيق شحاته، تاريخ القانون الخاص فى مصر، الجزء الأول، القانون المصرى القديم، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٥٣، ص ٢٠٦.

١٧- ابراهيم رزقانة وآخرون، حضارة مصر والشرق القديم، القاهرة، ص ٢٠١.

١٨- عبد المنعم عبد الحليم، المرجع السابق، ص ٩٥.

١٩- شفيق شحاته، المرجع السابق، ص ٢١٠.

٢٠- جمال حمدان، المرجع السابق، ص ٢٠٥.

٢١- جيمس هنرىن برستدن المرجع السابق، ص ٢٦٢.

٢٢- جون ولسن، المرجع السابق، ص ٢٧٠.

٢٣- أحمد بدوى، المرجع السابق، ص ١٢١.

٢٤- ابراهيم رزقانة وآخرون، المرجع السابق، ص ٩٩.

٢٥- عبد المنعم عبد الحليم، المرجع السابق، ص ٩٧.

٢٦- دريتون — فاندية، المرجع السابق، ص ١٨٩.

٢٧- أحمد بدوى، المرجع السابق، ص ١٣٠.

٢٨- عبد المنعم عبد الحليم، المرجع السابق، ص ٩٨.

٢٩- باهور لبيب وصوفى حسن أو طالب، تشريع حور محب، القاهرة، ١٩٧٢، ص ١٥٦.

٣٠- شفيق شحاته، المرجع السابق، ص ٢١٤.

٣١- عبد المنعم عبد الحليم، المرجع السابق، ص ١٠١.

٣٢- باهور لبيب وصوفى حسن أبو طالب، المرجع السابق، ص ١٦٠.

٣٣- نفس المرجع السابق، ص ١٦٢.

٣٤- نجيب ميخائيل، مصر، الطبعة السادسة، القاهرة، ١٩٦٦، ص ١٢٥.

35- Gardiner, A., Egypt of The Pharaohs, Oxgord, 1976. p. 227.

36- Gardiner, A., Ancient Egyptian Onomastica, Vols. 1 Oxford, 1947, p. 178.

٣٧- عبد المنعم عبد الحليم، المرجع السابق، ص ١٠٢.

٣٨- باهور لبيب وصوفى حسن أبو طالب، والمرجع السابق، ص ١٦٢.

٣٩- شفيق شحاته، المرجع السابق، ص ٢١٨.

٤٠- نفس المرجع السابق، ص ٢٢٥.

٤١- دريتون — فاندية، المرجع السابق، ص ١٩٠.

٤٢- عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ١٥٢.

٤٣- أحمد بدوى، المرجع السابق، ص ١٣٨.

٤٤- نفس المرجع السابق، ص ١٤٠.

٤٥- جون ولسن، المرجع السابق، ص ٣٠٤.

٤٦- جون ولسن، نفس المرجع السابق، ص ٣٠١.

٤٧- جيمس هنرى برستد، تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ترجمة زكى سوس، القاهرة، ١٩٦١، ص ٢١٥.

٤٨- جيمس هنرى برستد، المرجع السابق، ص ٢١٨.

٤٩- أدولف ارمان، ديانة مصر القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنــور شــكرى، القاهرة، ١٩٥٠،ص ١٢٠.

٥٠- أدولف ارمان، المرجع السابق، ص ١٢٥.

٥١- ادولف ارمان وهرمان رتكه، مصر والحياة الصمرية فى العصور القديمة، ترجمــة عبــد المنعم أبو بكر ومحرم كمال، القاهرة، ١٩٥٠، ص ١٣٢.

٥٢- عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص٩٨.

٥٣- دريو تون وجاك فانديهن مصر، ترجمة عباس بيومى، القاهرة، ٨٢.

54- Cerney, J., Ancient Egyption Religion, London, 1952, p. 76.
55- Wolf, W., Das Alte Aegypten, Mtinchen, 1971, p. 88.
56- Gordiner, A., Op. Cit., p. 103.
57- Cerney, J., Op. Cit., p. 79.
58- Ibid., p. 82.
59- Ibid., p. 85.
60- Wolf. W., Op. Cit., p. 90.
61- Ibid., p. 99.

٦٢- أدولف ارمان، المرجع السابق، ص ١٢٢.

٦٣- أدولف ارمان وهرمان رنكة، المرجع السابق، ص ٤١٩.

٦٤- نفس المرجع السابق،ص ص٤٢١.

٦٥- سليم حسن، الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة، ج١، القاهرة، ١٩٤٥، ص ٨٩.

٦٦- بترى، ماتيوفلندرز، الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة، ترجمة حسن محمــد جــوهر، القاهرة، ١٩٥٧، ص ١٥١.

67- Lichtheim, M., Ancient Egyptian Literatare, II, 1970, p. 200.
68- Lichtheim, M., Op., p. 202.
69- Ibid., p. 204.
70- Ibid., p. 205.

٧١- سليم حسن، المرجع السابق، ص ١٥٣.

٧٢- جون ولسون، المرجع السابق، ص ١٧٠.

٧٣- جمال حمدان، المرجع السابق، ص ٩٩.

٧٤- أحمد فخرى، فى تاريخ الحضارة المصرية، العصر الفرعونى، ص ٤٤٢.

٧٥- عبد الحليم نور الدين، آثار وحضارة مصر القديمة، الجزء الأول، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٢١٢.

٧٦- عبد الحليم نور الدين، اللغة المصرية القديمة، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ١٨٠.

٧٧- أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٤٥٠.

٧٨- جون ولسون، المرجع السابق، ص ٢٣٠.

٧٩- عبد الحليم نور الدين، أثار وحضارة مصر القديمة، ص ٢١٤.

٨٠- نفس المرجع السابق، ص ٢١٥.

٨١- نفس المرجع السابق، ص ٢١٨.

٨٢- نفس المرجع السابق، ص ٢١٩.

٨٣- نفس المرجع السابق، ص ٢١٩.

قائمة المراجع

أولاً: المراجع العربية:

١. إبراهيم رزقانة وآخرون، حضارة مصر والشرق القديم، القاهرة.

٢. أحمد بدوى، فى مركب الشمس، الجزء الثانى، القاهرة، ١٩٥٠.

٣. أحمد سعيد، "نهاية الأسرة التاسعة عشرة من (١٢٠٤ – ١١٨٤ ق.م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة ١٩٨٩.

٤. أحمد فخرى مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٨١.

٥. أدولف ارمان وهرمان رتكه، مصر والحياة الصمرية فى العصور القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال، القاهرة، ١٩٥٠.

٦. أدولف ارمان، ديانة مصر القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكرى، القاهرة، ١٩٥٠.

٧. بارى كمب، تشريح الحضارة، ترجمة أحمد محمود، القاهرة، ٢٠٠٠.

٨. باهور لبيب وصوفى حسن أو طالب، تشريع حور محب، القاهرة، ١٩٧٢.

٩. بترى، ماتيوفلندرز، الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة، ترجمة حسن محمد جوهر، القاهرة، ١٩٥٧.

١٠. تقارير حفائر المجلس الأعلى للآثار بمنطقة زاوية أم الرخم عن مواسم ٢٠٠٢ وحتى ٢٠٠٥.

١١. جمال حمدان، شخصية مصر، دراسة فى عبقرية الملكات، القاهرة، ١٩٧٠.

١٢. جيمس هنرى برستد، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى، ترجمة حسن كمال، القاهرة، ١٩٢٩.

١٣. جيمس هنرى برستد، فعل الضمير، مترجم، القاهرة، ١٩٥٦.

١٤. جيمس هنرى برستد، تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ترجمة زكى سوس، القاهرة، ١٩٦١.

١٥. جون ولسن، الحضارة المصرية، مترجم، القاهرة، ١٩٦٦.

١٦. دريتون — ڤاندية، مصر، مترجم، القاهرة، ١٩٥٠.
١٧. رمضان السيد "اللوحة ذات النصين ليست لوحة إسرائيل"، مجلة كلية الآداب، جامعة المنيا "العدد الثامن عشر" الجزء الأول، أكتوبر ١٩٩٥.
١٨. رمضان السيد، تاريخ مصر القديمة الجزء الثانى، القاهرة ١٩٩٣.
١٩. رمضان السيد، تاريخ مصر القديمة، الجزء الرابع، القاهرة ٢٠٠٨.
٢٠. زكريا رجب عبد المجيد " الآتونية فى النوبة العليا" ، اتحاد الأثاريين العرب، القاهرة ٢٠٠٢.
٢١. زكريا رجب عبد المجيد، النفوذ الدينى لمصر فى بلاد النوبة عصر الدولة الحديثة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ٢٠٠٢.
٢٢. زكريا رجب عبد المجيد "دراسة حضارية وأثرية لمملكة كرمة فى النوبة وعلاقتها بمصر الفرعونية فى الفترة من " ٢٥٠٠ — ١٥٠٠ ق.م" رسالة دكتوراه غير منشورة — كلية الآداب جامعة الإسكندرية ٢٠٠٦.
٢٣. زكريا رجب عبد المجيد، العمارة والفنون الكبرى فى مصر القديمة، الجزء الثانى "عصر الدولة الحديثة"، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٩.
٢٤. سليم حسن، الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة، ج١، القاهرة، ١٩٤٥.
٢٥. سيد توفيق، معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٠.
٢٦. شفيق شحاته، تاريخ القانون الخاص فى مصر، الجزء الأول، القانون المصرى القديم، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٥٣.
٢٧. عبد الحليم نور الدين، تاريخ حضارة مصر القديمة، القاهرة ٢٠٠٥.
٢٨. عبد الحليم نور الدين، أثار وحضارة مصر القديمة، الجزء الأول، القاهرة، ٢٠٠٦.
٢٩. عبد الحليم نور الدين، اللغة المصرية القديمة، القاهرة، ٢٠٠٧.

٣٠. عبد الحميد زايد، مصر الخالدة ج٢ القاهرة، ٢٠٠٢.

٣١. عبد الحميد زيدان، مصر الخالدة، القاهرة، ١٩٦٦.

٣٢. عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم "مصر والعراق"، القاهرة ١٩٧٩.

٣٣. عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق، القاهرة، طبعة ١٩٨٢.

٣٤. عبد المنعم عبد الحليم سيد، حضارة مصر القديمة، الإسكندرية ١٩٩٧.

٣٥. عبد المنعم عبد الحليم، حضارة مصر الفرعونية،دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ٢٠٠٠.

٣٦. كريستيان ليبلان – زوجات رمسيس الثاني وبناته وأبناؤه، ترجمة ماهر جويجاتي، القاهرة ٢٠٠٧.

٣٧. محمد إبراهيم بكر: تاريخ السودان القديم، القاهرة، ١٩٩٨.

٣٨. محمد محمود بيومى مهران مصر ج٣، الإسكندرية ١٩٩٤.

٣٩. نجيب ميخائيل، مصر، الطبعة السادسة، القاهرة، ١٩٦٦.

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

1- A AHakem, A new contribution to the Early Khartoum Tradition from Bauda site in. ed Krzyzaniaket. et al 1989.

2- A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs. Oxford, 1961.

3- A. J. Arkell, The vicroy of Ethipia, in J.E.A. 1902.

4- A. J. Arkell. The history of the Sudan, London, 1961.

5- Adre Wiese and Adreas Brodbeck, Tut- Ankhamun, The Golden Beyond, Basel, 2004.

6- Aldred. C., New Kingdom Art in Ancient Egypt, London, 1961.

7- Aldred. S., The Development of Ancient Egyptian Art, From 3200 to 1315 B.C., London, 1952.

8- Aldred. S., The End of the ElAmarna Period, J.G.A. 43, 1957.

9- Aldred. S., Aknaten and Nefertiti, New York 1973.

10- Aleen, P.J., "Two Altered Inscription of late Amarna Period", JARCE 25.
11- Allen. P.J., Nefrtiti and Semenkh – Ka – re G.M, 141, 1994.
12- Arnold. D., The Royal Women of Amarna, New York 1996.
13- B. Haycock, The Kingship of Cush in Sudan, Comparative Studies in Society and History, 4,1965.
14- B. Haycoch, (Napata – Meroe), SNR 49, 1968
15- B. Trigger, Nubia under the pharaohs. London 1976.
16- B. Trigger, et. Al, Ancient Egypt Social history Camnidge 1983.
17- Babbled Thibaud "les grands d'Amenophis III sur la rive occidentale de Thebes: du contexte orginal à la situation contemporaine" Memnonia 4-5, 1995.
18- Barguet (Paul) : Le Temple de'Amon. Re' à Karnak, Essai d exégèse, le caire IFAo 1962 tome XXI.
19- Bedell, C., Criminal Law in Egyptian Ramesside Priod, London, 1973.
20- Bitak, M., Avaris "The Copital of the Hyksos, Recent Excavation at "Tell ed-Daba", London, 1996.
21- Breasted, The Battle of Kadesh, Chicago, 1903.
22- Bryan. Betsy M.G., The Reign of Thutmose IV, Baltimore, 1991.
23- Bryan. Betsy M., "The statue program for The mortuary temple of Amenhotep III", s, xuirke (éditour), The temple in Ancient Egypt, 1997.
24- C.M.firth, The Archeaological Survey of Nubia Report for 1910-1911, Cairo, 1927.
25- Cabrol. Agnés, Amenhotep III la Magnifique. Paris 2000.

26- Cerney, J., Ancient Egyption Religion, London, 1952.
27- Chr. Zivi, Giza Au Deuxieme Millenaire, Bd E,10.
28- Cominos. R. A,Amenhotep IIIs, vizier at sislah East J.E.A 73, 1987.
29- D. Dixone, The origin of the kingdom of kuah – npata meroe, JEA 50, (1964).
30- D. O' Conner, The Location of Irem, in, J.E.A. 73-1987.
31- D. O' Conner, Ancient Nabia Egypt's Rival in Africa pynnsylvania, 1993.
32- Daressy. G., Un scarbee d'Amenhotep IV, ASAE 16., 1916.
33- Davies N.d.Garis, Tomb Of Rekh-mi-ré at thehes New york, 1943.
34- Davis. T, et al, The Tamb of Queen Tiyi, London, 1910
35- DDesroches. N.C., Tutankhamon. Vie et mort d'un pharaon, Paris, 1963.
36- Deseroches. C, La Mystérieuse: Hatshepsout Paris, 2002.
37- Dominic Montserrat, Akhenaten : History, Fantasy and Ancient Egypt, London.
38- Drioton. E., Vandier. J., L'Egypte, Paris, 1962.
39- E.W. Budge, Annals of Nubian Kings, London, 1912.
40- Edel. E., "Der Brief des agyptischen Wesirs Pasijara an den Hethiterköing. Hattusili und verwandte Keilschrift briefe" NAWG, 4, 1978.
41- Edgerton, William. F, The Tuthmosid Succession, Chicago 1933.
42- Edgerton – Wilson, History Records of Ramses III, Chicago, 1936.
43- Englbach. R. The so – calld coffin of Akhenaten ASAE 31, 1931.

44- Friedrich. A., Ramses III. In den Gräbern seiner shone, OBO, 72, 1986.

45- G. H. Breasted Ancient Records of Egypt, vol 2, New York, 1906.

46- G.A. Reisner, Inscribed monuments from Gedel Barkal ZAS, 66, 1931.

47- Gardiner, A., Ancient Egyptian Onomastica, Vols. 1 Oxford, 1947.

48- Gardiner,A., Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1961.

49- Gardiner, A., Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1976.

50- Gauthier. H., Le Livre des Rois d'Egypte III.

51- Giles. F.J., The Amarna Age : Western Asiu, Warminster 1997.

52- Grandet. P, Ramesses III, in Oxford Encyclopedia of Ancient Egypt, Cairo, 2001.

53- Grdseloff, un stele seythoplitaine de Roi Sethos I, Le Caire 1949.

54- Grondet. P., Rmsses III : Histoire d'anregne, Paris, 1993.

55- Hari. R., Horemhen et larine Moutwedjem et ou la fin d'une dynastie, Geneva, 1965.

56- Hari. R., "la reine d'Horemab etait. Elle la Soeur de Nefertiti, C.D.E., 51, 1976.

57- Hawass, Z., Images Silencieuses : Les Femmes dans L' Egypte Pharaonique, Paris, 2005

58- Hawass. Z., "Tutankhamon" and The Golden of the Pharoaohs Philadelphia, 2007.

59- J. Leclant, the Empire of Kush: Napata and Meroe in ed. Unesco, General History of Africa, Vol 2.

60- J. Taylor, Egypt and nubia, London, 1991.
61- James, An introduction to Ancient Egypt, London, 1986.
62-kitchen, The Third intermediate period in Egypt, warminister, 1973.
63- Kitchen, K. A., The Teuntieth Dynasty, J E A., 68, 1982.
64- Kitchen. K.A., Pharoah triumphant, the life and times of famesses II King of Egypt, Warmister, 1982.
65- Krauss. R., "Nefertite's End" MDAIk, 53, 1997.
66- Kuentz, La Bataille de Radech, Le Caire, 1928.
67- Lacovara. P.The New Kingdom Royal city (studies in Egyptology) London, 1997.
68- Lalouette,C, Thèbes ou La Naissance d'un Empire Fayard 1986.
69- Lalouette. C., L'Empire des Ramses, Fayard, 1985.
70- Lalouette. C., Mémories de Ramses le Grand, Paris, 1993.
71- Lichtheim, M., Ancient Egyptian Literatare, II, 1970.
72- Macadam. M.L.F., The temples of Kawa, vol.2, Oxford, 1949
73- Mahfouz, E., La politique des souverains du Nouvel Empire au desert oriental, Lille (These inedited 2002 Soutenue à Paris).
74- Medint. Habu, Pub I, of Oriental Instituet of Chicago, 1934.
75- Murnane W.J., "servant, Seer, Saint, Son of hapu, Amenhotep III Called Huy "Kmt 2,2 1991.
76- Murnane. W.J, "pverseer of the northern foreign Contvies: reflections on the Administration of Egypt's Empirin.Western Asia" EgyMem. 1, 1997.
77- Naville, E, The temple of Deir el Bahri Vol3 London 1908.

78- Osing. J., Der temple Sethos I, in Gurna, Die Reliefs und inschriften, I, Mainz, 1977.

79- P. Kozloff and Betsy. M Bryan, Egypts Amenhotep III Dazzling and his World sum Indiona university 1992.

80- Posener, Princes et payes d'Asie et de Nubie Bruxelles 1940.

81- Redford, D. B., Historiography of Ancient Egypt in Egyptology and social Sciences, Cairo, 1976.

82- Redford. D.B., Akhenaten : The Hertic King, Princeton 1984.

83- Reevesé. N. and Wilrinson. R., The complete tutankhamon, London, 1990.

84- Reevesé. N., The Complete Valley of the Kings, London, 1996.

85- Reevesé. N., Ancient Egypt : The discoveries A year – by – year, Chronicle – London 2000.

86- S.B Dafaalla, the origin of the napatans, Paper presented in the international conference for meroitc, studies, Berlin, 1992.

87- Save – sodebergh. T. Preliminary Report on the scondinavian Joint Expedition, Kush 11, 1963.

88- Savesöderbergh, T., Early New Kindom C-Group in ed Davies, "Egypt and Africa Nubia from prehistory to Islam , London, 1991.

89- Schulman. A.R., "Some officials of Tutankhamon and Ay" in J.A.R.C.E.4, 1956.

90- Shaw I., The Oxford History of Ancient Egypt, Oxford 2000.

91- Silverman. D.P., Ancient Egypt, London, 1997.

92- Stadelman, Sethos I, in, LÄ, V

93- Sturm. J., La guerre de Ramses II Contre les Hittutes, Bruxelles, 1996

94- T.kendall, the origin of the Napatan state, Paper presented in the 7th international conference for meroitic studies, Berlin, 1992.

95- Taylor. J. H., "ed", The Theban Necoropolis : Past, Present and Future , London, 2003.

96- Ver coutter J., The Cold of kush. Kush, vol 6, 1959.

97- Ver cutter.J L' Egypte Anciene, Paris, 1963.

98- W. y. Emry, Egypt and Nubia, London, 1965.

99- W.Y. Adams, post pharaonix nubia in the light of Archealogy, JEA 50, 1964.

100- Week. K., Atlas of the Valley of the Kings, ed Theban Mapping project, Cairo, 2000.

101- Wente. E. F., The suppression of the High Priest Amenhotep, JNES, 25, 1996.

102- Wettengel W., Mythos Tutanchamun, Nordlingen 2000.

103- Wilicinson. R.H. The Complet temples of Ancient Egypt London, 2000.

104- Winlock, The Temple of Ramesses I at Abydos

105- Winlock. Herbert. E "Excavation of Palace of Amenhotep III, BMMA 7, 1912.

106- Wolf, W., Das Alte Aegypten, Mtinchen, 1971.

107- Yoyotte V., Les pharaons, Paris, 1988

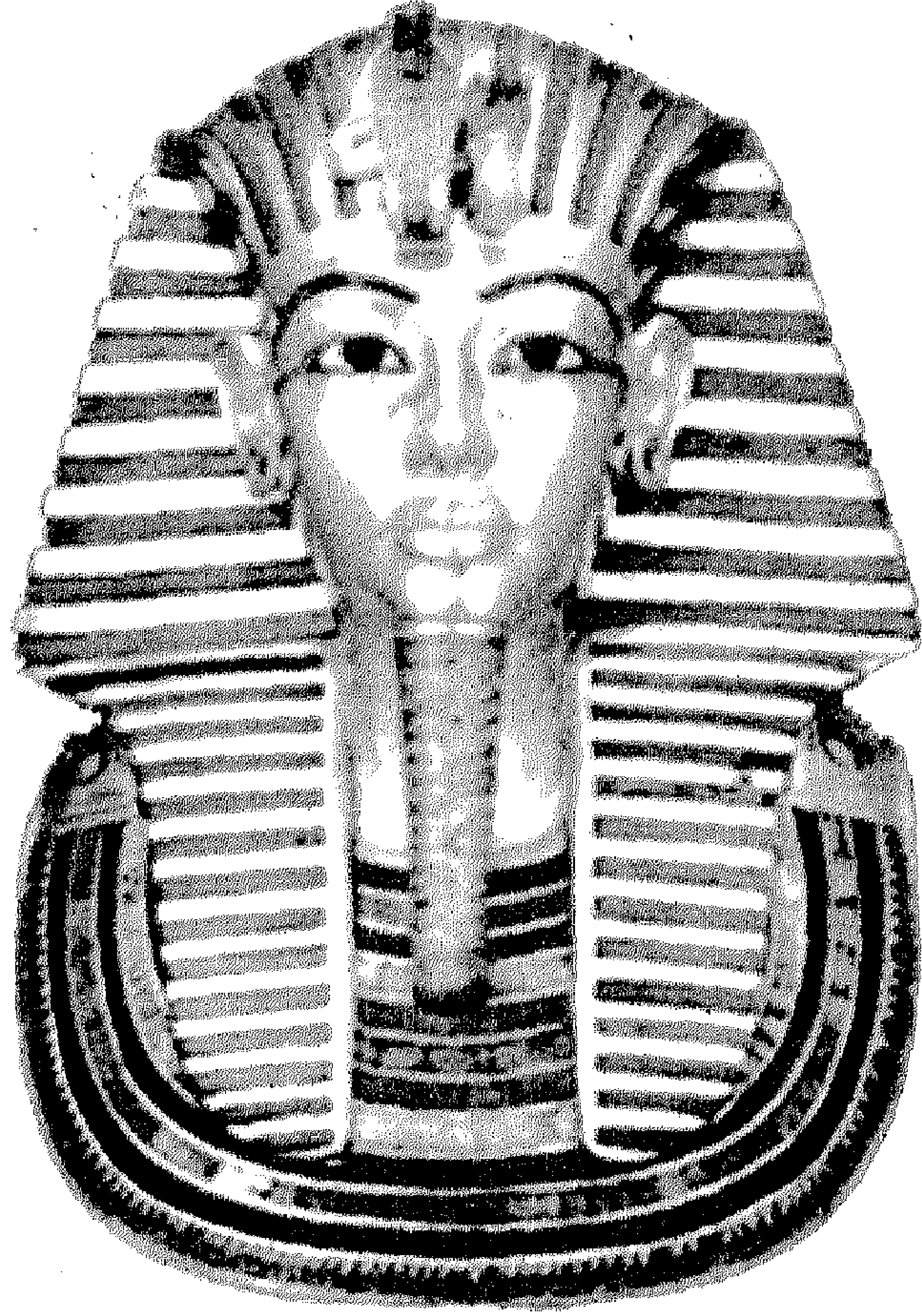
108- Ziegler, C., (ed), the Pharahs, Milan, 2002.

109- Zivie. C., Ramses I in LÄ, V

فهرس الكتاب

الموضوع رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة



القناع الذهبى للملك توت عنخ آمون - المتحف المصرى



تمثال للملكة حتشبسوت
متحف المتروبوليتان



تمثال للملك أحمس الأول - متحف اللوفر



منظر من مقبرة رخمي رع توضح أعمال البناء فى المقبرة



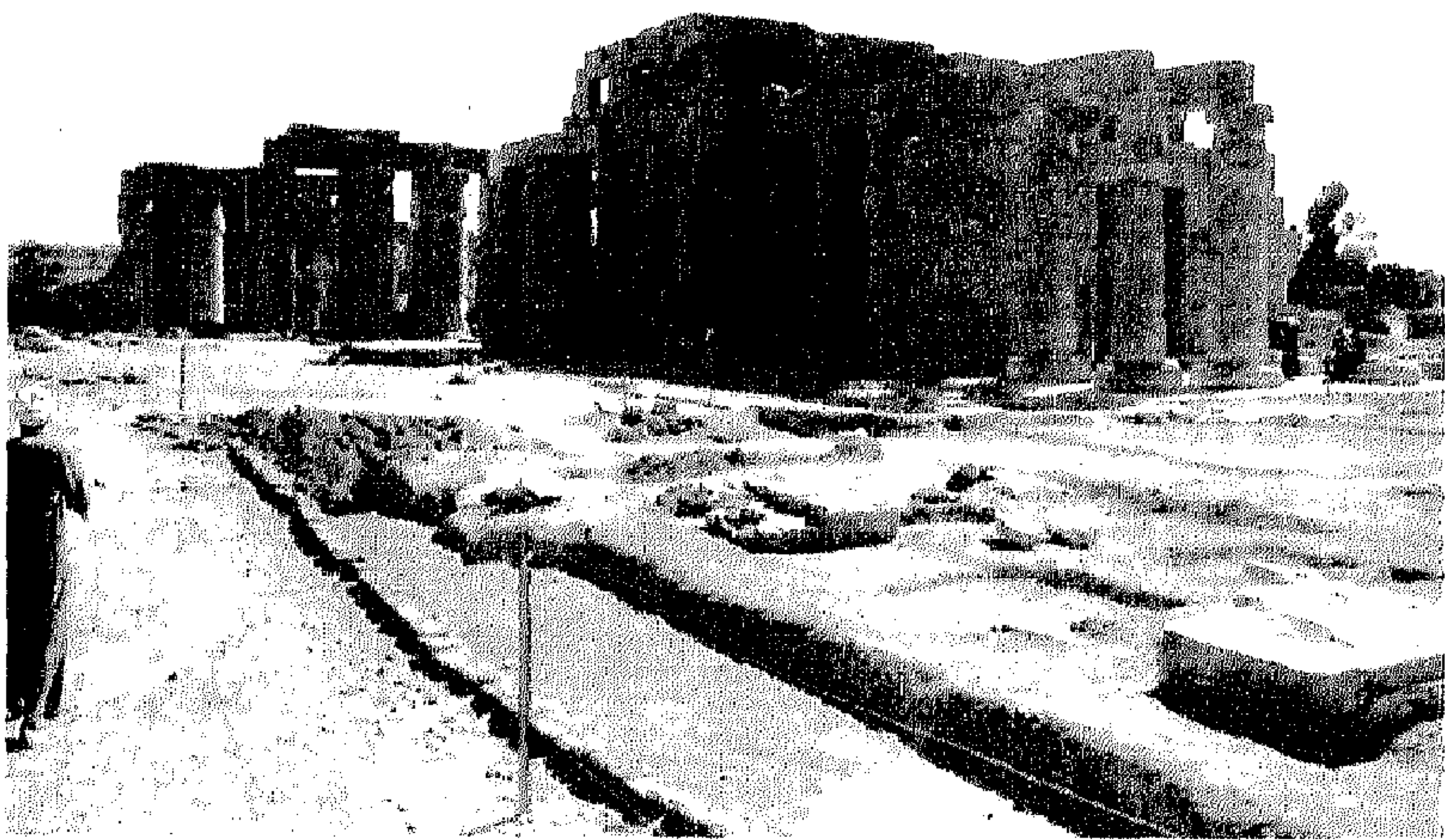
منظر من مقبرة نخت يصور بعض العازفات والراقصات



منظر من مقبرة سنفر يصوره مع زوجته



منظر يوضح الفناء الأول بمعبد مدينة هابو



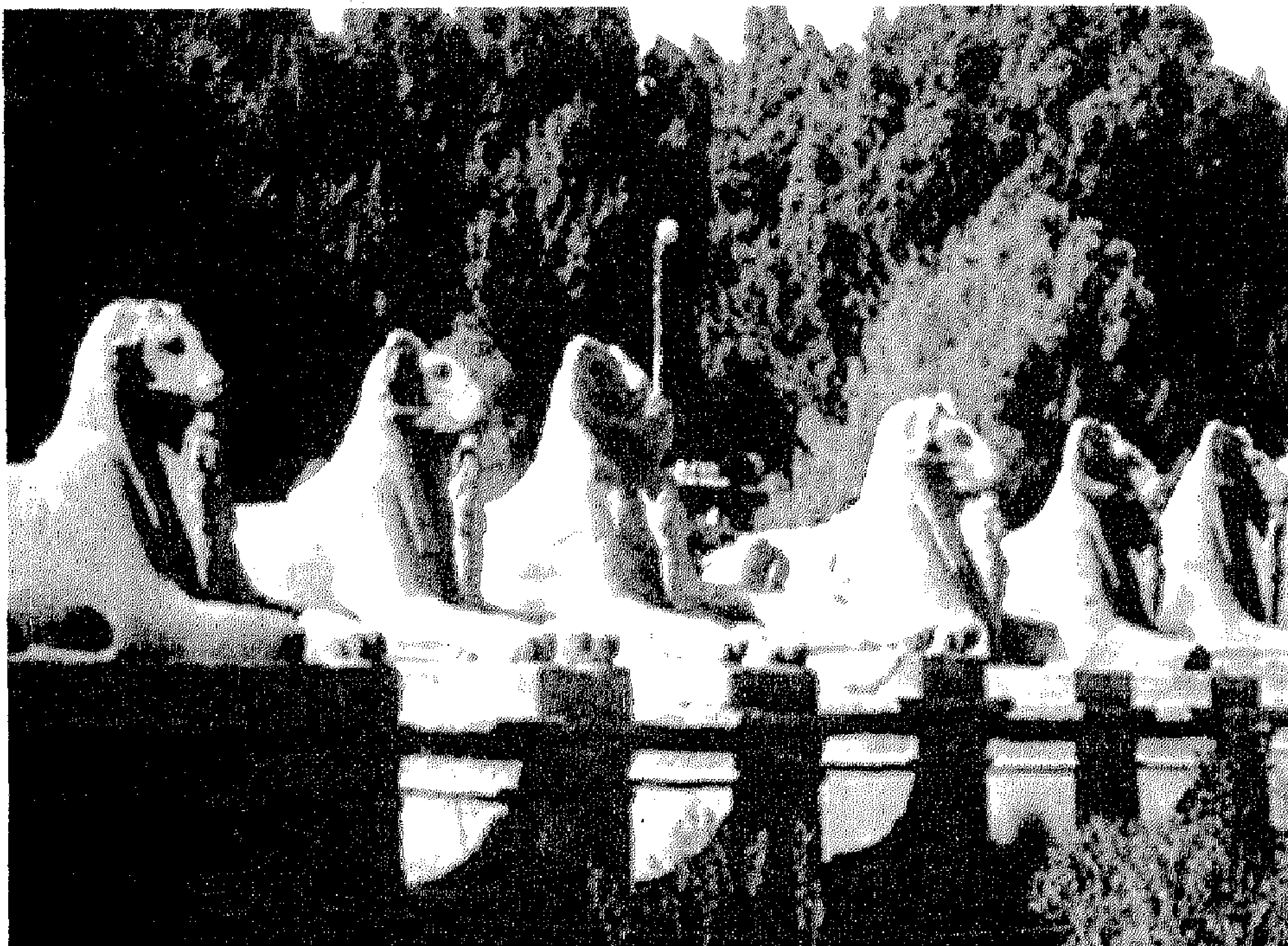
منظر يوضح معبد الرامسيوم



منظر يوضح معبد الملك سيتي الاول بالاقصر



صالة الأربعة عشر أسطون بمعبد الأقصر



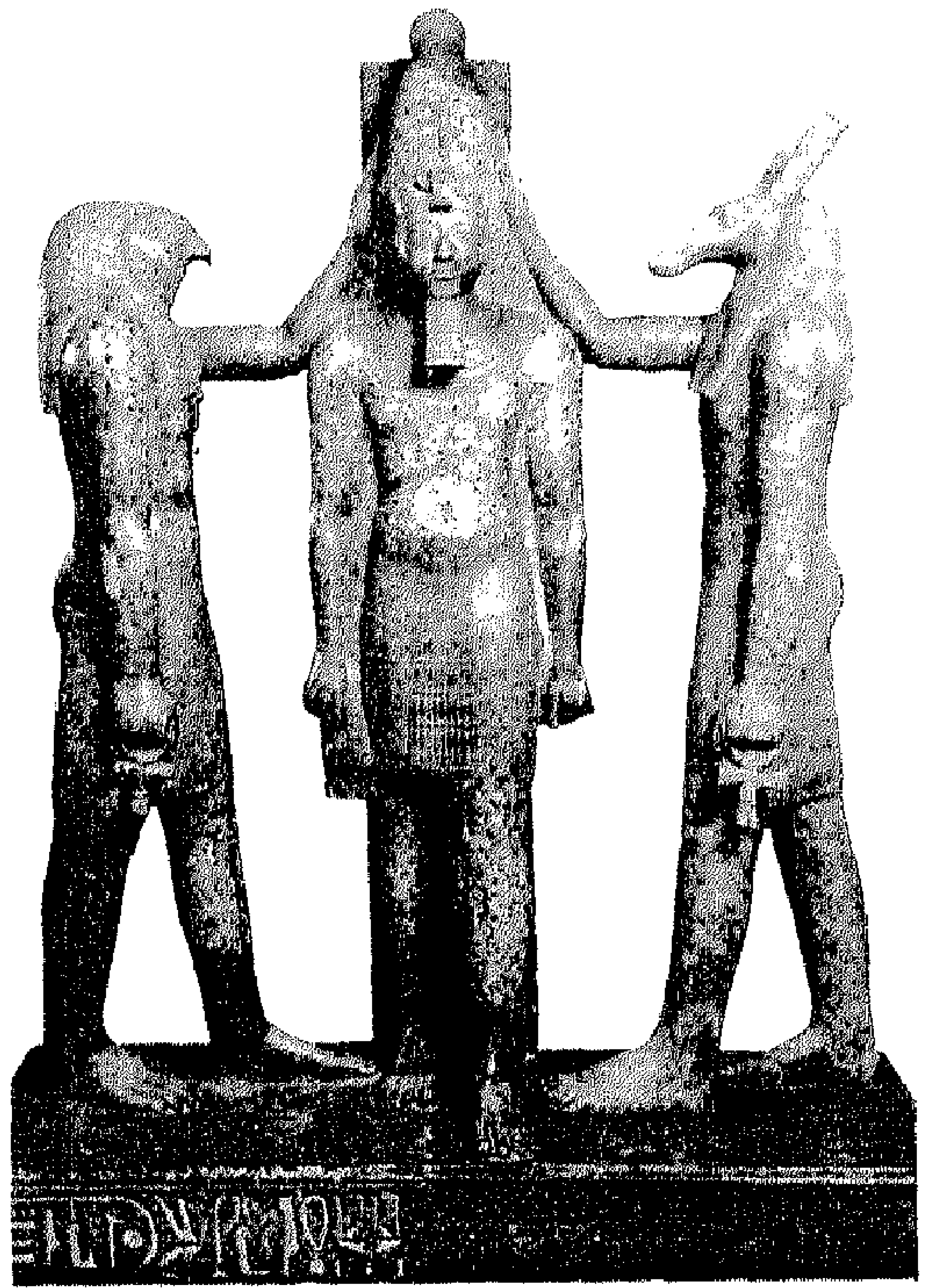
مجموعة من كباش معبد الكرنك



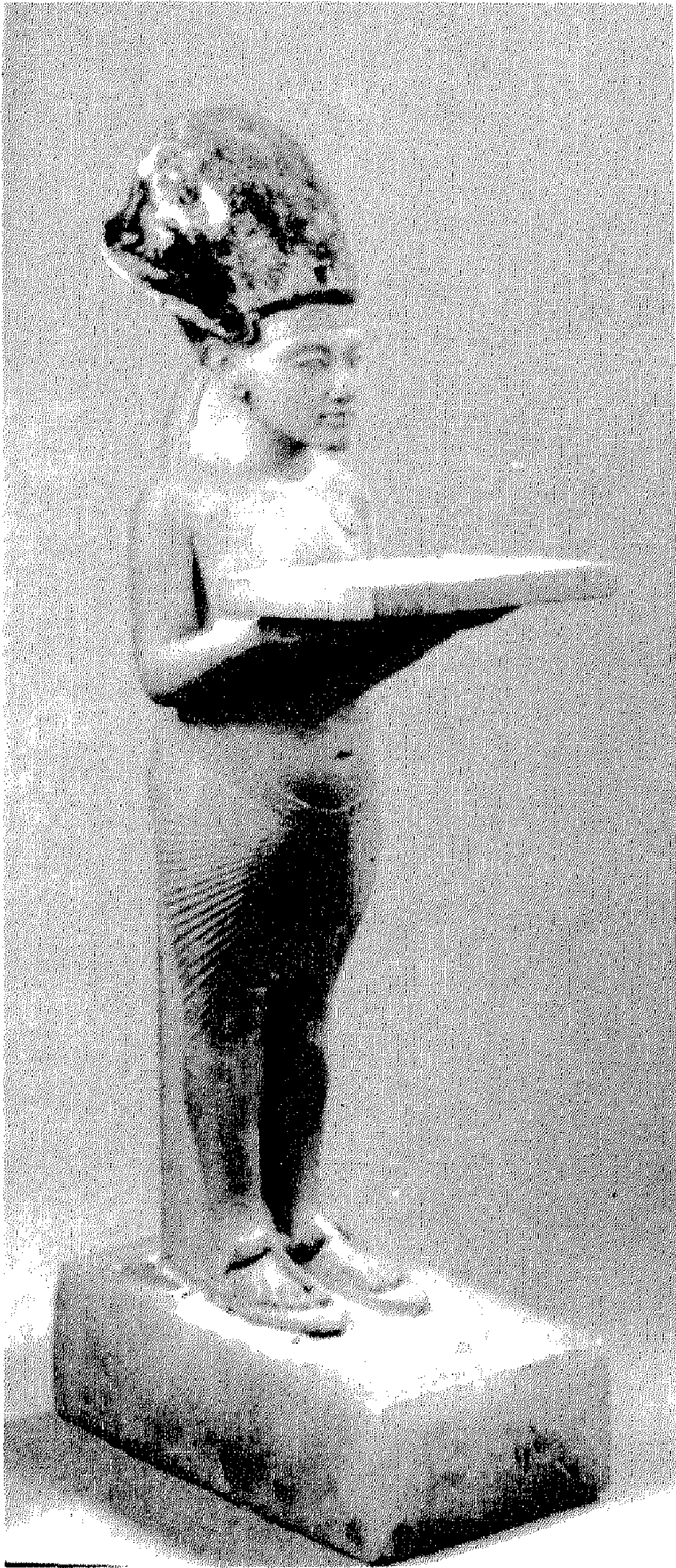
المقصورة الحمراء للملكة حتشبسوت



تمثال للملك تحوتمس الرابع وأمه
- جرانيت - المتحف المصرى



تمثال للملك رمسيس الثالث -
جرانيت أحمر يوضح تتويج رمسيس
الثالث بواسطة حورس وست - المتحف
المصرى



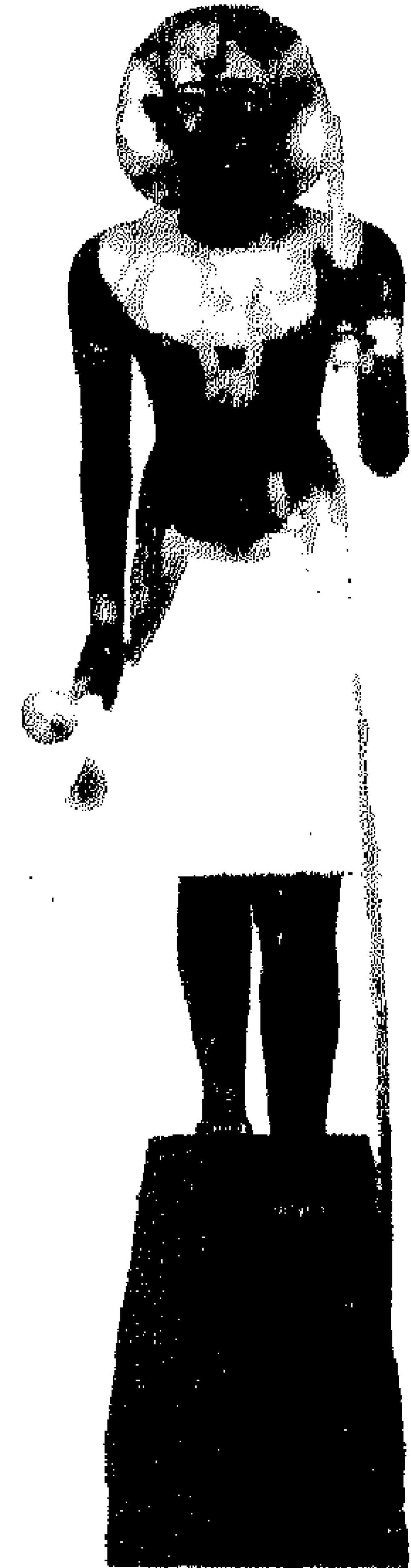
تمثال للملك أخناتون يقدم نضد
القربان - حجر جيرى - المتحف
المصرى



تمثال للملك أخناتون يقبل إبنته
- حجر جيرى - المتحف المصرى



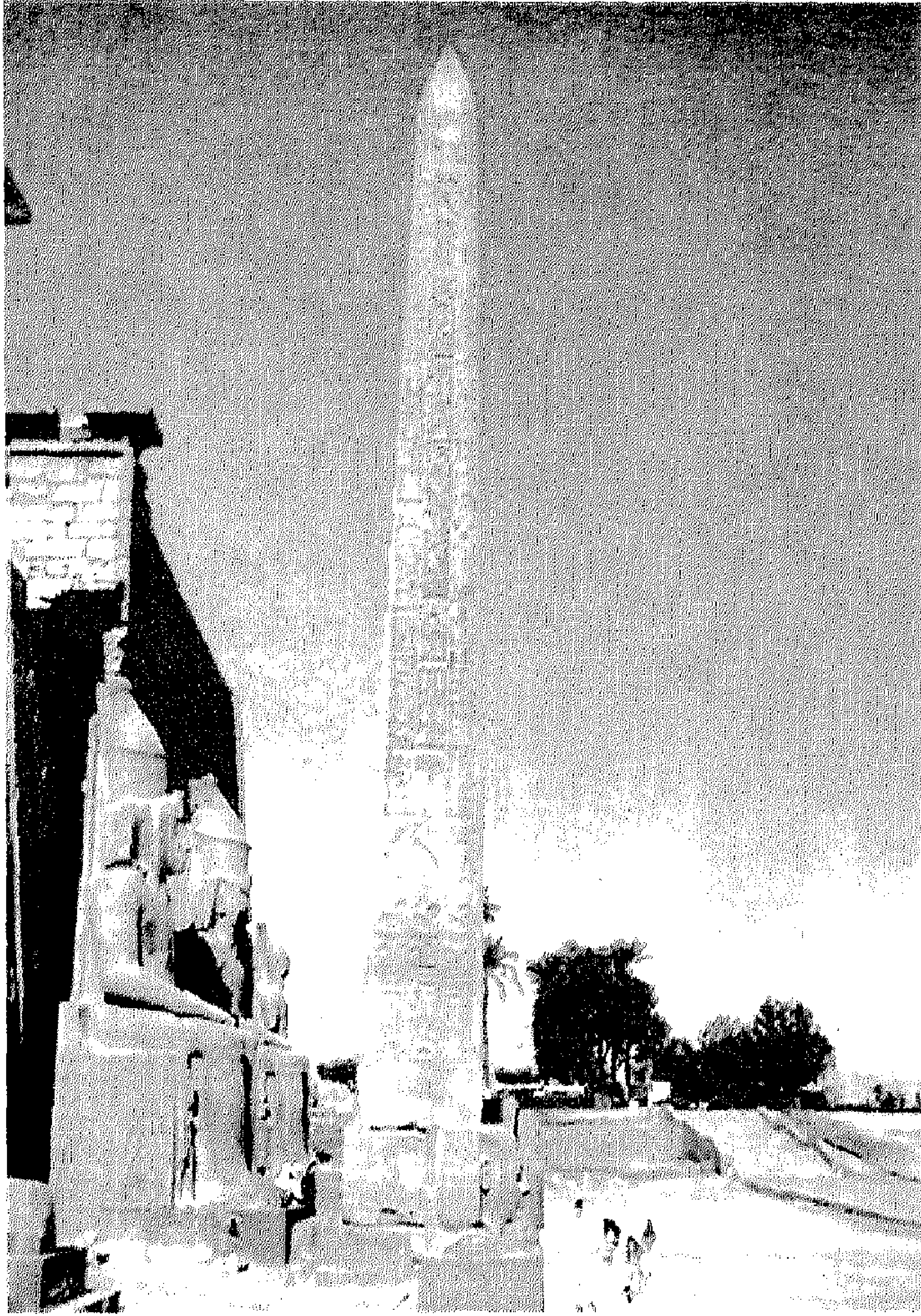
تمثال لرمسيس الثانى طفلا مع المعبود حورون
- جرانيت - المتحف المصرى



تمثال لكا توت عنخ آمون خشب
المتحف المصرى



تمثال للملك أخناتون وزوجته نفرتيتى
- حجر جيرى - متحف اللوفر



منظر يوضح المسلة والتماثيل الخاصة بالملك رمسيس الثانى أمام الصرح بمعبد الاقصر



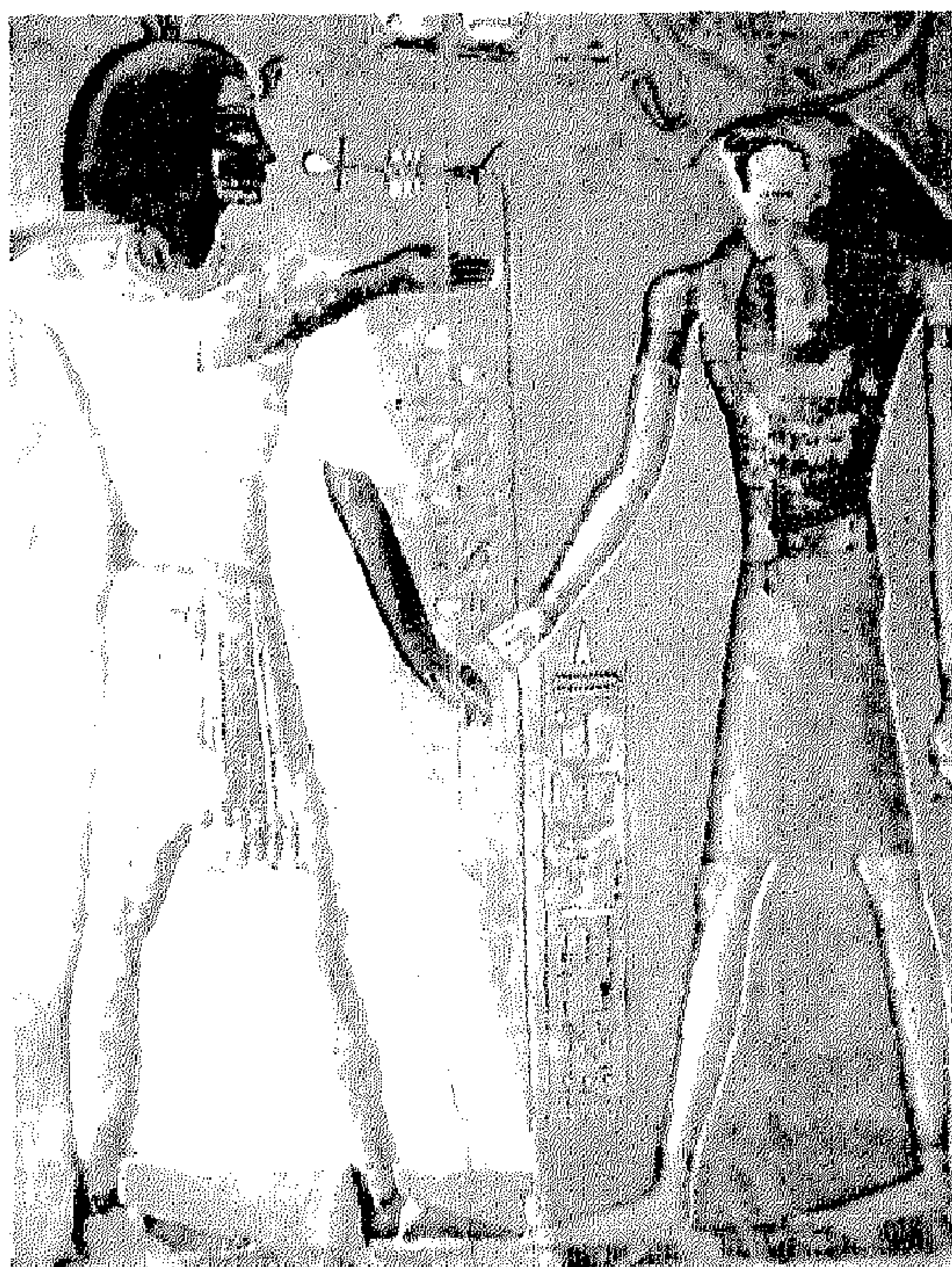
منظر للفناء الأول بمعبد الرامسيوم



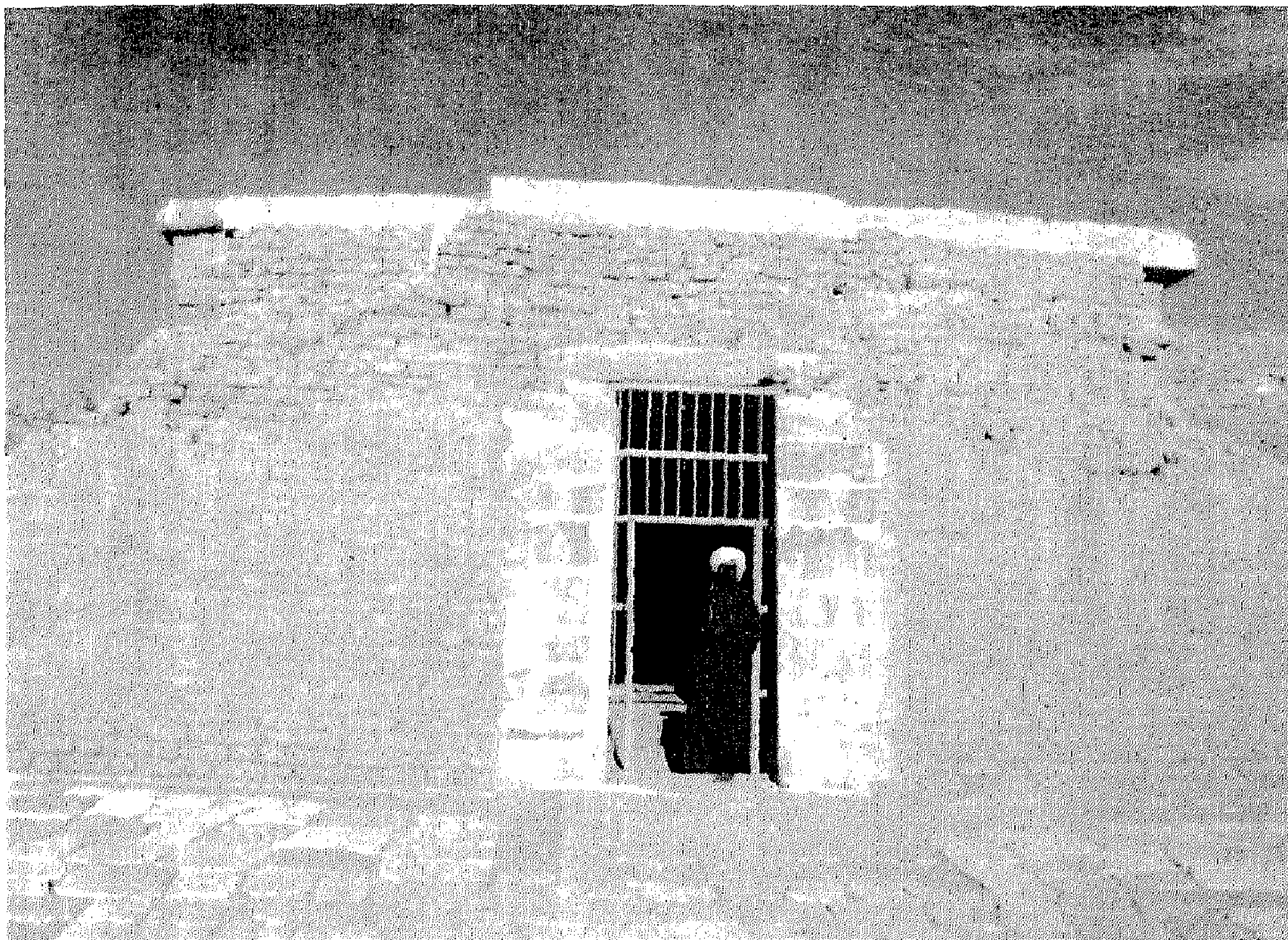
منظر يوضح بعض مقابر وادي الملوك



منظر للملك حور محب من مقبرته



منظر من مقبرة سبتاح توضح المعبود رع حور آختي يسدد علامات عنخ والواس والجد تجاه أنف سبتاح



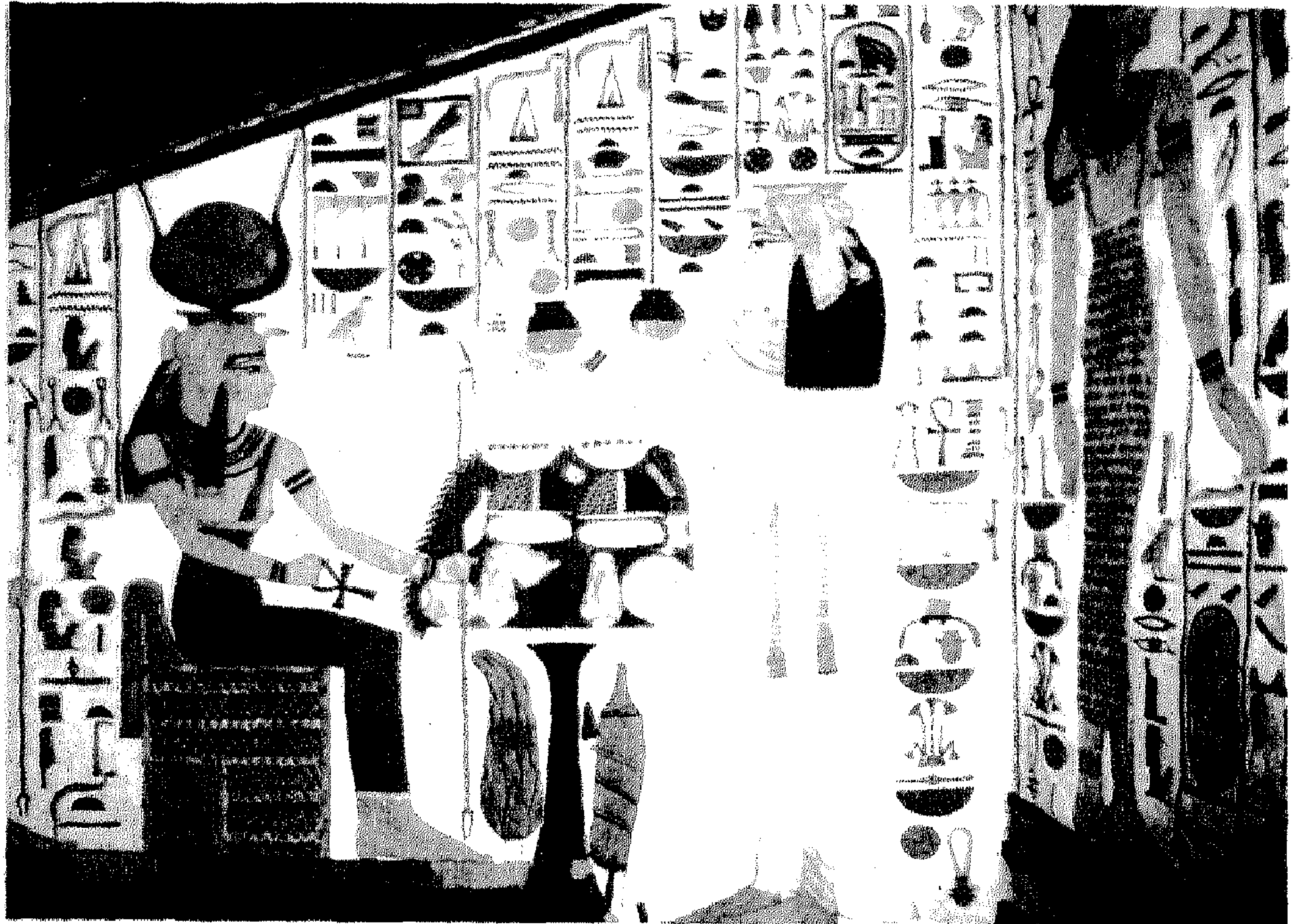
واجهة معبد عمدا



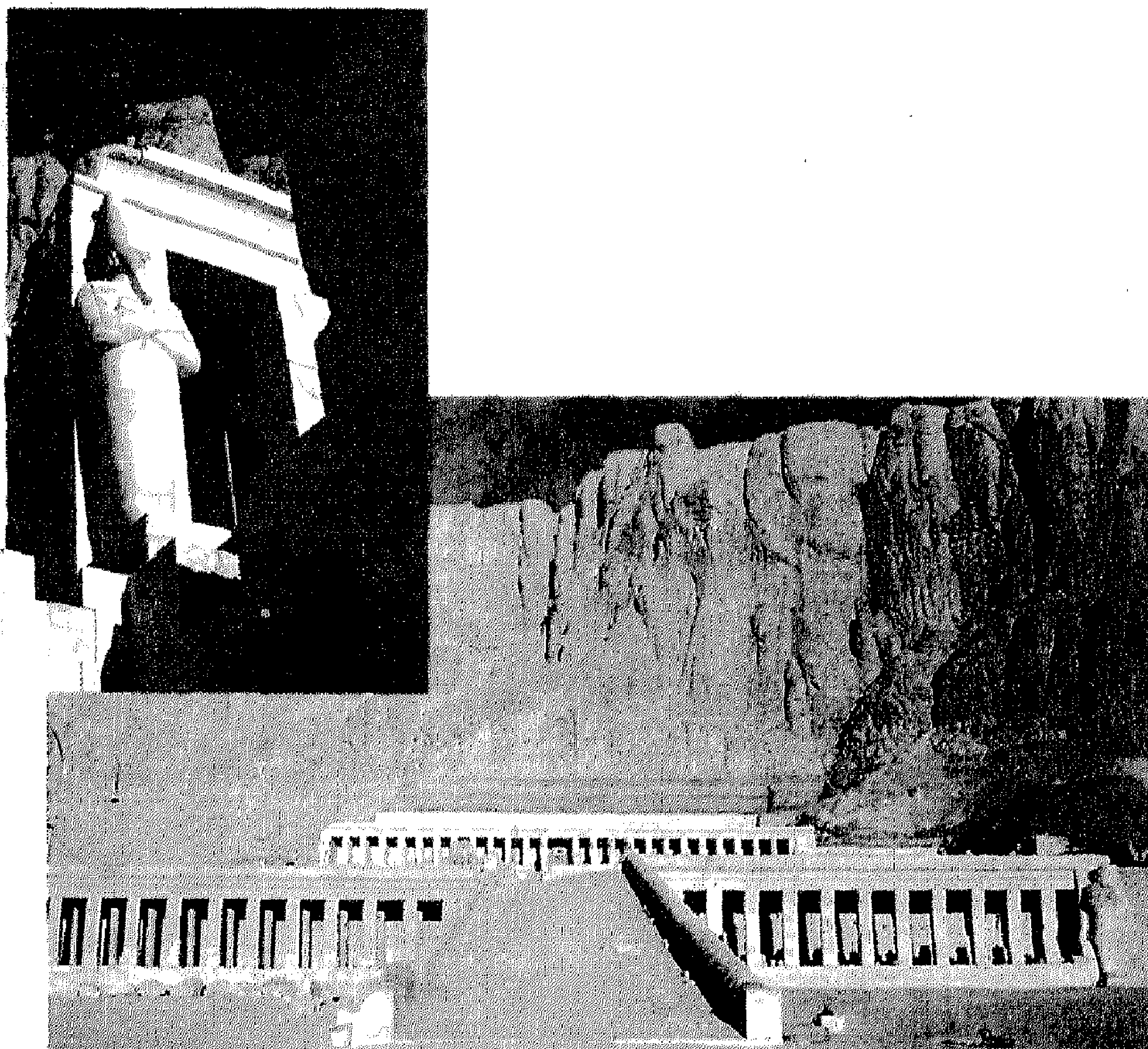
واجهة معبد الدر



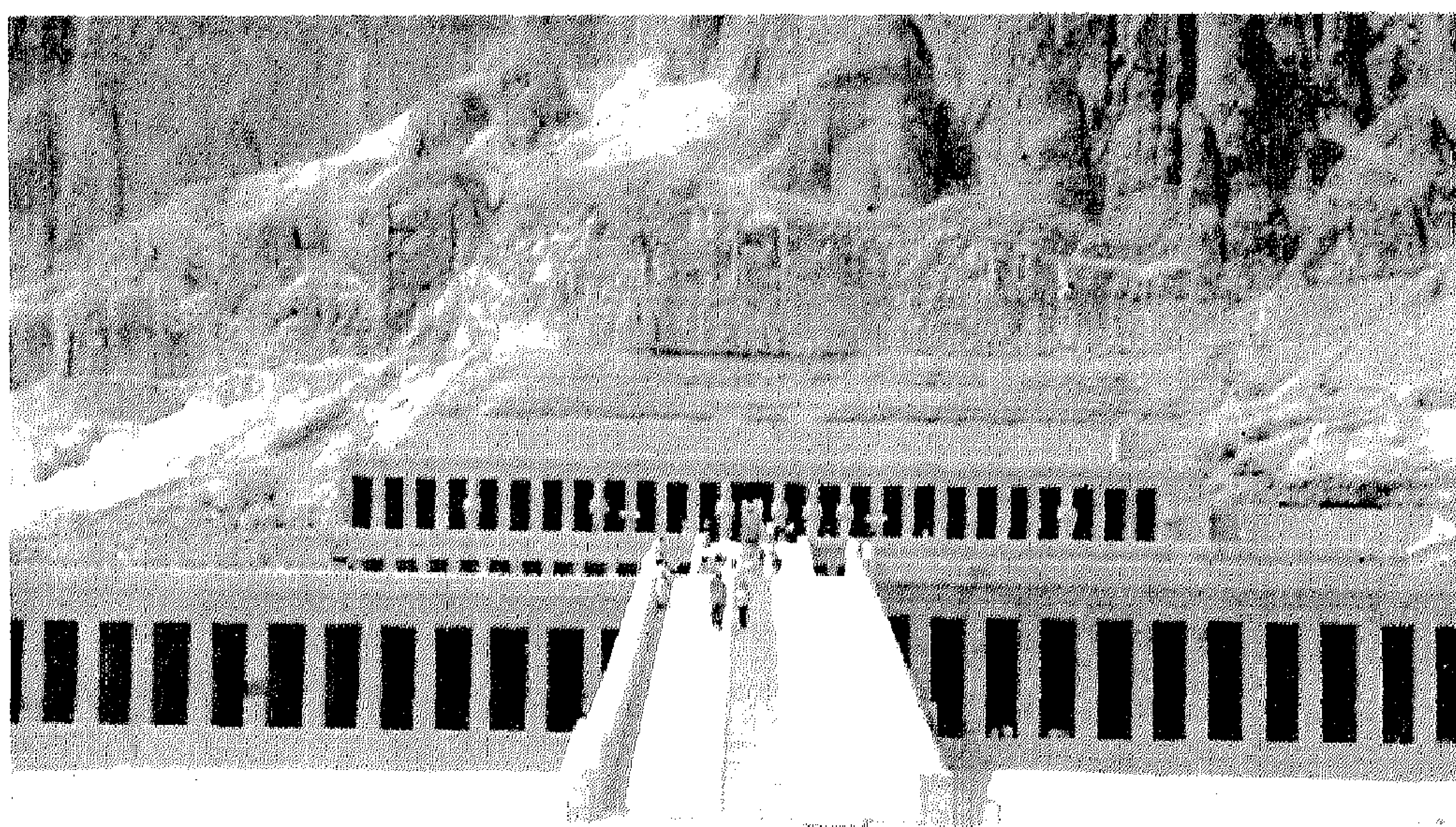
منظر من كتاب الموتي يصور عملية وزن القلب



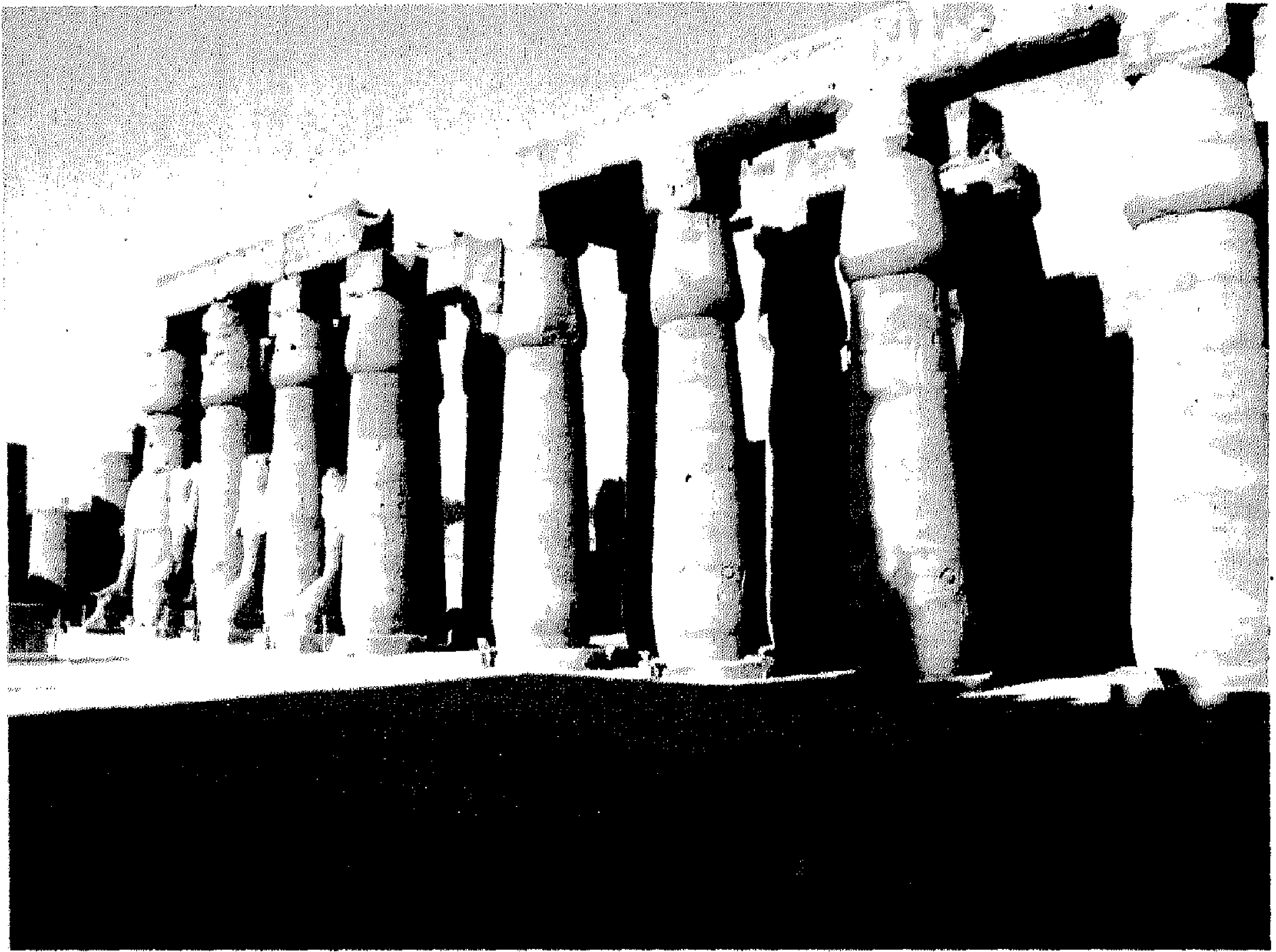
منظر للملكة نفرتارى تقدم القرابين للآلهة حتحور



معبد الدير البحرى للملكة حتشيبسوت



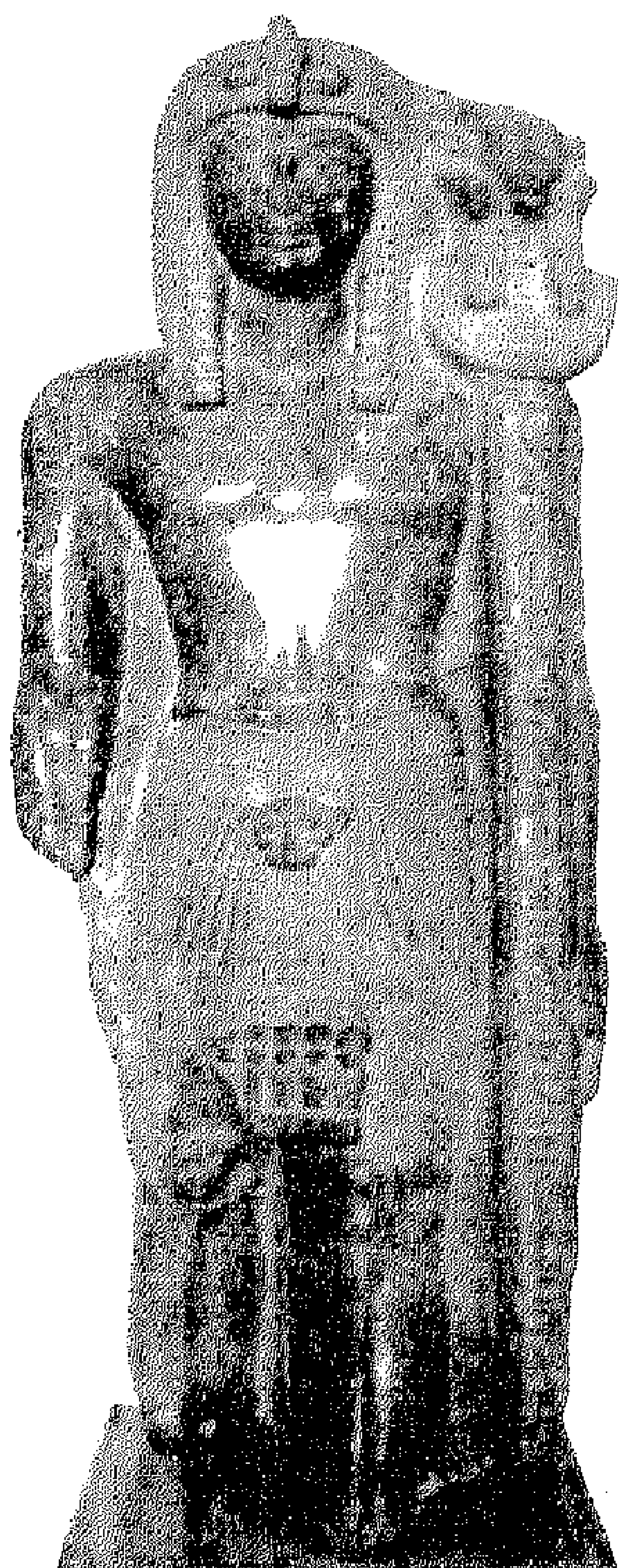
منظر يوضح معبد الملكة حتشبسوت - الدير البحري



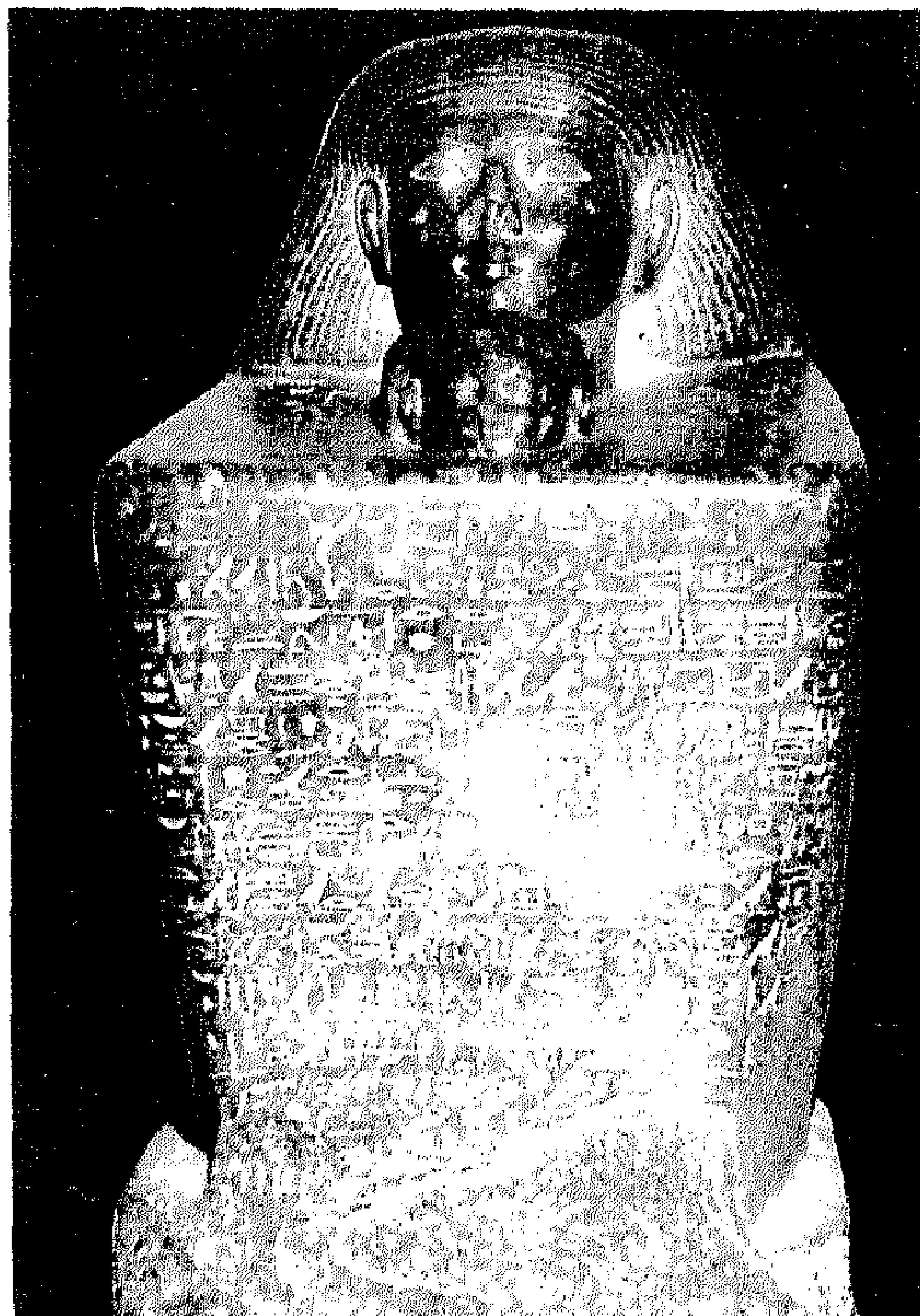
بهو الأعمدة بمعبد الأقصر



تمثال للملك رمسيس الثانى يقف فى الفناء الأول بمعبد الكرنك - جرانيت



تمثال لرمسيس الثالث حامل شعار
آمون جرانيت - المتحف المصرى



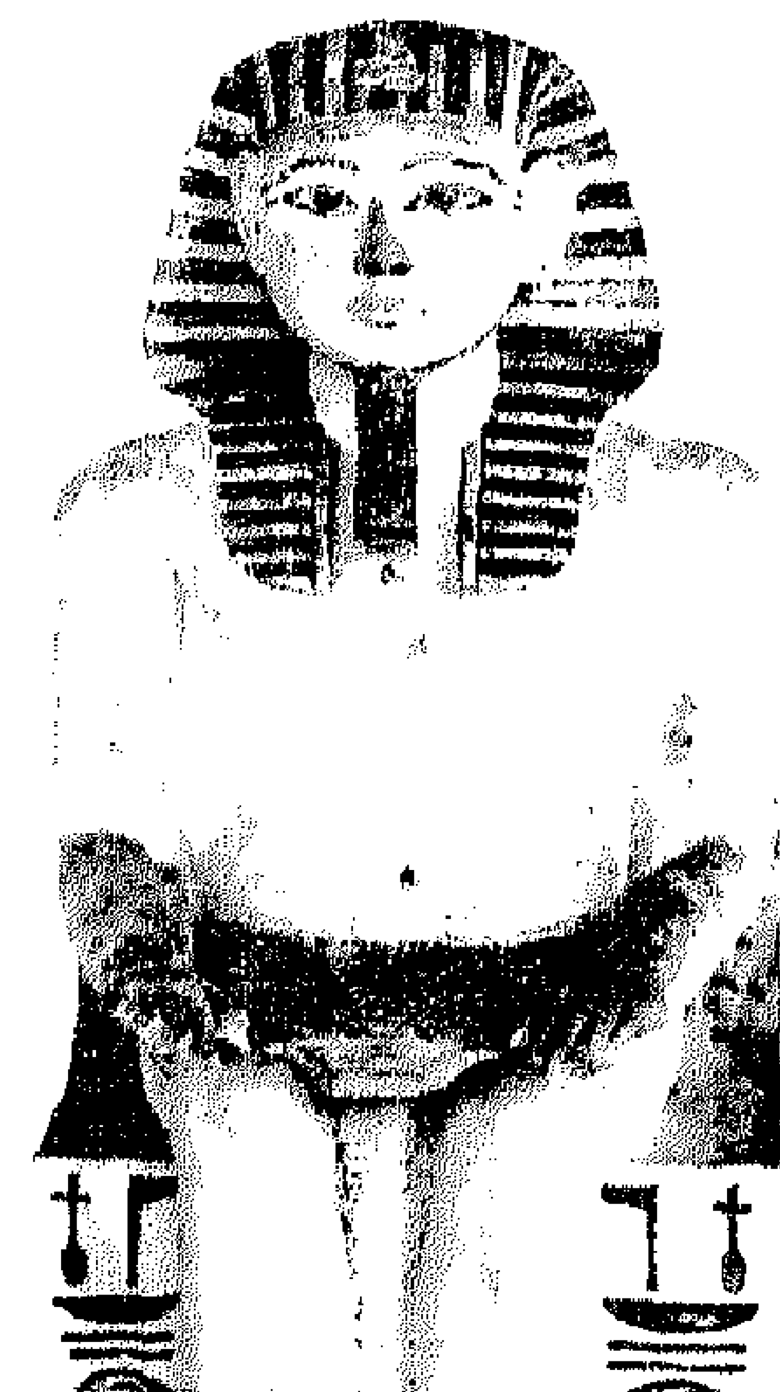
تمثال للملك تحوتمس الرابع وأمه
- جرانيت - المتحف المصرى



تمثال لسنموت وزير الملكة حتشبسوت
وهو يحمل الأميرة نفرورع



رأس للملكة تى - سشت
المتحف المصرى



تمثال للملك أمنحتب الأول - متحف تورينو



منظر من مقبرة سيتى الثانى يصور الملك أمام المعبود رع حور آختى



منظر من مقبرة رعموزا يصوره مع زوجته



رأس للملكة نفرتيتي
حجر جيرى - متحف برلين



تمثال للملك اخناتون
حجر رملى - المتحف المصرى



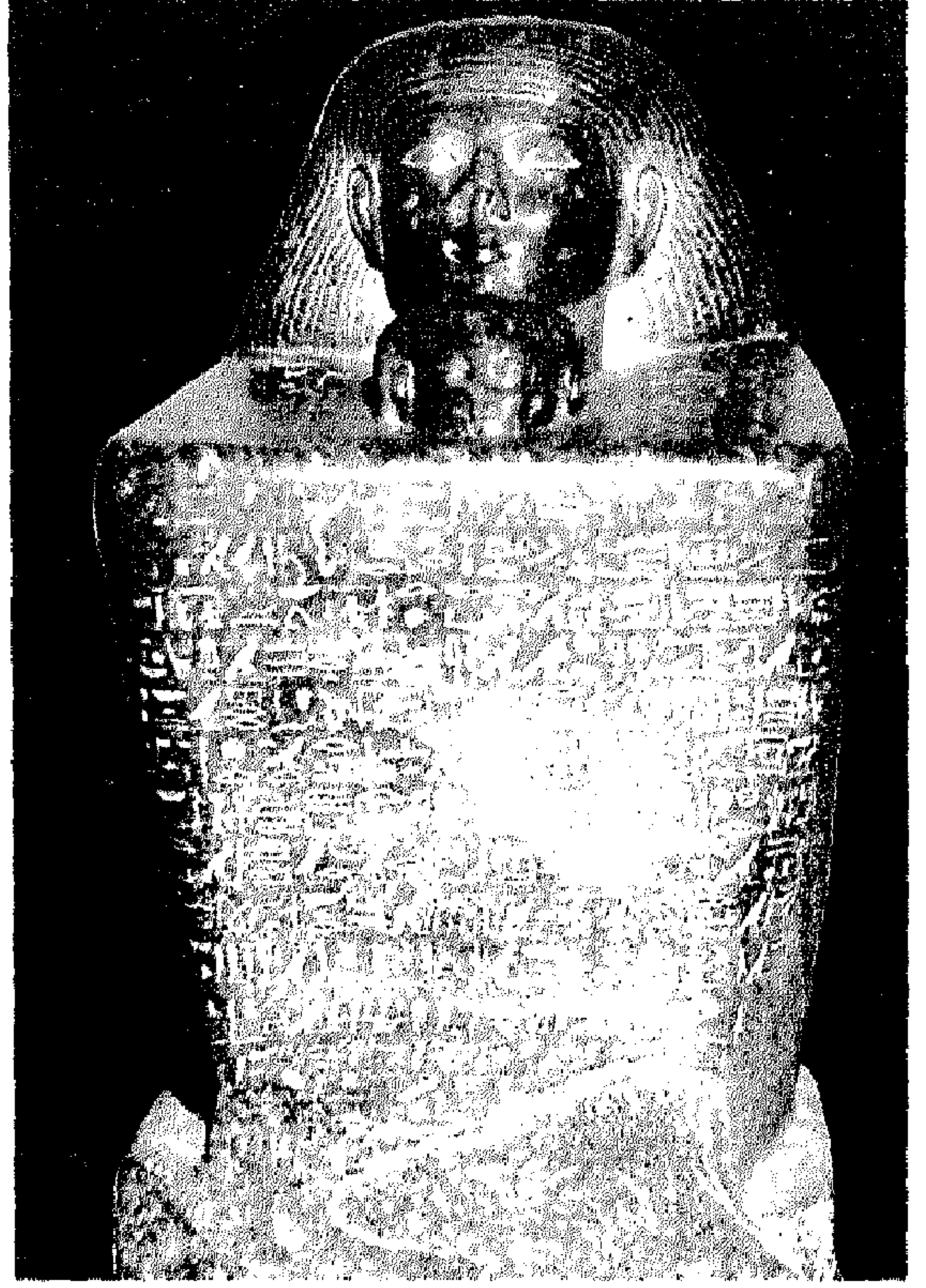
تمثال لموت نفرت - المتحف المصرى



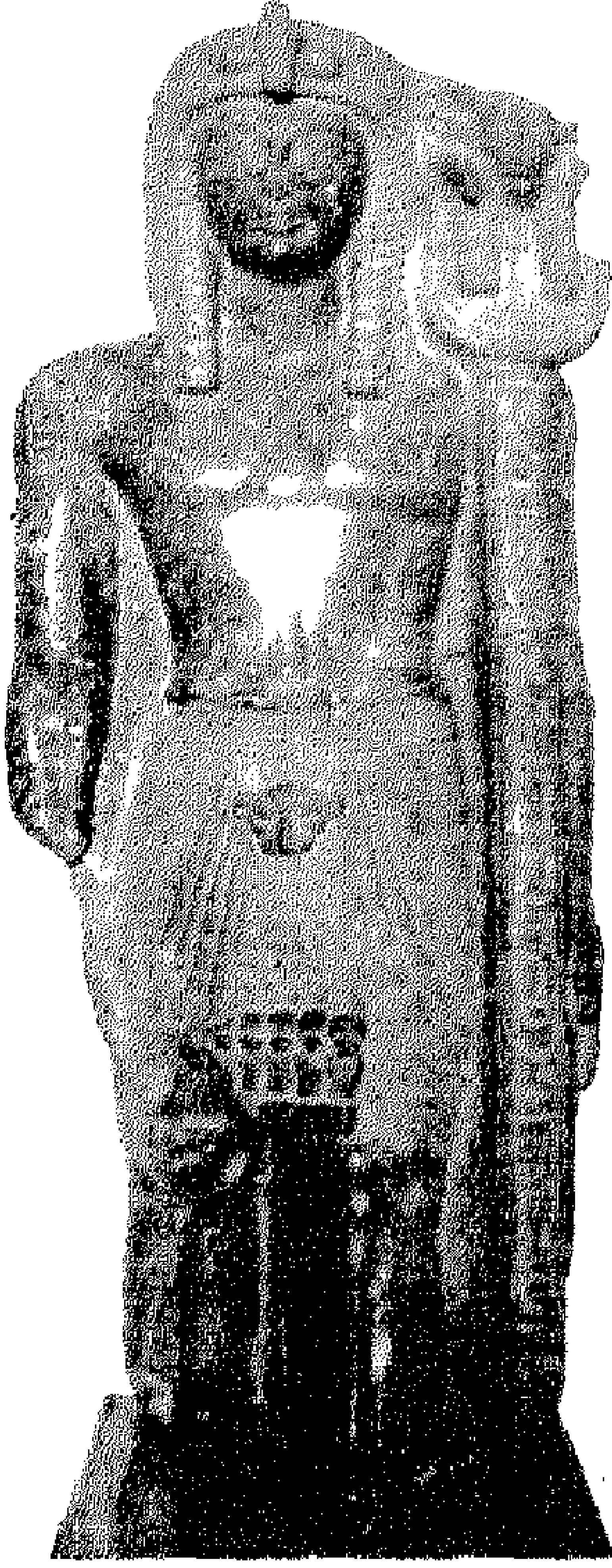
بهو الأعمدة بمعبد الأقصر



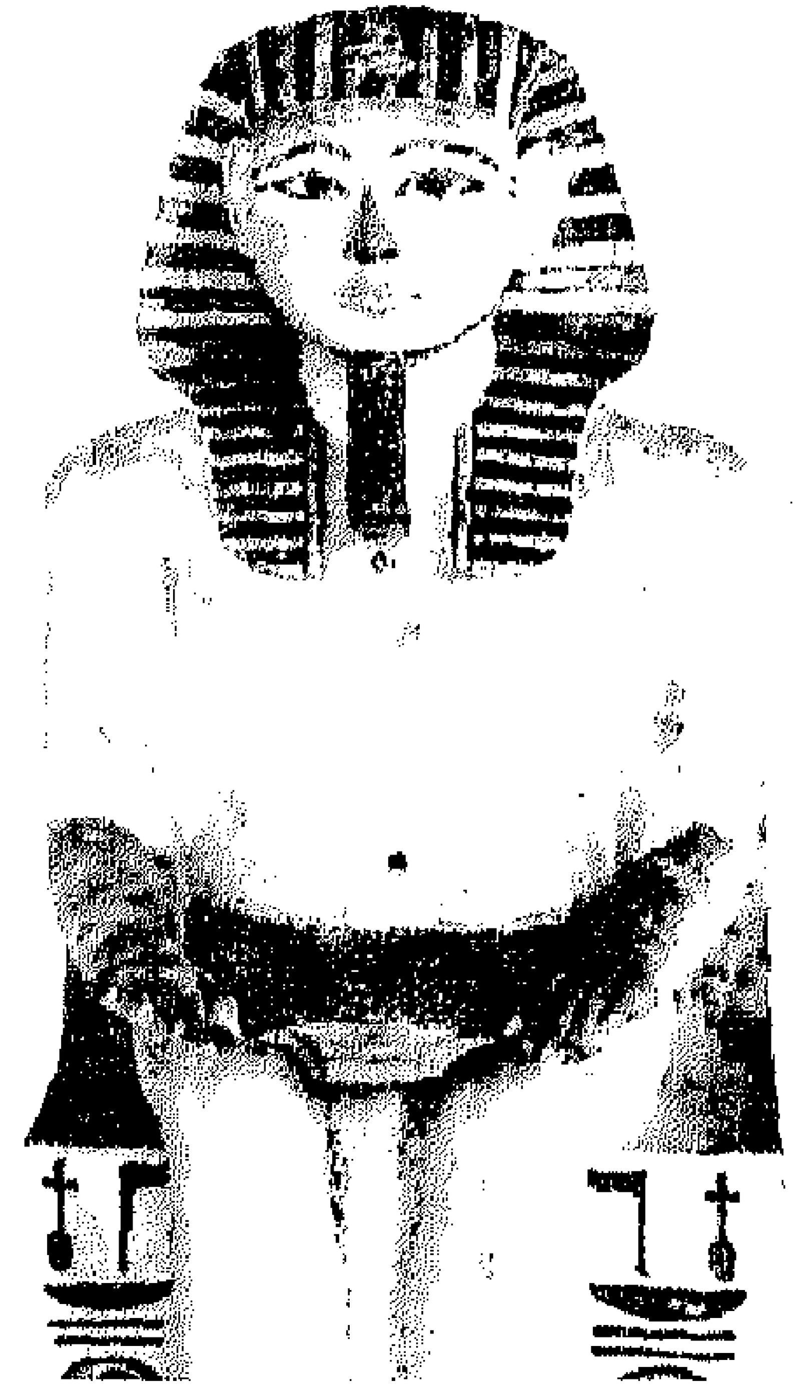
تمثال للملك رمسيس الثانى يقف فى الفناء الأول بمعبد الكرنك - جرانيت



تمثال للملك تحوتمس الرابع وأمه
- جرانيت - المتحف المصرى



تمثال لرمسيس الثالث حامل شعار
آمون جرانيت - المتحف المصرى



تمثال للملك أمنحتب الأول - متحف تورينو



رأس للملكة تى - سشت
المتحف المصرى



تمثال لسنموت وزير الملكة حتشبسوت
وهو يحمل الأميرة نفرورع

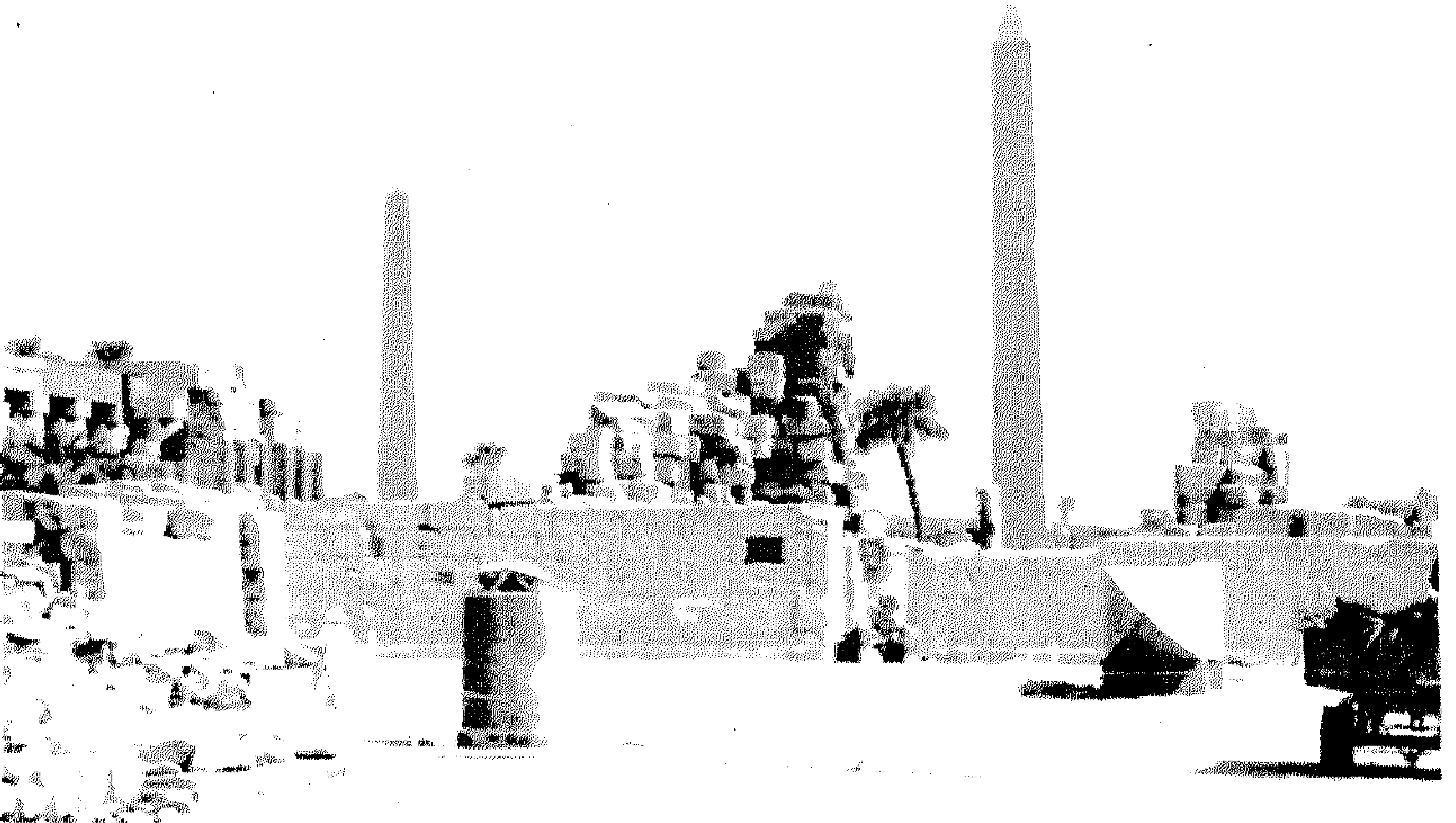

تمثال للملك حورمحب
متحف المتروبوليتان


تمثال الملك أمنحتب الثانى مع حتحور
حجر رملى - المتحف المصرى

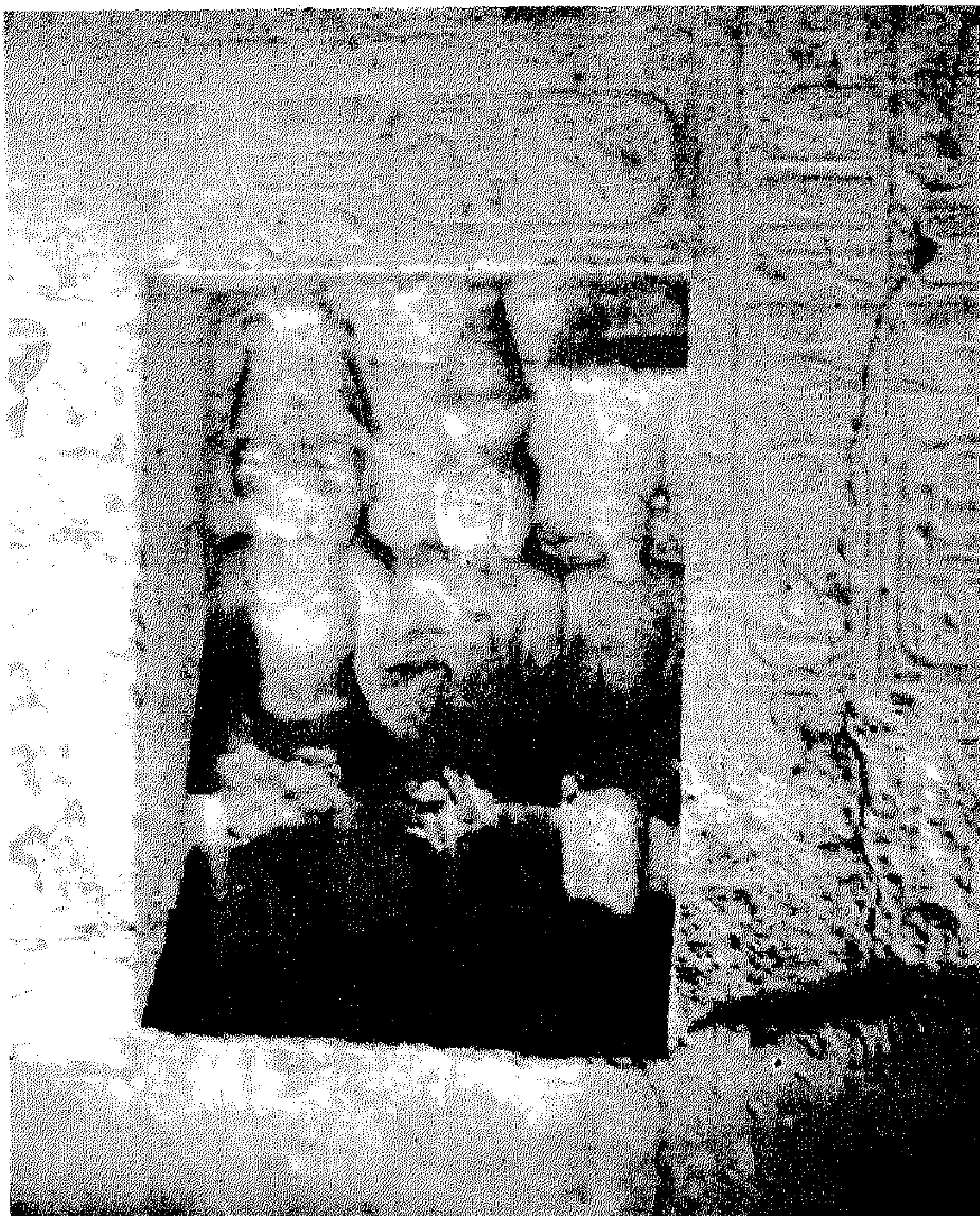

تمثال للملكة حتشبسوت
متحف المتروبوليتان



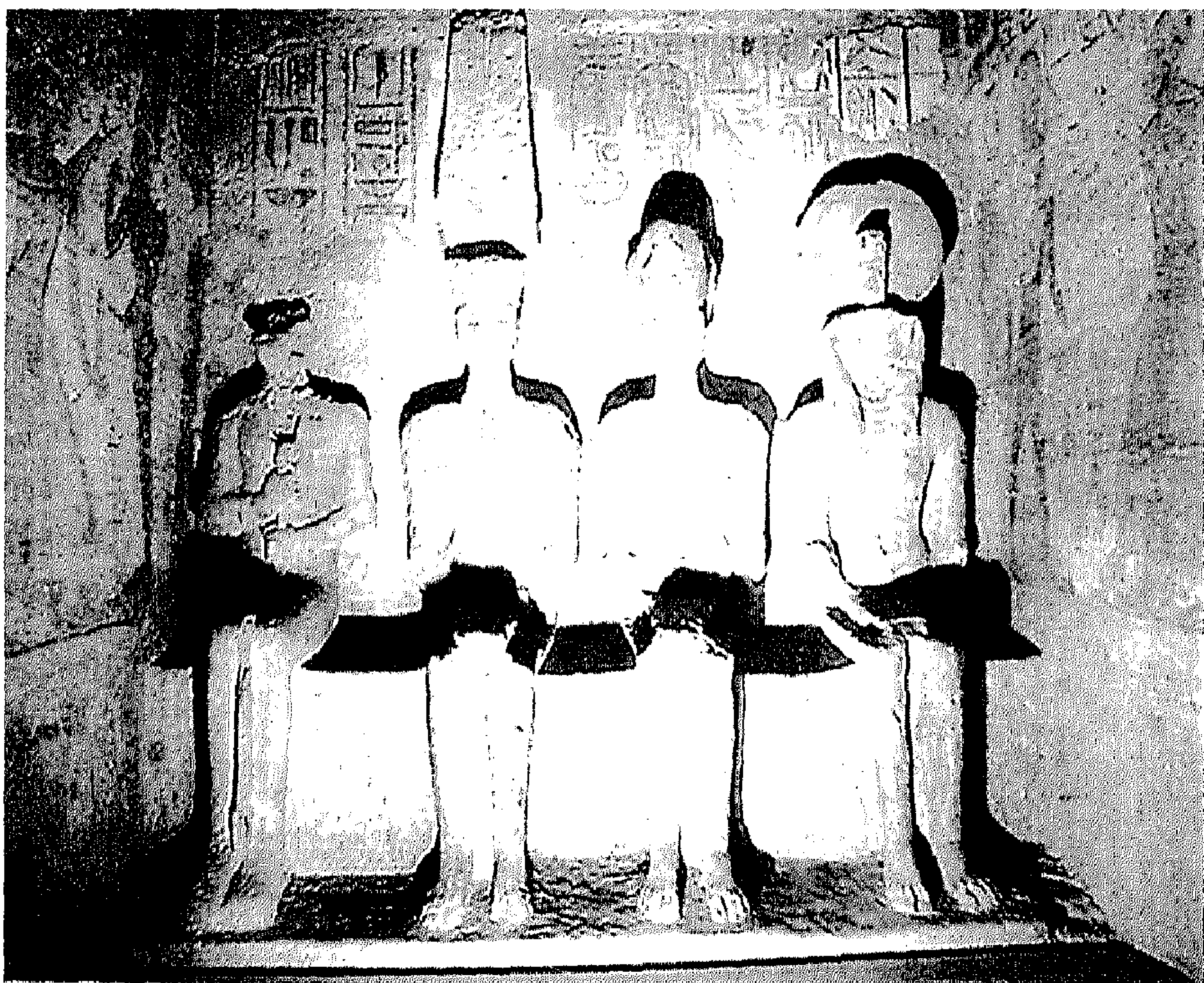
منظر يوضح طريق أبو الهول بمعبد الأقصر



منظر للمعبد الكبير بالكرنك يوضح مسلة الملكة حتشبسوت بجوار مسلة الملك تحوتمس الاول



قدس الأقداس بمعبد بيت الوالى



منظر لقدس الأقداس بمعبد أبو سمبل الكبير



منظر من مقبرة رعموزا يمثل صاحب المقبرة يقف ممسكاً عصا



منظر من مقبرة نخت يصوره مع زوجته



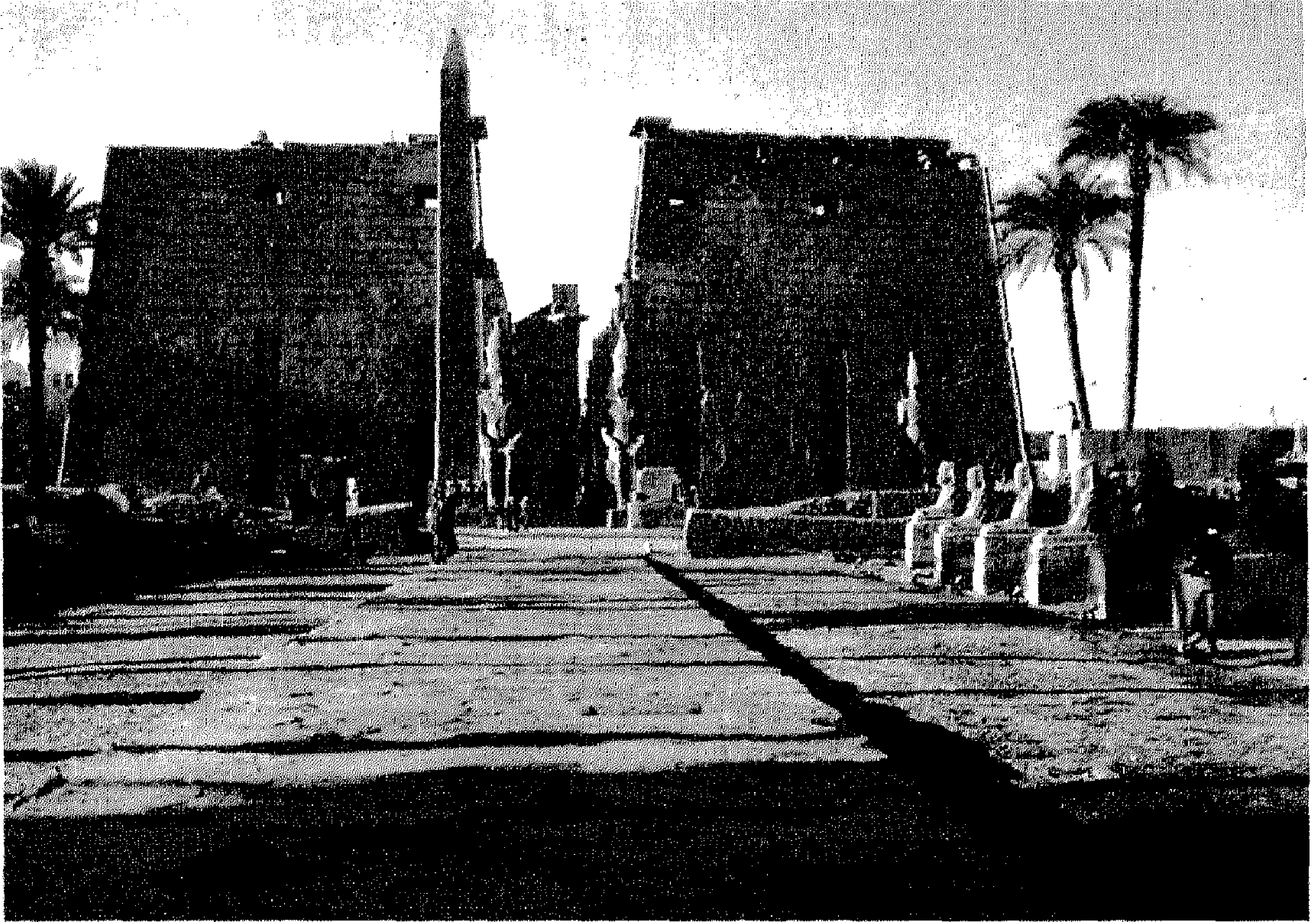
تمثال للملك حور محب
متخف المترو بوليتان



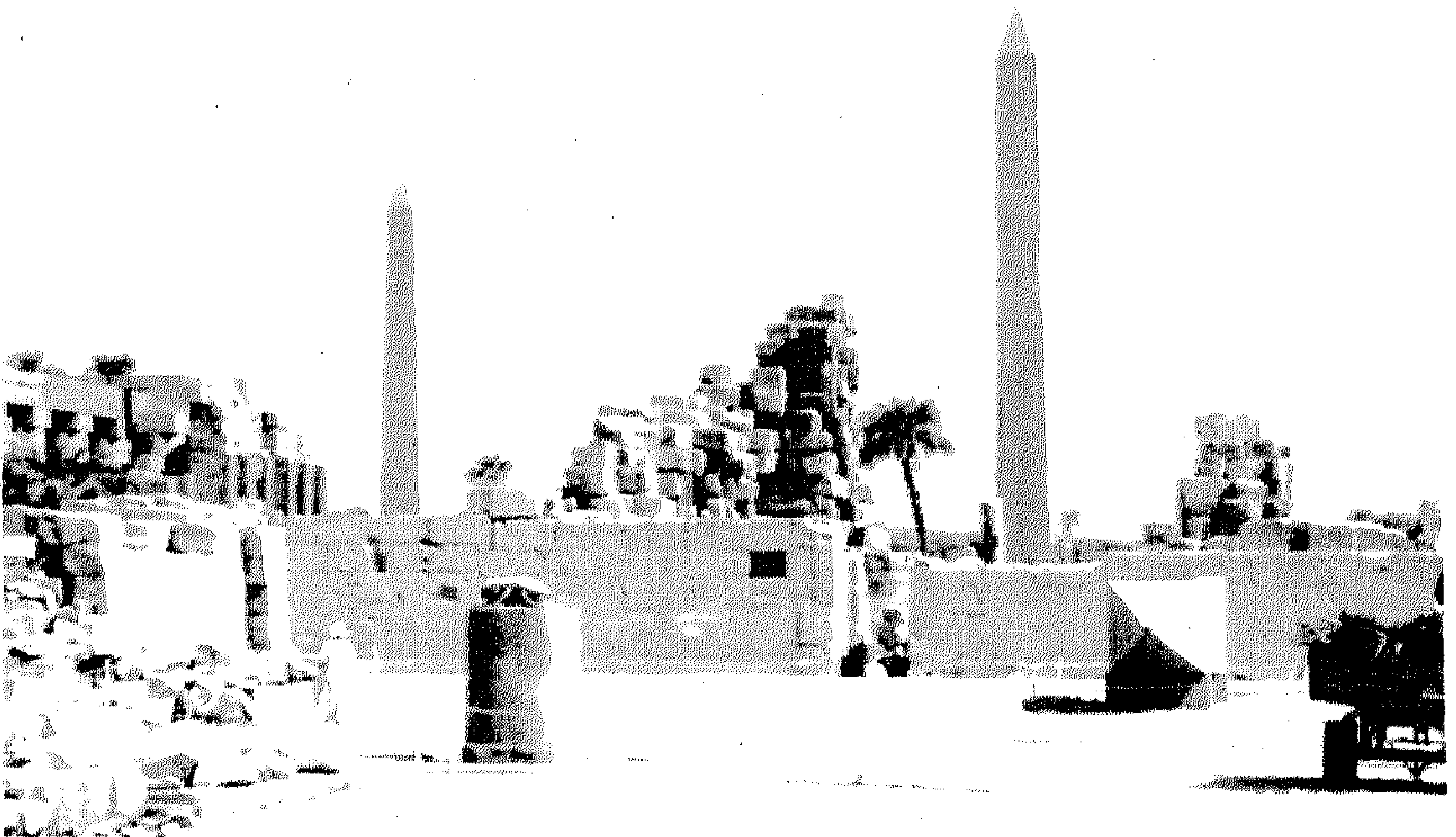
تمثال الملك أمنحتب الثانى مع حتحور
حجر رملى - المتحف المصرى



تمثال للملكة حتشبسوت
متحف المترو بوليتان



منظر يوضح طريق أبو الهول بمعبد الأقصر



منظر للمعبد الكبير بالكرنك يوضح مسلة الملكة حتشبسوت بجوار مسلة الملك تحوتمس الاول

التاريخ المصري القديم

